الجانب الفنيّ في قصص القرآن الكريم

رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

تأليف

الدكتور عمر محمد عمر باحاذق

رئيس قسم البلاغة والأدب

في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

دار المأمون للتراث

دمشق - ص.ب: ٤٩٧١

بيروت - ص.ب: ١١٣/٦٤٣٣

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

تطلب منشوراتنا من

دار المأمون للتراث

دمشق - ص.ب ٤٩٧١ - هاتف ٢٢٩٨٢٠

بيروت - ص.ب ١١٣/٦٤٣٣ - هاتف ٨١٠٥٧١

بسم الله الرحمن الرحيم

الجانب الفنّي
في
قصص القرآن الكريم

الإهداء

أهدي هذا الكتاب

إلى والدنا العزيز

فضيلة الدكتور عبد الله الصالح العبيد

رئيس الجامعة الإسلامية

بالمدينة المنورة

ابنك عمر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ،والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد ،وعلى آله وصحبه وأتباعه إلى يوم الدين .

أما بعد : فها هي ذي رسالتي بعنوان « **الجانب الفني في قصص القرآن الكريم** » المتقدم بها بعون الله تعالى ،للحصول على درجة الماجستير في الأدب العربي من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

وفي الواقع ،إن البحوث القرآنية مهما تعدّدت وكثرت جوانُبها ، فنحن كلَّ يوم في احتياج إلى مزيد ومزيد من تلك الدراسات التي تكشف لنا الحين بعد الحين سرّاً من أسرار هذا الكتاب المقدس ،وتعرب لنا عن قوة بيانه ،وروعة إعجازه ،وسموّ معانيه .

ولا ريب في هذا ،فهو كتاب من عند الله ،لايأتيه الباطل من بين يديه ،ولا من خلفه ، تنزيلٌ من حكيم حميد .

والقصص القرآني أُعجب به كثير من الباحثين ، حتى كرّسوا جهدهم في الغوص على معانيه ،والوصول إلى ماحوله من حكم وعبر ،حتى زخرت المكتبات بطرائف عديدة من هذا البيان الساحر الذي عجز عنه كلُّ البشر .

ومن الذين بحثوا في هذا المضمار ، الدكتور محمد أحمد خلف الله في كتابه « الفن القصصي في القرآن » ، والمرحوم الشهيد سيد قطب في كتابه « التصوير الفني في القرآن » ،والأستاذ عبد الحافظ عبد ربه في كتابه« بحوث

في القرآن » ،والأستاذ محمود زهران في كتابه « قصص من القرآن » .

إلى غير ذلك من مؤلفات وبحوث حول هذا الجانب القصصي في كتاب الله عز وجل .

وفي الواقع ،إن كلّ باحث من هؤلاء الباحثين له دور كبير في جلاء معالم هذه القصّة القرآنية ،وإبراز ما احتوت عليه من جمال فني أخّاذ ،وروعة بيان له أثره البالغ في النفوس .

ولكنني رأيت أن هؤلاء الباحثين وغيرهم ـ على ما يبدو لي ـ قد لايضعون القصة القرآنية في إطار واحد متكامل ، ثم بعد هذا يحاولون أن يطبقوا عليها المنهج التكامليّ ، والأسس الجمالية المطلقة ،حتى يكون الحكم عليها حكماً شاملاً ، قد تناول جميع أطرافها ، وما لها من لمحات فاقت كل تقنين صاغه الكتّاب .

وقد آثرت في بحثي هذا أن يكون مبنيّاً على منهج متكامل ، حتى تنجلي مناحيها الفنية ،وتظهر روعتها الإبداعية ،وسحرها الذي يأخذ بتلابيب القلوب .

ولهذا حاولت ما استطعت أن أدرس كلّ جزئية من الجزئيات على حدة ، حتى يكمل البناء الفني في تناسقه ،ويتمّ البحث بعد الغوص في الأعماق ، والتفتيش عن كثير من الخبايا .

وإذا كان النقاد المحدثون رأوا أن مقوّمات القصة لن يتم بهاؤها ويزهو رونقها إلا بمعايير خاصّة ، فقد حاولت أن أبحث عن هذه الجوانب التي ارتَضوها معياراً لنقدهم ومنارة تهديهم .

فرأيت أن نظراتهم في الكثير منها كانت ترنو إلى هذا القصّ القرآني ، حتى اتخذوا منه نبراساً يضيء لهم معالم الطريق ،ويرسم لهم نظرياتهم التي اتخذوها حيال القصص المثالية .

إن القرآن الكريم بقصصه الرائعة كان مدداً رائقاً لكلّ باحث

ومنقّب ، وذخيرة لاتنفد لكلّ من ينشد العون والمثاليّة المطلقة .

فمن معينه يرتـوون ، ومن أفكاره يقتبسـون ، ومن هداه يسترشدون ،ومن سحر بيانه وروعة أسلوبه يتأثّرون .

إن كانت هناك مدرسة نقدية تحاول أن ترفع من شأن القصّ ، وتعلي من قدره في إطاره الفني ،فذلك بعد أن تتمثل القصة القرآنية بما لها من أضواء وظلال ،وما حولها من متعة وشوق ، وأسر ،وتلاحم ، وترابط ، وعظة بالغة .

لهذا كلّه آثرت الحديث عن الجوانب الفنية في القصّة القرآنية حتى أكشف شيئاً من جمالها الآسر ،ولأثبت عجز البشرية الذين وإن حاولوا المحاكاة والتمثّل بهذا الفن ،إلا أنهم سرعان ما يحسّون بعجز شامل ، وإخفـاق واضح . ومن ثم يحسـون بالعـظمة العلويـة ،والقـدرة الربّانية ،وصدق الحق ، عز وجلّ ،وهو القائل : ﴿ قل لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتُوا بمثلِ هذا القرآنِ لايأتونَ بمثلهِ ولو كانَ بعضهم لبعضٍ ظهيراً ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

وقد حاولت في بحثي أن أسير فيه على المنهج التالي :

تقسيم الرسالة إلى أربعة أبواب ،ويندرج تحت كل باب فصول ، هكذا :

الباب الأول : مقاصد القرآن :

الفصل الأول : العقيدة والتشريع وما يتعلّق بهما .

الفصل الثاني : التأسّي والاعتبار .

الباب الثاني : التكرار في القصة القرآنية :

الفصل الأول : القصّة القرآنية بين التكرار وعدمه .

الفصل الثاني : جزئيات القصة القرآنية الواحدة بين التكرار وعدمه .

الفصل الثالث : الإفادة في تكرار القصة القرآنية .

الباب الثالث : ملامح القصّة القرآنية :

الفصل الأول : عنصر التشويق .

الفصل الثاني : رسم الشخصية القرآنية وحيويّتها .

الفصل الثالث : أحداث القصة القرآنية من حيث ترابطها وواقعيتها .

الفصل الرابع : ما تهدف إليه القصة من قيم ومعالجة إنسانية .

الباب الرابع : من روائع التصوير في القصص القرآني :

الفصل الأول : التناسق الفنّي .

الفصل الثاني : الإصابة في نقل العواطف .

الفصل الثالث : قوة الإحكام والربط .

مع جهدي المتواصل الذي قد أعانني الله عليه ، ومحاولتي تتبع أحداث القصة ، والوقوف على ما حولها من جوانب فنية ، محاولاً أن أربط ذلك ببعض المدارس النقديّة الحديثة ، مما لم أسبق به ـ في زعمي ، والله أعلم ـ والعمل على ضرب الأمثلة المتعددة في كثير من جزئيّات القصة التي يربطها رباط واحد ، لكي يكون الحكم على القصة حكماً عاماً .

وكنت آتي كثيراً بالمقدمات والبراهين التي توصلني إلى النتائج الحتميّة حتّى يحسّ القارىء لها بأنها أمور بدهية لاتحتمل وهماً ولا خلطاً . وحاولت ما استطعت أن لاأهتم بجانب دون جانب . ومن ثمّ تناول بحثي الشكل والمضمون بما ينطوي تحتهما من مدلولات وملامح كثيرة .

مع جهدي هذا ، إلا أنني لاأنكر ما قدمه لي بعض من سبقوني في هذا الفن القصصي من أمثال الدكتور محمد أحمد خلف الله ، والشهيد سيد قطب ، فلقد فتحوا لي الطريق ،ومهّدوا لي السبيل ،ويسروا لي بعض الوعر من الطرق ،حتى أضفت إلى أفكارهم طرائف عديدة .

وأحياناً كنت أناقش رأي من سبقني في نقاش جديّ بنّاء ، حباً في الوصول إلى الحقيقة ، وذلك كمناقشتي لرأي الإمام محمد عبده ـ رحمه الله ـ حيث زعم بأن القصص جاءت في القرآن لأجل العظة والاعتبار ،لاالبيان التاريخ ، ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ، وإنه ليحكي من عقائدهم الحق والباطل .

وقد وافقته في قضية العظة والاعتبار ، وأنه يحكي من عقائدهم الصادق والكاذب ،والنافع والضار ،ولكني لم أوافقه في قضية عدم الحمل على الاعتقاد ، وكيف ذاك ،والمولى ، عز وجل ، يقول : ﴿ ما كانَ حديثاً يُفْتَرى ،ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه ﴾ ؟!!

فما دامت القصة حقاً ،وليس فيها افتراء ،فلزاماً علينا أن نعتقد ونصدّق كلَّ جزئية من جزئيّاتها .

ومامن قضيّة بلاغيّة أثارها غيري من الباحثين ،ولها صلة بالإعجاز القرآني الذي يرتبط بالقصة القرآنية ارتباطاً وثيقاً ،إلا حاولت ما استطعت أن أناقشها ،مبدياً ما أراه من رأي صائب ، وإن كان ذاك على حساب مخالفة رأي الآخرين .

وهكذا كانت قراءتي لمن كتب في القصة القرآنية مع إفادتها لي أحياناً ، إلا أنني لم أقف عندها جامداً ،فقد أناقش بعض قضاياها ، وأحلّل كثيراً من جوانبها ،ولربما أنني أصل إلى شيء قد لايتفق مع فكر من سبقوني في هذا الجانب ،ومع هذا فلربّما أنني قد تطرقت لبعض الجوانب الفنية في القصة مما لم يطرقه أحد قبلي حسبما أزعم ـ والله أعلم .

وأنا لاأنكر أن كتاب الأستاذ عبد الوهاب النجار ـ رحمه الله ـ « قصص الأنبياء » ،كان رافدة هامة من الروافد التي غذتني في هذا البحث ، لاأقول من الناحية الفنية ،وإنما من الناحية الموضوعية ،حيث إنه يطرح علينا في

كتابه القصة القرآنية في كثير من أطرافها ومعالمها عرضاً شيّقاً جذّاباً ،حتى تنكشف حقيقتها ،وتظهر أسرارها .

وبعد : إني لايسعني إلا أن أشكر كلّ من أسهموا في عوني لإتمام هذا البحث المتواضع . وأخص بالشكر والعرفان ،الأستاذ الدكتور عبد الفتاح السيد محمد الدماصي ـ الذي لم يضن عليّ بأي توجيه أو استفسار ،والذي قام بدوره بأمانة وإخلاص بفساحة صدر ،وتشجيع بالغ ،فكان مشعل هداية ينير لي دياجي ماأشكل عليّ .

وبعد ،فهذا عمل متواضع ،وأنا على بداية الطريق ،أسأل الله ،عزّ وجل ،أن يجعله فاتحة خير ،وانطلاقة نحو العلم النافع ،والخير العميم ، وأن يجعلني دائماً ممن يتبصّرون القرآن ، ويقفون على شيء من إعجازه ،والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

تمهيد

حينما أتحدث عن الجانب الفنّي ،يكون حديثي منصبّاً على كثير من الجوانب الفنّية التي كان مبعثها الإبداع لما فيها من روعة أخّاذة ، ومواصفات لم تكن على مثال سابق .

ومن ثمَّ يلوح لي أن أوضح قضية الإبداع التي انجلت بها الجوانب الفنّية في القصة القرآنية .

فإذا تعقّبنا هذا المعنى في القرآن والسنّة وكتب اللغة وكتب التراث وجدنا هذا المعنى يعطينا كثيراً من الملامح التي تفيدنا فيما أردناه من الإبداع الفني في القصة القرآنية .

فالقرآن الكريم قد تحدث عن مادة الإبداع في أكثر من آية ،ففي سورة الأنعام قوله تعالى . ﴿ بديعُ السمواتِ والأرضِ أنّى يكونُ لهُ ولَدٌ ولم تكنْ له صاحبةٌ وخلَقَ كلَّ شيءٍ وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾ . [سورة الأنعام : ١٠١] ، ومعناه : مبدعهما على غير مثال سابق [١] .

وفي سورة الأحقاف : ﴿ قلْ ما كنتُ بِدْعاً من الرسلِ وما أدري ما يُفعلُ بي ولا بكم إنْ أتَّبع إلا ما يُوحى إليَّ وما أنا إلاّ نذيرٌ مبينٌ ﴾ . [سورة الأحقاف : ٩] . ومدلولها كما ذهب إليه كثير من المفسرين : « ما أنا بأول رسول ، وقد بعث الله قبلي كثيراً من الرسل » ، [٢] فمعنى هذا أن كلمة بدع تفيد المثال الذي لا يوجد على نمط سابق ،فهو مثال فريد .

(١) فتح القدير للشوكاني ـ الجزء الثاني : ١٤٧ .

(٢) راجع فتح القدير ـ الجزء الخامس : ١٥ .

وفي سورة الحديد يقول تعالى : ﴿ ورهبانيَّةً ابتدَعُوها ما كتبناها عليهم ﴾ [سورة الحديد : ٢٧] أي : مبتدعة من عند أنفسهم ، فالعبارة تفيد اختراع الحدث ،لاعلى مثال سابق (١) .

ومن أمثلة ورود هذه المادة في السنّة : « تهامة كبديع العسل ،حلو أوله حلو آخره » ـ شبه تهامة ببديع العسل لطيب هوائها ، وأنه لايتغيّر كما أن العسل لايتغير ،وهنا نلمس معنى جديداً لكلمة بديع ،وهي الحسن والصفاء والحلاوة والجمال ،كبديع العسل ، وذلك لاستقرار هواء هذه المنطقة ،فليست بذات حرٍّ مفرط ولا قرٍّ مؤذٍ ، بل كلُّها حلاوة واعتدال .

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قيام رمضان : « نعمت البدعة هذه » لأنها من أفعال الخير ،لأن فيها صفاء روحياً ، وصلةً وجدانية بالإله الواحد الأحد ،وخيراً وجمالاً ، فهي نعمت البدعة .

وأفاد ابن الأثير أنها لاعلى مثال سابق حيث يقول : ومن أسماء الله تعالى « البديع » ،وهو الخالق المخترع ،لاعن مثال سابق ،فعيل بمعنى مفعل ،أي : بديع فهو مبدع (٢) .

---

(١) فتح القدير ـ الجزء الخامس : ١٧٨ ، والجلالين : ٢٩٣ .

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ـ الجزء الأول : ١٠٦ ـ ١٠٧ . هذا وكلمة الإبداع وإن كانت قد جاءت بمعنى الجمال والحسن ،إلا أنه قد ورد لها معنى ثالث مضادّ للمعنى الثاني ،وهو وإن لم يكن مقصوداً لنا هنا ، ولكنّا نستشفّ من هذا المعنى معنىً وجدانياً جمالياً .

جاء في الأثر :أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال له : « إني قد أبدع بي فاحملني » ،أي : انقطع بي لكلال راحلتي .

النهاية لابن الأثير :١٠٦ ـ ١٠٧ .

وهنا نلمس الجمال الذي ألبس ثوب القبح في اشتداد الراحلة ونشاطها في المسير حتى كلّت ،وأن التريّث مطلوب في كلّ شيء ، وأنّ المنبتّ لا أرضاً قطع ،ولا ظهراً أبقى .

فهنا صورة ونموذج حيّ في تمثل معنى الأناة والصبر ،وعدم الاستعجال في كلّ الأمور .

ومن ورود هذه الكلمة في كتب المعاجم ما ذكره ابن منظور في اللسان : « بدَع الشيء يَبْدَعُهُ بَدْعاً ، وابتدعه : أنشأه وبدأه » .

والبديع والبدع : الشيء الذي يكون أولاً [1] .

وفلان بِدْعٌ ـ بكسر أوله مع سكون الثاني ـ في هذا الأمر ، أي : أول لم يسبقه إليه أحد ، والبديع المُحْدَث العجيب .

﴿ بديعُ السمواتِ والأرضِ ﴾ أي : خالقها ومبدعها ، فهو سبحانه الخالق المخترع لا عن مثالٍ سابق .

ورجل بِدْع ، وامرأة بِدعة : إذا كان غاية في كلّ شيء ، عالماً ، أو شريفاً ، أو شجاعاً [2] .

والإبداع عند الفلاسفة : إيجاد الشيء من عدم ، فهو أخص من الخلق [3] .

فإذا انتقلنا إلى الأدباء والنقّاد لنتعرف على ما قالوه حول هذا المعنى وما يحمله لديهم من تعبير ، وهل هو مستعمل في بيئتهم أم لا ؟ نجد كاتباً أديباً مثل عبد الحميد الكاتب يورد هذه العبارة في إحدى رسائله فيقول : « الحمد لله العليُّ مكانُه ، والمنير برهانه ، العزيز سلطانه ، الثابتة كلماته ، الشافية آياته . . . إلى أن يقول : وقدَّرها بحكمة على ما يشاء من عزمه ، مبتدعاً بإنشائه إيّاها » [4] .

وهو يقصد بالإبداع الإنشاء والابتكار على غير ما مثال سابق .

وأما الخطيب القزويني فيعرّف البديع « بأنه علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة » [5] .

---

(١) لسان العرب ـ الجزء التاسع : (بدع) .

(٢) القاموس المحيط ـ الجزء الثالث : (بدع) .

(٣) المعجم الوسيط ـ الجزء الأول .

(٤) علم البديع ـ د. عبد الرزاق أبو زيد : ١٣ ـ ١٥ ط ١٩٧٧ م .

(٥) الإيضاح ـ للخطيب القزويني : ٢٤٣ ط ثانية .

وابن خلدون يعرف البديع « بأنه النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع التنميق »[1] .

ومن كلامهما ما يفيد أنه يرتبط بالحسن والجمال .

ومن كلام النقّاد المحدثين ما يفيد أن هذه الكلمة وما يدور حولها تحمل معنى الحسن والاختراع .

يقول الدكتور أحمد بدوي[2] ، وهو يتحدث عن الإبداع : « وهو أن يأتي الشاعر بالمعنى المعروف ، ولكن في أسلوب جديد ، وعبارة لم يسبق إليها ، ويضرب الأمثلة لهذا بقول بشار بن برد ، قال بشار :

يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقة   والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا : بمن لا ترى تهذي فقلت لهم   الأذن كالعين تؤتي القلب ما كانا

ومما تقدم يستبين لنا أن مادتها تدور حول الحسن والاختراع والجمال الذي لا يكون على مثال سابق .

أما عن المعنى الذي قد يفهم من كلمة الفن الذي تحوم حوله رسالتنا ، فنجد كتب المعاجم تقول : الفنّ ـ بفتح الأول وتشديد ثانيه ـ واحد الفنون وهي الأنواع .

والرجل يفنِّنُ الكلام ـ بضم أوله وفتح ثانيه وتشديد الثالث المكسور ـ أي يشتق في فنّ بعد فنّ[3] .

ورجل مِفَنٌّ ـ بكسر الأول وفتح الثاني ـ يأتي بالعجائب .

وافتنّ الرجل ـ بفتح الأول وسكون الثاني وفتح الثالث وتشديد رابعه ـ أخذ في فنون من القول .

---

(١) المقدمة لابن خلدون : ٥٥١ ط . الرابعة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ـ بيروت .
(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب ـ د. أحمد بدوي :٣٨٣ طبعة دار نهضة مصر .
(٣) لسان العرب ـ الجزءالسابع عشر : (فنن) .

زاد صاحب القاموس فقال : والفنّ : الكلام المثبج [1] .

أما صاحب المعجم الوسيط ، فيعرف الفن بأنه التطبيق للنظريات العلمية بالوسائل التي تحققّها ، ويكتسب بالدراسة ، وجملة القواعد الخاصة بحِرفة أو صناعة [2] .

وجملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة المشاعر والعواطِف ، وبخاصة عاطفة الجمال كالتصوير والموسيقى والشعر ، ومهارة يحكمها الذوق والموهبة ، والجمع : فنون ، والفنان صاحب الموهبة الفنية .

فإذا ما أردنا أن نعرّف ما جاء في تعريفات الأدباء لهذه المادة ، نجده كله يدور حول الجمال ، والدقّة ، وحسن العرض والأداء .

يقول الدكتور محمود ذهني [3] : « فعملية الإبداع الفني تأتي في المرحلة الأولى ، ذلك أن الإنسان خُلق فناناً ، فمنذ وجوده الأول اتجه إلى مصادر الجمال يتّخذ منها عوناً على راحته ونشوته الوقتية ، فنشأت الفنون المختلفة في المجتمعات البدائية ، وقامت بدروها خير قيام ، إذ سرعان ما استطاعت أن تحول هذا الإنسان البدائي إلى إنسان راق متحضر » .

أما الدكتور ماهر كامل [4] فيقول : « ولعلّ مما يوضح الصلة التي تربط كلاً من الفنّ والجمال ، ذلك التمثيل الذي يذكره الأستاذ جود عند محاولته تفسير الصّلة بين الناحية الذاتية ، والناحية الموضوعية في الجمال ، لقد شبه ذلك الفيلسوف الفنّ « بالنافذة التي يمكن أن نطلّ منها على حقيقة الجمال » .

وهكذا نجد الفنّ يحمل أحد شقَّي التعريف الذي يحمله معنى الإبداع

---

(١) القاموس المحيط ـ الجزء الرابع : (فنن) .

(٢) المعجم الوسيط ـ الجزء الثاني : (فنن) .

(٣) تذوق الأدب ـ د. محمود ذهني : ٢٠٩ ـ طبعة مكتبة الأنجلو المصرية .

(٤) الجمال والفن ـ د. ماهر كامل : ١٩ ـ طبعة دار الطباعة الحديثة بمصر ١٩٥٧ م .

وهو الجمال والحسن والطهر والنقاء ، كما يقول الأستاذ جود : « هو النافذة التي يمكن أن نطلّ منها على حقيقة الجمال » .

ولعلّه من كلّ ما تقدم يمكن أن نقول : إننا قد وضعنا أصابعنا على شيء ملموس من ناحية الإبداع والفن ، فإذا أدركنا ما يدور حول هذا المعنى سهل علينا بعد ذلك أن ندرك المعنى الذي سوف نتحدّث عنه موضوعاً لرسالتنا ، وهو الجمال القصصيّ القرآني ، وبلوغه الغاية في التعبير وسموّ الألفاظ ودقّة التراكيب ، ومجيء هذا الأسلوب على غير ما مثال سابق ، إلا أننا يجب أن نضع في اعتبارنا أن التفسير السابق لمعنى الإبداع الفني ، وما يدور حول المادة إنما هو تفسير قصد به المقارنة بين أمرين حسّيين يقعان في عالم المّادة البشري .

أما موضوع بحثي ، وهو الذي يدور حول الإبداع الفني ،فما أقصد به المقارنة بين شيئين ،وإنما أرمي من وراء ذلك إلى أن القصص القرآني وصل إلى قمة الإبداع الذي لا إبداع بعده ، وقمة الحسن الذي يتضاءل أمامه كلّ شيء حادث في الحياة ، فهو لا يقارن بغيره ، ولا يوصف بشيء من باب المقارنة أمام أي انتاج بشري ، فهو إبداع السموّ ، وجمال علوي ، ومعجزة لا يقدر عليها بشر ـ فضلاً عن أن يحاكيه أيُّ فنّان عُرف في عالمه المادي بالمبدع والمتقن ، فشتّان بين كلام الخالق والمخلوق .

فالأول فيه الإبداع المطلق ، والفن القدسي ، والعظمة الإلهيّة .

والثاني مهما سما في عقول البشر فهو إبداع مفتعل ، وجمال نسبي يتلاشى أمام الجمال العلوي ، والتعبير القرآني الربّاني .

* * *

البَابُ الاول

مَقَاصِدُ القُرآنِ الكَرِيمِ

الفصل الأول :

العقيدة ،والتشريع ، وما يتعلق بهما .

الفصل الثاني :

التأسي والاعتبار .

الفصل الأول
العقيدة والتشريع ،وما يتعلق بهما

تناول القرآن الكريم موضوعات عديدة ، وطرق أكثر من جانب بدقّة عرض وإعجاز واضح ،فمن جوانبه جانب العقيدة والتشريع ،والوعد والوعيد ، ووصف أحوال المؤمنين والكافرين يوم القيامة ،وإلى هذه الجوانب أتحفنا القرآن الكريم بكثير من القصص القرآنية التي تحمل العظة والاعتبار ،فمن المعلوم أن الدين الإسلامي عقيدة وعمل :

عقيدة : تتضمن الإيمان بالله ،وكتبه ،ورسله ،واليوم الآخر .

وعمل : وهو تنفيذ شرع الله الحكيم .

ومن لاإيمان عنده ، ولا عقيدة ،تترجح بين جوانبه ،يضيع عمله هباءً منثوراً ﴿والذينَ كفروا أعمالُهم كسرابٍ بِقيعةٍ يحسَبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجدْه شيئاً ووجدَ الله عنده فوفّاه حسابَه والله سريعُ الحسابِ﴾ . [سورة النور : ٣٩]

فالعقيدة والعمل يلتزم بهما المؤمن حتى يجني الثمرة المرجوّة ،والجزاء الأوفى عند الحقّ عزّ وجل .

ومن ثمّ نرى كثيراً من آيات القرآن الكريم تدعونا إلى التمسك بالجانبين معاً جانب العقيدة ،وجانب العمل .

جانب العقيدة وهو المحورُ الأساسيُّ الذي تنبني عليه الشرائع الإسلامية ، وفي ذلك يقول الحق عز وجل : ﴿ آمنَ الرسولُ بما أُنزِل إليه من ربّه والمؤمنون ، كلٌّ آمنَ بالله وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ ﴾ . [سورة البقرة : ٢٨٥]

ويقول المولى عزّ وجل ﴿ شهِدَ الله أنّه لا إله إلاّ هو والملائكةُ وأولوا العلمِ قائماً بالقسطِ لا إله إلا هو العزيزُ الحكيمُ ﴾ . [سورة آل عمران : ١٨]

ويقول عز من قائل : ﴿ ذلكمُ الله ربُّكم لا إله إلا هوَ خالقُ كلِّ شيءٍ فاعبدوه ،وهو على كلّ شيءٍ وكيلٌ ﴾ . [سورة الأنعام : ١٠٢]

ولكي تثبت العقيدة في النفوس البشريّة ، دعاهم الله عز وجل إلى النظر والتفكير حتى عدّ ذلك من جوهر العبادة .(١)

قال تعالى ﴿قل انظُروا ماذا في السموات والأرضِ ﴾ . [سورة يونس : ١٠١]

وقال تعالى : ﴿ وفي أنفُسكم أفَلا تبصِرُون * وفي السَّماء رزقُكم وما تُوعدون ﴾ . [سورة الذاريات : ٢١ - ٢٢]

فالقرآن الكريم دعانا إلى أن نفكر بعقولنا حتى نستلهم عظمة الخالق فتشتعل جذوة العقيدة في القلوب .

ومن ثم نعى القرآن الكريم كلَّ من عطّل نعمة العقل حتى هبط بمستواه الفكريّ إلى الحضيض ، قال تعالى ﴿ولقد ذرأنا لجهنَّم كثيراً من الجنِّ والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ،ولهم أعينٌ لايبصرون بها ، ولهم آذانٌ لايسمعونَ بها ،أولئك كالأنعامِ بلْ هم أضلُّ ،أولئك هم الغافلون ﴾ . [سورة الأعراف : ١٧٩]

فالقرآن الكريم يدعو دائماً إلى النظر في المجالات الكونيّة ،والتفكير في مخلوقات الله ،حتى ينجلي الصدأعن النفوس ،فترسخ العقيدة الإلهية وتضيء الخواطر .

وفي جانب الحثّ على التمسك بالتشريع الإسلامي ، والأخذ بالمنهج الرباني يقول الله سبحانه : ﴿ فلا وربّكَ لايؤمنون حتى يحكموكَ فيما شجرَ

(١) راجع كتاب « اسلامنا » للسيد سابق : ١٧ طبعة بيروت .

بينهمُ﴾ . [سورة النساء : ٦٥] . ويقول تعالى : ﴿ وأنِ أحكمْ بينهم بما أنزل الله ولاتتَّبع أهواءَهم وأحذرْهُمْ أن يفتنوك عن بعضِ ما أَنزل الله إليك ، فإن تولَّوا فاعلم أنّما يريدُ الله أن يصيبهم ببعضِ ذنوبهم ،وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴾ . [سورة المائدة : ٤٩]

ويقول ﴿ من يطعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله ، ومن تولّى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ .] سورة النساء : ٨٠]

ويقول ﴿ ومن يطعِ الله والرسولَ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصّدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً ﴾ . [سورة النساء : ٦٩]

إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو المسلمين إلى التمسك بالعقيدة والسير بأسلوب الإسلام ، واتباع شريعة محمد بن عبد الله ،عليه أفضل الصلاة والسلام ، ﴿ ثم جعلناكَ على شريعةٍ من الأمرِ فاتَّبعها ولا تتّبع أهواءَالذين لايعلمون * إنّهم لن يُغْنُوا عنك من الله شيئاً وإن الظّالمين بعضُهم أولياءُ بعضٍ والله وليُّ المتّقين ﴾ . [سورة الجاثية : ١٨ ـ ١٩]

فالقرآن الكريم في كثير من آياته يسن لنا التشريعات الصالحة لكلّ زمان ومكان .

هذه التشريعات التي أشادت بها جميع الأمم والشعوب ،واعترفت بقيمتها وحيويتها وضرورتها ،حيث إنها قامت أساساً على رعاية مصالح جميع الأفراد ، فأساسها المصلحة العامة والعدالة المطلقة [1] .

أما عن الوعد والوعيد ،فكثيراً ما نرى الآيات القرآنية وهي تجعل جزاء وفاقاً لمن تمسّك بدينه ،وسار على نهج شريعة محمد بن عبد الله ﷺ :

﴿ ومن يعمل الصّالحات من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فأولئك يدخلون الجنة ولايُظلمون نقيراً ﴾ . [سورة النساء : ١٢٤]

(١) راجع كتاب « نظرات إسلامية » . د. محمد معروف الدواليبي : ٢٦ ـ ٢٧ طبعة بيروت .

﴿ وبشّرِ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ أنّ لهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ كلّما رُزقوا منها من ثمرةٍ رزقاً قالوا هذا الذي رُزقنا من قبلُ وأُتوا به متشابهاًولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيها خالدون ﴾ . [سورة البقرة : ٢٥]

﴿ فمن يعملْ مثقالَ ذرّة خيراً يره * ومن يعملْ مثقال ذرّة شرّاً يره ﴾ . [سورة الزلزلة : ٧ ـ ٨]

أما عن الوعيد الذي أعدّه الله لمن عصى وخالف وغلبه الشيطان واتبع هواه ، فكثيراً ما نرى الآيات القرآنية التي تنذر هؤلاء المعاندين بالنهاية الوخيمة : ﴿ يوم يأتِ لاتَكلّم نفسٌ بإذنه فمنهم شقيّ وسعيد * فأما الذين شَقُوا ففي النار لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ * خالدين فيها مادامت السمواتُ والأرض إلا ما شاء ربُّك إن ربّك فَعّالٌ لما يريد * وأما الذين سَعِدُوا ففي الجنّةِ خالدين فيها مادامت السمواتُ والأرضُ إلا ما شاء ربُّك عطاءً غير مَجْذوذٍ ﴾ . [سورة هود : ١٠٥ ـ ١٠٨]

﴿ إن الذين كفروا لن تُغنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم من الله شيئاً وأولئك هم وقودُ النار * كدأبِ آل فرعونَ والذينَ من قبلهم كذَّبوا بآياتنا فأخذهُم الله بذُنوبهم واللهشُديدُ العقابِ ﴾ . [سورة آل عمران : ١٠ ـ ١١]

وكثيراًما نرى القرآن الكريم يعرض علينا في آياته الحكيمة صوراًمن مشاهد يوم القيامة ،وهي تصور حال المؤمنين ،وحال الكافرين ،بل وحال المنافقين والعصاة .

ومن ذلك النوع الأول ،قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحابُ الجنة أصحاب النارِ أن قد وجدنا ما وعدَنا ربُّنا حقّاً ،فَهل وجدتم ماوعدَ ربُّكم حقّاً ؟ قالوا :نعم ،فأذّن مؤذّن بينهم أنْ لّعنةُ الله على الظالمين * الذين يصدُّون عن سبيل الله ويبغُونَها عِوَجاً وهم بالآخرة كافرون * وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون كلاّ بسيماهُم ونادَوا أصحاب الجَنَّة أنْ سلامٌ

عليكم لم يدخلُوها وهم يطعمون * وإذا صُرِفت أبصارُهم تِلقاء أصحاب النارِ قالوا ربَّنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين * ونادَى أصحابُ الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعُكم وما كنْتُم تستكبرون * أهولاء الذين أقسمتم لاينالُهم الله برحمةٍ ادخلوا الجنَّةَ لاخوفٌ عليكم ولا أنتم تحزنون * ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنَّةَ أنْ أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رزقكم الله * قالوا : إن الله حرَّمهُما على الكافرين الذين اتخذوا دينَهم لَهْواً ولعباً وغرّتهم الحياة الدنيا ،فاليوم ننساهم كما نسُوا لِقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ . [سورة الأعراف : ٤٤ ـ ٥١]

أما في المثال الثاني : ﴿ يَوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورُهم بين أيديهم وبأَيْمانِهم بُشْراكُمُ اليوم جنّاتٌ تجري من تحتِها الأنهارُ خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم * يوم يقولُ المنافقونَ للذين آمنوا انْظُرونَا نقتبسْ من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ،فضُرب بينهم بسورٍ له بابٌ باطنه فيه الرحمةُ ، وظاهرهُ من قِبَله العذابُ ، ينادُونهم : أَلَمْ نكُن معكم ؟ وغرّكم بالله الغَرور * فاليوم لا يؤخذ منكم فديةٌ ولا من الذين كفروا ،مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير ﴾ . [سورة الحديد : ١٢ ـ ١٥]

وهكذا نرى أن القرآن الكريم يصوّر كثيراً من مشاهد يوم القيامة التي تتجلى فيها صورة المؤمن ،والكافر ، والمنافق ، والعاصي .

فالمؤمن في متعته الخالدة الباقية ، والكافر في شقائه المستمر ، والعاصي بين هذا وذاك .

فالقرآن يبّشر المؤمنين بالجنة ،وينذِر الكافرين بيوم العقاب والحسرة ﴿ وأَنْذِرهم يومَ الحسرةِ إذ قُضِي الأمرُ وهم في غفلة وهم لايؤمنون ﴾ . [سورة مريم : ٣٩]

كما يعلّق بعض الباحثين [1] على هذه الآية : لقد أمر الله نبيه أن ينذر الكافرين بيوم الحسرة ، ويخوّفهم منه إذ قضي الأمر بفناء الدنيا ، وزوال التكليف ، وقد ظهرت لهم الحجج وهم في غفلة منها وهم لايؤمنون بالله واليوم الآخر .

وقد سئل رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿إذ قضي الأمر﴾ . فقال : حين يجاء بالموت على صورة كبش أملح ، فيذبح ، والفريقان ينظران ، فيزداد أهل الجنة فرحاً على فرح ، وأهل النار غمّا على غمّ ، وهم في غفلة ﴾ من ذلك اليوم ﴿ وهم لايؤمنون ﴾ بذلك اليوم .

* * *

---

(١) راجع كتاب « مع الإيمان في رحاب القرآن » د. محمد محمد خليفة : ٤٥٧ الطبعة الأولى ـ مطبعة النهضة المصرية .

الفصل الثاني
التأسي والاعتبار

ورحمة بعباد الله عز وجل كان القرآن الكريم ،لكي يحمل الناس على أن يتمسّكوا بدينهم ،ويستجيبوا لنداء ربهم ، ويصدقوا ما جاء به الوحي ،ضرب لهم الكثير من الأمثلة القصصية القرآنية ،حتى يعتبر المعتبرون ، ويتأسّى المتأسّون ، ففي ضرب الأمثلة بالأحداث الماضية ما يحمل الإنسان على التأمّل الثاقب ،والرجوع إلى الوراء ،ومن ثم يختار لنفسه الطريق الأمثل ،حتى لايقع فيه غيره ممن عطّلوا نعمة العقل ،وأغفلوا الطريق الموصل إلى الهداية والرشاد .

لقد كان القصّ القرآني مصباحاً مضيئاً ، كثيراًما يوجه البشريّة ، ويبدّد حَيرتهم ،ويهديهم إلى الطريق المستقيم ، وكما سنتحدث في الفصل الرابع من الباب الثالث ،من أن القصّ القرآني ،كان يهدف إلى معالجات إنسانية ،وغرس القيم الأصيلة في النفوس .

وأحب أن أشير إلى أن هذا القصّ القرآني قد تعددت جوانبه ،واختلفت أحداثه :

فهناك قصّ يحدّد علاقة الأنبياء والرسل بأممهم : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاًمن قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ .
[سورة غافر : ٧٨]

وهناك قصّ قرآني كان الغرض منه أساساً بيان حال أهل الصلاح وأهل الفساد .

وهناك قصّ قرآني سيطر عليه تصوير النوازع الإنسانية إلى غير ذلك

من ألوان القصّ القرآني الطريفة المثيرة .

أما عن النوع الأول ، وهو الكثرة الغالبة في القرآن الكريم ، فكثيراً ما رأينا القرآن الكريم يعرض علينا هذا اللون بأسلوب قصصي جذّاب ، كما سيتبين ذلك في الفصول التالية .

فأنبياء الله ورسله لانحصيهم عدّاً ، ولانعرف أسماءهم على الحقيقة ، اللهم إلا ما تحدث عنهم في القرآن الكريم مبيّناً موقفهم مع أممهم ، وما لاقَوة من عنَتٍ وجهد في سبيل نشر الدعوة الإلهية .

وقد نلمح في تلك القصص ما حبا الله به هؤلاء الأنبياء من نعم وفضل ، وما أسدى إليهم من نصر وتأييد ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

فالقرآن الكريم طالعنا بقصة نبي الله نوح ، وصالح ، وهود ، وشعيب ، ولوط ، وأبو الأنبياء إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، ويوسف ، وإخوته ، وموسى ، وعيسى ، وأيوب ، وداود ، وسليمان ، وكثيراً ما نرى السورة القرآنية وهي تذخر بأحداث هؤلاء الأنبياء مع أممهم من مثل سورة الأعراف وهود ، ففي سورة الأعراف بدأ الله سبحانه بذكر قصة نوح من الآية (٥٩) ، ثم هود من الآية (٦٥) ، ثم صالح من الآية (٧٣) ، ولوط من الآية (٨٠) ، وقصة شعيب من الآية (٨٥) ، وموسى مع فرعون من الآية (١٠٣) .

وفي سورة هود بدأ الله بقصة نوح من الآية (٢٥ ـ ٤٩) ، ثم ذكر هوداً (٥٠ ـ ٦٠) ، فصالحاً من الآية (٦١ ـ ٦٨) ، ثم ذكر إبراهيم ولوطاً من الآية (٦٩ ـ ٨٣) ، ثم شعيباً من الآية (٨٤ ـ ٩٥) ، ثم ذكر موسى من الآية (٩٦ ـ ٩٩) .

أما عن سورة القصص فلقد أطنبت في ذكر قصة موسى عليه السلام فتتبعت أحداثه من يوم مولده ، وفي نهاية السورة ذكرت قصة قارون الذي كان من قوم موسى .

أما عن سورة مريم فمع أنها استرسلت في الحديث عن قصة مريم من الآية (١٦ ـ ٣٥) ، فقد تعرضت لقصة إبراهيم من الآية (٤١ ـ ٥٠) ، ثم أشارت إشارات خاطفة إلى قصص موسى ، واسماعيل ، وإدريس .

أما عن سورة طه فلقد كان لها استقلال بقصة موسى من مطلع السورة حتى الآية (٩٨) ثم ذكر من الآية (١١٥) قصة آدم حتى الآية (١٢٣) .

وهكذا نرى أن القرآن الكريم أعطى اهتماماً بالغاً في سرد أحداث الأمم الغابرة مع الأنبياء والمرسلين .

أما عن النوع الثاني ، وهو ماكان الغرض منه ضرب أمثلة لبيان حال أهل الصلاح وأهل الفساد ، فمن ذلك قصة أهل الكهف التي تكشف عن هؤلاء الفتية الذين فروا من الظلم إلى البارىء عز وجل ، طالبين لهم الرحمة ، وأن يهيّىء لهم سبيل الرشاد والفلاح ، وكما يقول الله سبحانه في سورة الكهف من الآية (١٠) : ﴿إذْ أوى الفتيةُ إلى الكهف فقالوا : ربّنا آتنا من لدُنك رحمةً وهيىء لنا من أمرنا رشداً﴾ . [سورة الكهف : ١٠]

ومن الأمثلة التي تصور حال أهل الفساد ما ورد في تلك السورة من قول الله عز وجل : ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنّتَين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً * كلتا الجنتين آتت أكُلَها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً * وكان له ثمرٌ فقال لصاحبه وهو يحاوره : أنا أكثر منك مالاً وأعزّ نفراً * ودخل جنّته وهو ظالم لنفسه قال : ما أظن أن تبيد هذه أبدا * وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ولئن رُددت إلى ربي لأجدَنَّ خيراً منها منقلباً . . . وأحيط بثمرِه فأصبحَ يقلّب كفَّيه على ما أنفق فيها وهي خاويةٌ على عروشها ويقولُ : ياليتَني لم أشركْ بربّي أحداً ، ولم تكن له فئةٌ ينصرونه من دون الله وما كانَ منتصراً﴾ . [سورة الكهف : ٣٢ ـ ٤٣] .

وكذا في سورة القلم ، قال تعالى : ﴿ إنّا بلَوناهم كما بلَونا أصحاب الجنّةِ إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين * ولا يستثنون * فطاف عليها طائفٌ من

ربك وهم نائمون *فأصبحت كالصريم * . . . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون * قالوا : ياويلَنا إنّا كنا طاغين * عسى ربُّنا أن يُبْدِلَنا خيراً منها إنّا إلى ربّنا راغبون * كذلك العذاب ولَعَذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ . [سورة القلم : ١٧ - ٣٣]

وكذا قصة سبأ ، قال تعالى : ﴿ لقد كانَ لسبأٍ في مسكنهم آيةٌ جنّتان عن يمينٍ وشِمالٍ كلُوا من رزقِ ربكم واشكروا له بلدةٌ طيّبة وربٌّ غفور * فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيلَ العَرِمِ وبدَّلناهم بجنّتيهم جنّتين ذواتَي أُكُلٍ خَمْطٍ وأَثْلٍ وشيءٍ من سِدرٍ قليل ، ذلك جزَيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكَفور ﴾ . [سورة سبأ : ١٥ - ١٧]

فهذه القصص تصور لنا حالَ أهل الفساد .

أما عن النوع الثالث وهو ما كان الغرض منه تصوير النوازع الإنسانية فيتجلّى ذلك في قصة أبي البشرية آدم عليه السلام ، الذي يصوّر لنا ضعف البشر الذي هو عرضة للنسيان ، ومن الممكن أن يأتي بأمور لاتتفق مع إجلال الله سبحانه حيث إن آدم نسي وصية ربه حتى أكل من الشجرة التي نهي عن الأكل منها .

ومن ذلك قصة يوسف عليه السلام مع إخوته ، فهي تصوّر لنا الطبع البشري الذي قد توجد فيه لمسات الحقد ، وحبّ التشفّي ، والانتقام ، والمكر والخديعة ، كما تصوّر لنا نوازع المرأة الشيطانية التي كثيراً ما تنزلق في المهالك والشهوات ، وتستجيب لدواعي الهوى .

كما تعرب لنا قصة ابني آدم بالحق ، عما جبل عليه ابن آدم من حب البطش والانتقام ، وسفك الدماء ، حيث وقعت منه جريمة القتل ، وكما يقول الحق عز وجل : ﴿واتلُ عليهم نبأابنَي آدم بالحقّ إذ قَرَّبا قرباناً فتُقُبِّل من أحدهما ولم يُتَقبَّلْ من الآخر ، قال : لأقْتُلنَّك ، قال : إنما يتقبّل الله من المتّقين * لئن بسطتَ إلَيّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك ، إني

أخاف الله ربَّ العالمين * إنّي أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكونَ من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين * فطوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ﴾ . [سورة المائدة : ٢٧ ـ ٣٠]

وهكذا نلمح أن القصص القرآني قد تعددت جوانبه واختلفت مراميه .

وعلى هذا فهو كالعقد المنتظم ،يكمل بعضه بعضاً في تقويم الإنسان وتهذيبه ،وخير سبيل للتأسي والاعتبار .

وفي الحقيقة ،لن تتجلى هذه الحقائق كاملة بما حولها من أسرار معنوية ، وغايات نبيلة ،وأهداف فكرية ، إلّا بحديثي في الأبواب التالية إن شاء الله تعالى .

* * *

الباب الثاني

التَّكرارُ في القِصَّةِ القُرآنيَّةِ

الفصل الأول :

القصة القرآنية بين التكرار وعدمه .

الفصل الثاني :

جزئيات القصة القرآنية الواحدة بين التكرار وعدمه .

الفصل الثالث :

الإفادة في تكرار القصة القرآنية .

الفصل الأول
القصة القرآنية بين التكرار وعدمه

سبق أن قلنا في الفصل الثاني من الباب الأول إن القرآن الكريم لم يقصّ علينا أحداث جميع الأنبياء والرسل مع أممهم ،بل حكى لنا قصص البعض دون الآخر ،كما أفادت ذلك الآية الكريمة : ﴿ ورسُلاً قد قصصناهم عليك من قبلُ ،ورسلاً لم نقصصْهم عليك وكلّم الله موسى تكليماً ﴾ .] سورة النساء : ١٦٤]

وقوله : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصصْ عليك ، وما كان لرسولٍ أن يأتي بآية إلا بإذن الله ،فإذا جاء أمر الله قُضي بالحقّ وخسر هنالك المبطلون ﴾ . [سورة غافر : ٧٨]

هذا ويلاحظ بأن هناك قصصاً في القرآن قد تكرّرت ، وقصصاً لم تكرر ، ولعل سرّ عدم تكرار هذه القصص أنها سيقت لإخبار النبي ﷺ بأمر يجهله ،وعلْمُ النبيّ يَثْبُت من أول وهلة فلا داعي للتكرار .

وهذه القصص إما أنها سيقت لإعلام النبي ﷺ بما في الطبائع البشرية من حرص على الشرّ ،ومن هذا قصة يوسف عليه السلام مع إخوته ،وكيف رَموه في الجبّ ،ونجاته منه ، والتحاقه بالعزيز ، ومراودة امرأة العزيز له ، ثم خروجه عن طريق الميرة ،ثم بأهله أجمعين ،وفي هذا تتضح لنا النوازع التي تراود بعض النفوس ،وما يمكن أن يؤدي إليه الحسد من نتائج وخيمة ،ثم انتصار الخير على الشر ، وأن للباطل صولة ثم يضمحلّ ﴿ إنّه من يتّق ويصبر فإنّ الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[1] .[سورة يوسف : ٩٠]

(١) نكتة : يروى أن يوسف عليه السلام لما قال : ﴿ ربِّ السجنُ أحبُّ اليَّ ﴾ ابتلي به ،وإلا

ومن هذا الإخبار إخبار النبي ﷺ بأن تمكين الله للإنسان في الأرض يتطلّب الأخذ بالأسباب ، إضافة إلى ما آتى الله الإنسان القوة على عمل شيء فينبغي أن يستعين بالأسباب ، إضافة إلى ما آتاه الله من قوة ، فعمل الأسباب أمر مطلوب لعمار الأرض ، فذو القرنين رجل مكّن الله له في الأرض بالملك وآتاه من كل شيء سبباً ، أي أعطاه الأسباب التي تمكنه من أن يفعل ما يريد ، فماذا فعل ؟ لقد أضاف إليها أسباباً من عنده ، وهذا ينفي قضية التواكل والتكاسل عن العمل ، فإذا مكّنني الله بأن أعطاني أرضاً ، فيجب أن أضيف إليها بأن أزرع هذه الأرض لتنتج الثمار ، فإذا تركتها بوراً فأنا لاأعمل بشريعة الله في الأرض[1] .

وهكذا فإن ذا القرنين حينما آتاه الله الملك لم يكتف بالجلوس على أريكته ، بل أتبع سبباً بالذهاب إلى المشرق والمغرب لبسط حكم الله فيهما . ﴿ إنا مكَّنّا له في الأرض وآتيناه من كلّ شيء سبباً * فأتبع سبباً ﴾ . [سورة الكهف : ٨٤ ـ ٨٥] . وحينما طلب منه أهل المغرب أن يجعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج سدّاً ، أراد أن يعلمهم الاعتماد على النفس مع الاستعانة بالأسباب الأخرى ، وقبل هذا الاستعانة بالله سبحانه : ﴿ قال ما مكَّنّي فيه ربّي خير فأعينوني بقوّةٍ أجعلْ بينكم وبينهم ردماً ﴾ . [سورة الكف : ٩٥] ، وهكذا فالقصة كلّها عظات ودروس وأخبار يعلم الله بها نبيّه وعباده المؤمنين .

= لجعل الله له مخرجاً غيره .

وأما مسألة : ﴿ وهمّ بها ﴾ باعتباره بشراً فإن له شهوة وميلاً طبيعيّاً إلى النساء ، كان من شأنه أن يهمّ بها ﴿ لولا أن رأى برهانَ ربه ﴾ .

وانتفى همه بها لأنه رأى برهان ربه ، وهذه الآية فيها برهان على براءة يوسف ، كيف لا ، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم .

(١) معجزة القرآن الكريم ـ الشيخ محمد متولي الشعراوي : ٩٠ ـ الجزء الثاني .

وقد يكون الإخبار لإثبات قدرة الله عزّ وجل الذي يحيي الموتى ، والقادر على البعث والمعاد حتى تلوح عظمة الله في خلَد رسول الله ﷺ .

من ذلك قصة إبراهيم مع النمرود حينما ألقمه حجراً ، وأفحمه بالحجة ، ولكن النُّمرود أخذته العزة بالإثم ، فكابر وجادل بالباطل وقال : أنا أحيي من أشاء بالعفو عنه ، فينعم بالحياة بعد أن تمثل له شبح الموت ، وأنا كذلك أميت من أشاء بأمري وأقضي عليه بحكمي ، فسرعان ما تزهق روحه ، ويحرم حياته .

فأجابه إبراهيم إن الله سخّر الشمس وجعل لها نظاماً لا تحيد عنه ، فهو يأتي بها من المشرق ، فإن كنت كما تدعي قديراً ، وكما زعمت إلٰها ، فغير هذا النظام الذي جرت به سنة الله ، واقتضته إرادته ، وائت بها من المغرب . فبهت الذي كفر ، إذ بان ضلاله ، وظهر كذبه ، ووضح بهتانه [1] .

وهكذا اتضح من هذا بيان العظمة والقدرة الخارقة للمولى عز وجل في إحياء الموتى ، والتصرّف في ناموس الحياة ، وأنه الإله المستحقّ للعبادة ، القادر على كلّ شيء .

﴿ قال إبراهيمُ فإنّ الله يأتي بالشمس من المشرقِ فائت بها من

---

(١) قصص القرآن ـ لمحمد أحمد جاد المولى : ٤٣ ـ طبعة بيروت ١٣٩٨ هـ .

« إنما حاجّ إبراهيم النمرود وطالبه بتغيير مجرى الشمس بعد أن أحضر رجلين أحدهما يستحق القتل فعفا عنه ، فقال : أحييته ، والثاني لا يستحقّه فقتله ، فقال : أمتّه ، فذلك معنى الإحياء والإماتة ، في نظره ، من هنا لجأ الخليل إلى الآيات الكونية ، فهذه الشمس تبدو كلّ يوم من المشرق ، فإن كنت إلهاً فائت بها من المغرب ، وفي هذا قدرة خارقة على عظمة الخالق ، وتحكمه في الأشياء وتسخيرها ، فلما علم النمرود عجزه وانقطاعه بهت ، والله لا يهدي القوم الظالمين » .

راجع : ابن كثير ـ المجلد الأول : ٣١٣ .

المغرب ،فبهت الذي كفر والله لايهدي القوم الظالمين﴾ . [سورة البقرة : ٢٥٨]

إن النصّ القرآني السابق الذي يذكر صراحة ادعاء الملك للألوهية هو فتح علميّ للقرآن ،ففي متحف أشمول بإنجلترا أسماء الأسر التي حكمت بابل بعد الطوفان ،وقد جاء في الألواح التي حفظت وعثر عليها في الحفريات هناك أن هؤلاء الملوك قد هبطوا من السماء على الأرض لحكمها بعد أن طهرها الله ،وعاقبها من الفساد ،فهم أرباب سماويون يجب على الرعايا عبادتهم ، ومعلوم أن إبراهيم عاش في عصر أحد ملوك بابل .

إن هذا ولاريب ، فتح علمي للقرآن ،إذ لم يكن معروفاً في البيئة التي عاش فيها محمد ﷺ منذ أربعة عشر قرناً ،بأن إبراهيم عاش في بيئة يدّعي ملوكها الألوهيّة ، وهذا دليل واضح على أن القرآن وحي إلهي (١) .

والذي مرّ على قرية ،وهو نبيّ الله عُزيز ، كما يذكر ذلك المؤرخون« فقد مرّ على بيت المقدس من بعد أن هدمها بُختنُصَّر ،فإذا هي خربة زاوية ،رسوم دارسة ،وأطلال عافية ،وعظام نخرة ، وأجساد بالية ،فأخذه العجب من اندثار معالم القرية ! ! فنزل عن حماره ،وألقى بالسلتين إلى جواره ،وربط حماره ، وأسند ظهره إلى جدار حتى يجمع نفسه ،ويسترجع قوته وفكره ،ثم طاب له المكان واستراح إلى النسيم ،وأطلق العنان لعقله وفكره ، يفكر في هذه ،وكيف تنشر ؟ وتلك الأجساد وأنى تبعث ؟ بعد أن أصبحت أديماً للأرض ،وتراباً يجود عليها كلّ أسحم هطّال ، ثم استحال هذا التفكير إلى سهوم ووجوم ،ثم أغمضت عيناه ،وتخاذلت ركبتاه ، ودخل في نوم مشتمل ،وكأنه لحق بمن في القبور (٢) .

---

(١) اليهود في القرآن ـ لعفيف عبد الفتاح طبارة : ١١٦ ـ ١١٧ الطبعة الثانية .

(٢) راجع : قصص القرآن ـ لمحمد أحمد جاد المولى : ١٨١ .

ومرت مائة عام هرمت خلالها أطفال ، وفنيت أعمار ، وامحت شعوب وتقوضت صروح ، وعزير ملقىً مكانه جسد بلا روح ، وعظامه ممزقة الأوصال حتى أراد الله عز وجل أن يفصل في أمره ، فجمع عظامه ، وسوّى خلقه ، ونفخ فيه من روحه ، فإذا هو قائم مكتمل الخلق ، وراح يفتّش عن حماره ، وجاءه المَلَك يسأله : كم لبثت يا عزير ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال : ﴿ بل لبثت مائة عام ﴾ .

وفي هذا أعظم دليل على البعث والنشور والحياة من القبور ، ودليل خارق على قدرة الله عز وجل : ﴿ فلما تبيّن له قال : أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير ﴾ [1] . [سورة البقرة : ٢٥٩] .

والأخبار عن نهاية الظالم كما في يأجوج ومأجوج ، حينما عاثوا في الأرض الفساد ، وأخافوا العباد ، وقد كانوا قوماً حمراً قصاراً ، مساكنهم الأغوار أكثر معايشهم من السمك ، لأحدهما أذنان يفرش إحداهما ، ويلبس الأخرى [2] .

وقد عاث هؤلاء الفساد ، وأثخنوا في الأرض ، وقد أراد الله سبحانه أن يضع حداً لفسادهم ، وأن ينصر من حولهم من المستضعفين ، فسخّر لهم ذا القرنين الذي علمهم كيفية مجابهة الباطل بالتعاون على سحقه وأن المشاركة مطلوبة حتى تستمر المنفعة ، ويتم العمل نفسه ، فإذا اشتركوا تعلموا ، وإذا تعلّموا تقدموا ، واستطاعوا أن يحموا أنفسهم ، وأن يضيفوا إلى ذاتيتهم أشياء لم تكن موجودة ، ونتيجة عملهم واجتهادهم استطاعوا إقامة السدّ بينهم وبين هؤلاء الجبارين ، وبذلك دفعوا الظلم عن أنفسهم وتعلّموا شيئاً جديداً يحميهم [3] .

---

(١) عمرت بيت المقدس بعد موته بسبعين عاما .

(٢) راجع : ابن كثير ـ المجلد الثالث : ١٠٣ .

(٣) معجزة القرآن للشيخ محمد متولي الشعراوي : ٩٨ .

=

وهكذا كان في قصة هؤلاء دروساً تستفاد ، أن الظالم مهما استبدّ في ظلمه ، فإن الله سبحانه سيكسر من شوكته ويهدّه ،وأن الظلم له عاقبة وخيمة ،وأن المظلوم منصور بنصر الله له ،والذي يهيّىء له أسباب النجاة ،وأن التعاون من أهم أسباب التغلّب على الصعاب ،ثم اتساع ملكوت الله سبحانه .

وقصة موسى مع الرجل الصالح وفيها دليل باهر على مدى القدرة الخارقة التي تنمّ عن علم غزير يتمتع به هذا الرجل ،وأن العلم بحر لايدرك مداه ،وأن الإنسان مهما أوتي من العلم فإنه يتقاصر أمام الله الذي وسع الأشياء ، وأن فوق كلِّ ذي علم عليم .

فموسى حينما سئل : أيُّ الناس أعلم ؟ قال : أنا ، فعتب الله عليه [1] إذ لم يَرُدَّ العلم إليه ،فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منكَ ،قال موسى : يا ربّ كيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً فتجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثمّ [2] .

﴿ فلما جاوزا قال لفتاة آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً * قال : أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنّي نسيتُ الحوتَ . . . قال ذلك ما كنا نبغ فارتدّا على آثارهما قصصاً ﴾[3] . [سورة الكهف : ٦٢ ـ ٦٤]. وهكذا

= يقول ابن الأثير : الصحيح أنهم نوع من الترك ، لهم شوكة ،وفيهم شرّ ، وهم كثيرون ، وكانوا يفسدون فيما يجاوزهم من الأرض ويخربون ما قدروا عليه من البلاد ،ويؤذون من يقرب منهم .

راجع : الكامل لابن الأثير ـ المجلد الأول : ١٦١ ـ مطبعة دار الكتاب العربي .

(١) فتح القدير للشوكاني ـ الجزء الثالث : ٢٩٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ـ المجلد الثالث : ٩٢ .

(٣) « اسم الرجل الصالح : الخضر ، كما دلّت عليه الآثار ،وموسى هو ابن عمران عليه السلام ،وفتاه يوشع بن نون عليه السلام » .

راجع : ابن كثير ـ المجلد الثالث : ٩٢ ، والكامل : ٩٠ .

قال رسول الله ﷺ : « وددنا أنّ موسى كان صبر حتى يقصّ الله علينا من خبرهما » .

يتضح لنا بهذا الإخبار مدى اتساع علم الله الذي وسع الأشياء ،والنهي عن الاغترار دون ردّ أول الأشياء إلى بارئها ،وأن موسى حينما استقل في الحكم أخطأ ،فالنفس البشرية مهما أوتيت من الكمال ، فالنقص لازم لها ، وهذا لاينافي مقام النبوة فالاجتهاد قابل للخطأ والصواب .

أما القصص التي تكررت في القرآن حيث إنها جاءت في أكثر من موضع فهي قصص بعض الأنبياء والمرسلين ،وموقفهم من أقوامهم حينما قاموا بنشر الدعوة وتبليغ رسالة السماء ،ولعل العلّة الظاهرة في هذا التكرار هو تثبيت رسول الله ﷺ في دعوته ،وحمله على أن يصبر على إيذاء قومه ،وكما يقول الحق عز وجل : ﴿ فاصبرْ كما صبر أولوا العزمِ من الرسل ولا تستعجلْ لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعةً من نهار بلاغٌ فهل يُهلَكُ إلا القومُ الفاسقون ﴾ . [سورة الأحقاف : ٣٥]

لقد صادف الرسول ﷺ ألواناً من الأذى ، وكاد له أعداؤه أعداء الدين ،وتربّصوا به الدوائر ،فتارةً يتّهمونه بأنه ليس رسولاً ،وتارة يتّهمونه بأنه شاعر ،وتارة بأنه كاهن (١) ،وتارة يسبّونه سبّاً عنيفاً ، وتارة يقذفونه بالحجارة ويرمونه بالأوساخ والقاذورات ،وتارة يصدّون عن دينه ، وتارةً يسخرون منه ، ومن دينه ، وقد كان كلّ همّهم القضاء عليه وعلى أصحابه ،فكان ذلك رداًتاريخياً على بعض دعاة القومية الذين زعموا أن محمداً ﷺ إنما كان يحمل في رسالته آمال العرب ومطامحهم حينذاك ،وهو زعم تردّه وقائع التاريخ .

---

(١) يقول الشيخ محمد متولي الشعراوي : « قالوا عن النبي ﷺ : إنه ساحر ، فإذا كان ساحراً فلماذا لم يسحركم أنتم حتى تتبعوه ؟ ،إن المسحور لايخضع للساحر بإرادته ، ولا يأتي ليقول له : سأصدق هذا السحر . . . وأكذب هذا السحر ،فكونكم تقولون : إنه ساحر ، وأنتم تؤمنون به دليل على أنكم كاذبون » .
راجع : معجزة القرآن : ١٢ الطبعة الأولى .

ولعل من أبرز ألوان الأذى التي تعرض لها رسول الله ﷺ ،هو ما صادفه من زعماء المشركين في مكة ،يروى أن أبا جهل حمل حجراً يريد أن يشج به رأسه الشريفة ، فلما دنا منه وهو ساجد ،رجع منهزماً منتقعاً لونه مرعوباً ،قد يبست يداه على حجره ،فقامت إليه رجالات قريش وسألوه : ما بك يا أبا الحكم ؟ فقال : لاوالله ،ما دنوت منه حتى رأيت فحلاً (١) ، مارأيت مثل هامته ،ولا مثل قصرته (٢) ، ولا أنيابه ،فحل قط ،وحينما خرج ﷺ إلى الطائف قابله أهلها بالأذى ،وردوا دعوته وأغْرَوا به سفهاءهم (٣)وصبيانهم حتى سال الدم من قدمه الشريفة ، وهو في كل هذا يقول : « اللهمّ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي » .

ويوم الهجرة ليس بخاف علينا اجتماعهم في دار الندوة ،والذي صورته الآية الكريمة ﴿وإذْ يمكُر بك الذين كفروا ليُثْبِتُوك أو يقتُلوك أو يُخرِجوك ويمكرون ويمكر الله ،والله خير الماكرين﴾ . [سورة الأنفال : ٣٠] .

وإذ قد وصل بهم الحال إلى ما وصل إليه ،فما أحوج النبي ﷺ في كل موقف من تلك المواقف إلى تسليته ،وتقوية عزمه ،وتذكيره بالصبر على أذى قومه .

فإن موسى صنع به قومه ما صنعوا ،وفرعون طغى وبغى عليه ، ومع ذلك صبر حتى ظفر ،ونوح عليه السلام صادف من قومه ما صادف حتى قال : ﴿ ربِّ إني دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً * فلم يَزِدهم دعائي إلا فراراً * وإني كلّما دعوتُهم لتغفرَ لهم جعلوا أصابعَهم في آذانهم واستغشَوْا ثيابَهم وأصرُّوا واستكبروا استكباراً * ثمّ إني دعوتُهم جهاراً * ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً ﴾ . [سورة

---

(١) سيرة ابن هشام ـ الجزء الأول : ٣١٨ ـ مطبعة دار الفكر .

(٢) القصرة : أصل العنق .

(٣) السيرة النبوية ـ للدكتور مصطفى السباعي : ٦٧ ـ الطبعة الأولى .

نوح : ٥ ـ ١٠] .

وحتى قالوا له : ﴿ يا نُوح قد جادَلْتَنا فأكثرتَ جدالنا فَأْتنا بما تعِدُنا إن كنتَ من الصادقينَ ﴾ . [سورة هود : ٣٢]

وهود عانى ما عاناه من قومه حتى رَموه بالسفه والجنون ، ومع ذلك لم يقنط في دعوته ، حتى قالوا له : ﴿ يا هودُ ما جئتنا ببيِّنة وما نحن بتاركي آلهتِنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين * إنْ نقولُ إلّا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ . [سورة هود : ٥٣ ـ ٥٤] .

وثمود كفرت بصالح بعد أن جاءهم بالآية الدالة على صدقه ، وهي الناقة فعقروها وكذّبوا نبي الله واستهزأوا به وبمن معه ، فجاءهم بالعذاب ذلك أن الله ينصر رسله ، ويحيق مكره بالقوم الظالمين ﴿ فعقرُوها فقالَ : تمّتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعدٌ غيرُ مكذوب ﴾ . [سورة هود : ٦٥]

ومثل ذلك لوط ، واستمرؤوا ما هم فيه من ضلال وفساد ، أنهم كانوا قوم سوء فاسقين ، فأخذهم الله بعذاب بئيس ﴿ فلمّا جاء أمرُنا جعلنا عاليَها سافلَها ، وأمطرنا عليها حجارة من سِجّيل منضود * مُسَوَّمة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ . [سورة هود : ٨٢ ـ ٨٣]

من هنا كان الموقف باستمرار فيه تذكير من الله عز وجل لنبيّه بصنيع المعاندين مع الرسل ، حتى تهدأ نفسه ، ويطمئن فؤاده ، ويقوى على هذا العناد والشر الشديد .

ولذا فإن المولى ، عز وجل ، لايأتي بكوكبة من الأنبياء في سورة إلا أشار إلى أن المغزى من هذا هو التثبيت والمواساة حتى قال تعالى في سورة هود : ﴿ وكُلّا نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبِّت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾ . [سورة هود : ١٢٠]

ولما كانت المكابرة من قومه ، والعناد من المشركين ، مستمراً طوال حياة رسول الله ﷺ ، حيث أن استكبارهم لم ينقطع ، وعنادهم لم يسكن ، كان

من لطف الله عز وجل ، أن ينزل الوحي من السماء على رسول الله ﷺ بتكرار أحداث الأنبياء مع قومهم ، وبذلك يدوم الرسول على دعوته ، ويصبر على ما يصادفه ﴿ فاصبر لحكمِ ربّك ولا تُطِع منهم آثماً أو كفوراً * واذكر اسم ربك بكرةً وأصيلاً * ومن الليل فاسجُدْ له وسبِّحه ليلاً طويلاً ﴾ . [سورة الإنسان : ٢٤ ـ ٢٦]

فرق كبير بين قصة تحكى ليعلم الرسول امراً كان يجهله ، ويدرك نبأ لم يخطر على باله ، حتى تتسع مداركه ، وتنمو معارفه ، ومن ثمّ يكون كاشفاً لكثير من الطبائع البشرية ، والغرائز الإنسانية ، والرغبات المكبوتة في بني آدم .

كما أنه يدرك مدى العظمة الخارقة ، والقدرة العلوية عندما يسمع قصصاً تمثل هذا السلطان الإلهي .

فرق كبير بين هذا الأمر الذي ما أحوج الرسول إلى معرفته ، وهو قائد الأمة ، وموجه البشرية ، ومنير السبيل لهداية الناس ، فما أحوجه إلى هذه المعاني التي تكشف له عن الحقائق الكونية ، والنفوس البشرية .

فرق كبير بين هذا الأمر الذي تكفي فيه اللمحة الخاطفة ، والقصة الواحدة ، حتى تستنير جوانبه فتتكامل معارفه .

فرق بين هذا ، وبين القصة التي تحكى ، لأن المقام يقتضي تكرارها ، والأحداث التي تحيط بالرسول تتناسب مع إعادتها ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام في كلّ لحظة يحتاج إلى رعاية إلهية حيث إن قومه لم يسكتوا عنه برهة ، فالصراع دائم ، والحقد متحرك ، والخواطر تنبىء عن شرٍّ متدفّق ، ونوايا خبيثة ، فكان تكرار القصص القرآنية مواساة لرسول الله ﷺ وتعزية له في كل موقف من المواقف ، وهذا عامل مهم يقوي نجاح الدعوة الإسلامية ، حتى تنهض خفّاقة ، وهي تحقق مأربها السامي ، وغاياتها الطيبة .

ومن الممكن أن يكون هذا التكرار مبعثه التذكر والوصول إلى العظة البالغة كما يفهم من قول الحق : ﴿ ولَقد وصَّلْنا لهم القول لعلّهم يتذكرون ﴾ [سورة القصص : ٥١] .﴿وصرّفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون أو يُحْدِثَ لهم ذكراً ﴾ [سورة طه : ١١٣] .

هذا وقد كانت العرب تحب التكرار في الكلام ، يقول الباقلاني : ومن البديع عندهم التكرار ، كقول الشاعر :

هـلا سـألـت جمـوع كـنـ ـدة يـوم ولّوا أين أينا[1] ؟

وهذا التكرار في القصة القرآنية ليس تكراراً مطلقاً ، وإنما هو تكرار نسبي ، بمعنى أن الغرض الديني هو الذي يملي إعادة القصة ، ولكنّها في هذه الإعادة تلبس أسلوباً جديداً ، وتخرج إخراجاً جديداً ، يناسب السياق الذي وردت فيه ، وتهدف إلى هدف خاصّ لم يذكر في مكان آخر ، حتى لكأننا أمام قصة جديدة لم نسمع بها من قبل[2] .

كما سنشير إلى ذلك تفصيلياً في الفصل الثالث من هذا الباب ـ إن شاء الله تعالى ـ كما ينبغي أن ننبّه إلى أن التكرار في القرآن ليس قاصراً على القصة ، بل نجد القرآن الكريم يميل إلى التكرار في أسلوبه ، كما في قوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً ﴾ [سورة الانشراح : ٥ ـ ٦]

وكالتكرار في قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ [سورة الكافرون : ١] .

ثم إنك تجد في هذه التكرار ما فيه من تساوق النغم ، وتجاوب الكلمات ، وتآخي الحروف ، فلا خلخلة ، ولا اضطراب ، ولا ثقل . . .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ١٠٦ ـ الطبعة الثالثة .

(٢) التعبير الفني في القرآن ـ د . بكري شيخ أمين : ٢٢٠ ـ الطبعة الثالثة .

ولكن تعاضد وتساند واتساق وتعانق بين الحروف ، والكلمات والكلمات [1] .

* * *

---

(١) من قضايا القرآن الكريم ـ لعبد الكريم الخطيب : ١١٣ .

الفصل الثاني
جزئيّات القصة القرآنية الواحدة بين التكرار وعدمه

قصص القرآن الكريم تحتوي على أكثر من فكرة ، فهي تضمّ عناصر متعددة لموضوعات كثيرة ،ولكننا نلاحظ أن بعض عناصر القصة يدور مع القصة في تكرارها ،فكلما تكرّرت كلما ضمت جزئية من جزئياتها ،وهناك بعض القصص القرآنية التي لاتتكرر عناصرها ،فقد لا تذكر فكرة من أفكار القصة الواحدة إلا مرة واحدة ، حتى لو تكررت القصة وذكرت في أكثر من سورة في القرآن .

ومن أمثلة الفكرة التي ما ذكرت إلا مرة واحدة ،حدث موقف نوح مع ابنه وقت الطوفان ،وطلبه من ربه النجاة لابنه ، قال تعالى : ﴿ وهي تجري بهم في موجٍ كالجبال ، ونادى نوحُ ابنَه وكان في معزلٍ : يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء . قال : لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحمَ ، وحالَ بينهُما الموجُ فكانَ من المغرقين ﴾ [1] . [سورة هود : ٤٢ ـ ٤٣] .

فحدث نوح مع ابنه موقف فردي سيق لإعلام النبي ﷺ بما حدث من حوار لنوح مع ابنه وهو في معزل ،ولم يكن للنبي ﷺ من الظروف والملابسات ما كان لنوح ،فلم يكن له ابن قد بلغ هذا السن لأن أبناءه الذكور ماتوا أطفالاً ،وليس هناك طوفان سيعيشه .

---

(١) لم يرد موقف نوح مع ابنه إلا في سورة هود مع ورود القصة في سورة الأعراف ،يونس ،الأنبياء ،المؤمنون ،الشعراء ،العنكبوت ،الذاريات ، النجم ،القمر ، نوح .

من هنا كان سياق هذه الحادثة لمجرد الإخبار فلا داعي لتكرارها .

ومحاورة إبراهيم لأبيه وردت مرة واحدة بتفصيل في سورة مريم ، وإن وردت في غيرها فهي من باب الإشارة العابرة ، قال تعالى : ﴿ واذكرْ في الكتابِ إبراهيمَ إنه كان صدّيقاً نبياً * إذ قال لأبيه ياأبتِ لِمَ تعبدُ مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ؟ . . . * قال : أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيمُ ؟ لئن لم تنته لأرجمَنَّك واهجرني مليّاً * قال : سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيّاً ﴾ . [سورة مريم : ٤١ ـ ٤٧]

ولعل العلة التي من أجلها لم تكّرر هذه الجزئية ، أنه ليس للرسول ﷺ أب سيحاوره .

ومن ثمّ فالموضوع للإخبار ، وهذا تكفي فيه المرة الواحدة .

والرؤيا المنامية التي كانت من الخليل عليه السلام عن ابنه إسماعيل وردت مرة واحدة في سورة الصافات ، قال تعالى :﴿قالَ يا بنيَّ إني أرى في المنامِ أني أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال : ياأبت افعل ما تؤمر ستجدُني إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلما وتلّه للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ . [سورة الصافات : ١٠٢ ـ ١٠٥] ،فلما بلغ معه السعي رأى إبراهيم الرؤيا ثلاث ليال (١) متتابعات ،فقيل له : أوف بنذرك ،فلما أخبر ابنه بالرؤيا ،قال : يا أبت افعل ما تؤمر ،واشحذ شفرتك حتى تريحني . فإذا أضجعتني فكبّني لوجهي حتى لا تدركك رحمة فتحول بينك وبين أمر الله ،ثم أدخل إبراهيم الشفرة فقلبها الله لقفاها ، ونودي : ﴿ قد صدقت الرؤيا ﴾ ، ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ (٢) .

---

(١) فتح القدير للإمام الشوكاني : ٤٠٣ ـ ٤٠٥ ـ ٤٠٧ المجلد الرابع .

(٢) وجه البلاء :

١ ـ أنه ابنه البكر . =

وهكذا، فهذه أحداث خاصة وشخصية، من هنا فهي لمجرد الإخبار، ولذا لم تتكرر في القرآن.

وقصة نبي الله صالح عليه السلام، والرهط الذين أجمعوا أمرهم على تبْييته في عقر داره ليلاً، لم ترد إلا في موضع واحد في سورة النمل، قال تعالى: ﴿ وكان في المدينة تسعةُ رَهطٍ يُفسدون في الأرض ولا يُصلحون * قالوا: تقاسموا بالله لنبيِّتَنَّهُ وأهله ثم لنقولَنَّ لوليِّه ما شهِدنا مَهْلِك أهله وإنّا لصادقون * ومكَروا مكراً، ومكرنا مكراً وهم لايشعرون * فانظر كيف كان عاقبةُ مكرهم أنّا دمَّرناهم وقومَهم أجمعين ﴾. [سورة النمل: ٤٨ - ٥١].

يروى أنه كان لصالح مسجد في الحجر في شعب يصلّي فيه، فقالوا: زعم صالح أنه يفرُغ منا إلى ثلاث، فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث، فخرجوا إلى الشعب وقالوا: إذا جاء يصلّي قتلناه، ثم رجعنا إلى أهله فقتلناهم، فبعث الله صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب، فلم يدر قومهم أين هم، ولم يدروا ما فعل بقومهم، وعذب الله كلّاً منهم في مكانه، ونجّى صالحاً ومن معه[1].

= ٢ - وحيده في ذلك الوقت.

٣ - رزقه على كبر.

٤ - كونه القائم بعملية الذبح، فالعملية شاقة، والبلاء مبين.

وقد فدي اسماعيل عليه السلام بذبح عظيم، كبشٍ رعى في الجنة أربعين خريفاً، كما فدي عبد الله أبو النبي ﷺ بمائة من الإبل، من هنا قال النبي ﷺ: «أنا ابن الذبيحين».

قال قتادة: «رؤيا الأنبياء حقٌّ إذا رأوا شيئاً فعلوه».

راجع: فتح القدير: ٤٠٥ - ٤٠٧ المجلد الرابع.

(١) الكشاف للزمخشري: ١٥٣ - المجلد الثالث.

وانظر كيف أن الكذب رذيلة ومكروه بالفطرة، فهؤلاء الكفرة لم يرضوا لأنفسهم بالكذب حتى تمحلوا لأنفسهم مسّوغاً في قتل صالح عليه السلام، وهو الجمع بين قتله =

وهكذا لم يتكرر هذا الموضوع في القرآن ،لأن نبيّنا عليه الصلاة والسلام لم تكن له ملابسات ما كان مع صالح ، فإن صالحاً عليه السلام تشاءم منه قومه الكفرة ، وتطيروا برسالته ، لأنها كانت سبباً في قتلهم لأبنائهم ، وعقرهم الناقة ، وتوعّدهم بالعذاب وهو واقع بهم ،وهذا لم يحدث للنبي ﷺ ، فلم يكن القصد من وراء هذه القصة سوى الإعلام .

وموقف موسى من بنتي شعيب وزواجه من أحدهما لم يرد إلا في سورة القصص ،قال تعالى : ﴿ قال : إني أريد أن أُنكِحك إحدى ابنتيَّ هاتين على أن تأجُرني ثمانيَ حِججٍ فإن أتممت عشراً فمن عندك ،وما أريد أن أشقَّ عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين * قال : ذلك بيني وبينَك أيّما الأجَلينِ قضيتُ فلا عُدْوانَ عليَّ ،والله على ما نقول وكيل ﴾ . [سورة القصص : ٢٧ ـ ٢٨] .

وانظر إلى تمام الحكمة والحنكة التي تحلّى بها شيخ مدين ،فقد أراد أن

= وقتل أهله ، فإذا سئلوا عن أحدهما فأجابوا بالنفي كانوا صادقين في زعمهم ، وفي هذا دليل قاطع على أن الكذب قبيح عند الكفرة .

الكشاف : ١٥٢ الجزء الثالث .

وقيل : جاءوا بالليل شاهري سيوفهم ،وقد أرسل الله الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة ، يرون الحجارة ولا يرون رامياً .

الكشاف : ١٥٣ ـ الجزء الثالث .

وقيل : إنهم كانوا قوماً قتلوا أبناءهم خشية أن يكون عاقر الناقة منهم ،ثم ندموا فأقسموا ليقتلُن صالحاً وهو ذاهب إلى مسجده ، فكمنوا له في غار على طريقه ،فلما دخلوا الغار سقطت عليهم صخرة فقتلتهم ،فانطلق رجال ممن عرف الحال إلى الغار فرأوهم هلكى ،فعادوا يصيحون إن صالحاً أمرهم بقتل أولادهم ثم قتلهم .

الكامل لابن الأثير : ٥١ ـ الجزء الأول .

ومعنى كلمة بيّت ،والبيات : مباغتة العدو ليلاً (وبيّت الأمر : دبّره ليلاً) القاموس المحيط .

يجّرب هذا الشاب [1] قبل أن يعقد له بابنته ، حتى إذا اطمأن إليه زوّجه ، وحكمة سيدنا موسى عليه السلام ، فقد أراد أن يحتفظ بحق الخيار لنفسه ، لأنه ربما سئم من طول المدة . ﴿ قال : أيّما الأجلين قضيتُ فلا عدوانَ عليّ ﴾ . ثم ما تحلى به كلا الشخصين ، الأول : في عرض ابنته ،وهو منتهى الود والحبّ ، والرغبة في حفظ العرض ، والثاني : في تلبية الدعوة ، وفي هذا منتهى حسن الخلق والأدب ،فما جزاء من رغب فيك إلا أن تحرص عليه ،وقد دفع الشيخ إلى ذلك ما تحلّى به موسى من دين وخلُق وأمانة وقوة ﴿ يا أبتِ استأجِرْهُ إنّ خير من استأجرتَ القويُّ الأمينُ ﴾ .

ومثل هذه الحادثة ذاتية فرديّة خاصة ، قصد بها الإخبار ،ومن هنا لم تتكرر ولم ترد إلا في سورة القصص .

ونبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب ، قال تعالى : ﴿ وهل أتاك نبأُ الخصم إذ تسوَّرُوا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزِعَ منهم ، قالوا : لاتخف خصمان بغى بعضُنا على بعضٍ فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشْطِطْ ، واهدنا إلى سواء الصراط * إنّ هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجةً وليَ نعجةٌ واحدة ، فقال : أَكفِلْنِيها وعزّني في الخطاب * قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتِك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضُهم عل بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظنّ داود أنّما فتنّاه فاستغفر ربه وخرَّ

---

(١) قصص النبيين لأبي الحسن الندوي : ١٨٢ ـ ١٨٣ القسم الأول .
يرى الحسن البصري أن الشيخ هو شعيب النبي عليه السلام ،ويرى آخرون أنه شعيب آخر .

راجع :قصص القرآن ـ لجاد المولى : ١١٥ .

ويروى أن شعيباً سأل ابنته :يا بنيّة كيف عرفت (قوّته) ؟ قالت :رفع الحجر عن البئر ،ولا يرفعه إلا عشرة رجال ، (وأمانته)؟ قالت :قال لي : امشي خلفي وانعتي لي الطريق ، فإني أكره أن تصيب الريح ثوبك فتصف لي جسدك .

راكعاً وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزُلْفَى وحسنَ مآبٍ ﴾ (١)
[سورة ص : ٢١ ـ ٢٥] .

فهذه الجزئية لم ترد إلا في موضع في القرآن ،والسرّ في ذلك أن نبيّ الله داوْد ،عليه السلام ، كانت له ظروفه الخاصّة من تسوُّر الملائكة عليه المحراب في صورة خصم ،وقصة النعاج ،وقضائه بينهم ،وهذه الملابسات لم تكن لنبينا محمد ﷺ ، فكان يكتفى بورودها مرّة واحدة للإعلام .

وسليمان مع الهدهد : ﴿ وتفقَّد الطيرَ فقال : ماليَ لا أرى الهُدهد أم كان من الغائبين * لأعذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً أو لأذبحنَّهُ أو ليأتِيَنِّي بسلطان مبين ﴾ [سورة النمل : ٢٠ ـ ٢١] .

ومع ملكة سبأ بلقيس : ﴿ قالَتْ يا أيُّها الملأ إني أُلقيَ إليّ كتابٌ كريمٌ * إنه من سليمانَ وإنه بسم الله الرحمن الرحيم *ألّا تعلُوا عليَّ وَأْتوني مسلمين ﴾ [سورة النمل : ٢٩ ـ ٣١] .

---

(١) وهذا يوحي بالقصة التي تقول :« إن داود عليه السلام خطب المرأة التي خطبها أوريا ، فزّوجت منه لجلالته ،فاغتم لذلك أوريا » .

فتح القدير ـ الجزء الرابع : ٤٢٧ .

والمرأة هي (سابغ بنت شائع) والرجل هو (أوريا بن حنان) .

راجع :قصص القرآن لجاد المولى : ١٦٢ .

تسوّروا : نزلوا عليه من فوق المحراب .

لاتشطط : لاتَمِل .

الخلطاء : الشركاء .

مآب : مرجع في الآخرة .

والسجدة : هل السجدة في هذه الحادثة سجدة لازمة ؟ الواقع أنها ليست من عزائم السجود .

والنبي ﷺ سجدها وقال : « سجدها داود ونسجدها شكراً » .

فتح القدير ـ الجزء الرابع : ٤٢٧ .

وحديث العصا : ﴿ فلمّا قضَينا عليه الموتَ ما دلَّهم على موته إلا دابَّةُ الأرض تأكُل مِنْسَأَته ، فلما خرّ تبيّنت الجنُّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المُهِين ﴾ [سورة سبأ : ١٤] .

كلّ جزئية من جزئيات هذه القصص لم ترد مكرَّرة في القرآن ، ذاك أن النبيّ ﷺ لم تكن له ملابسات نبي الله سليمان عليه السلام .

فالنبي ﷺ عبد رسول ، وسليمان عبد وملك رسول . ﴿ قال : ربّ اغفر لي وَهبْ لي ملكاً لاينبغي لأحد من بعدي ، إنك أنت الوهّاب ﴾ [سورة ص : ٣٥] .

ومن ثم سخر الله له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ومن جملة الأشياء التي سخرت له الطير ومنهم الهدهد . وأما قصة سليمان مع بلقيس فهي حدث خاص ، وأمر ذاتي ، من هنا لم يكن هناك داع لتكرار مثل هذه الأحداث التي يتعينّ العلم بها من أول وهلة .

وأما حديث العصا ؛ فقد كان سليمان يتجرّد للعبادة في بيت المقدس السنة والسنتين ، والشهر والشهرين ، وأقل وأكثر ، يدخل طعامه وشرابه ، فأدخله في المرة التي توفي فيها ، فبينما هو قائم يصلّي متوكّئاً على عصاه أدركه أجله فمات ، ولاتعلم به الشياطين ولا الجن وهم في ذلك يعملون خوفاً منه ، فأكلت الأرضة عصاه فانكسرت ، فسقط فعلموا أنه مات ، وعلم الناس أنّ الجن لايعلمون الغيب ، ولو علموا الغيب مالبثوا في العذاب المهين [1] .

---

(١) يعلّق المحققون بقولهم : يفهم من هذا أن سليمان عليه السلام قد وقف سنة متكئاً على العصا ، وهذا كلام لاتحصيل له .

والمعقول أنه مات ودفن ولا تعلم الجنّ شأنه لانشغالهم بالأعمال فلما رأت الجن عصاه وقد أكلتها دابّة الأرض علموا أنها لم تستعمل ، وعدم استعمالها دليل على موتِ صاحبها .

وأنا أردّ هذا القول بأن سياق الآية يناقضه ، ثم ما الغريب في ذلك ؟ فإنّ أجساد الأنبياء محفوظة للحديث : « إن الله قد حرم على الأرض أجساد الأنبياء » . =

وهكذا فلم يكن هناك داع إلى تكرار مثل هذا الموضع لانتفاء ملابساته ،فلم يكن لرسول الله ﷺ عصاً يتوكّأ عليها ، ومن يعمل بين يديه ويخشى إن تهاون في عمله أن يوقع به ، عكس نبي الله سليمان عليه السلام ،فكان الإعلام به يتعين لأول وهلة .

وموقف أيوب مع زوجته ، قال تعالى : ﴿ واذكر عبدَنا أيّوب إذ نادى ربّه أنّي مسني الشيطانُ بنُصْبٍ وعذاب * اركُض برجلك هذا مُغْتَسل باردٌ وشراب * ووهبنا له أهلَه ومثلَهم معهم رحمةً منّا وذكرى لأولي الألباب * وخذ بيدك ضِغثاً فاضرب به ولا تحَنَثْ ، إنا وجدناه صابراً ، نعمَ العبدُ إنه أوّاب ﴾ [سورة ص : ٤١ ـ ٤٤] .

ذلك أن أيوب ،عليه السلام ، أصابه البلاء بامتحان الله حيث سلّط الله عليه إبليس لحكمة فأفسد حرثه ،وأهلك الله أبناءه ،ورماه بالمرض حتى مقته أهل قريته ،وظلّ في البلاء ما يقرب من سبع سنين ،ولم يبق معه سوى زوجته التي كانت تعاوده حاملة الطعام والشراب ،فقابلها إبليس اللعين فقال

= والأرجح ما قاله ابن الأثير بدليل أن الآية الكريمة تقول :﴿فلما خر ﴾ أي :سقط ، فقد كان معتمداً عليها .

دابّة الأرض :هي الأرضة العثة .

المنسأة : هي العصا بلغة الحبشة أو هي مأخوذة من نسأت الغنم أي :حركتها .

راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ الجزء الأول :١٣٦ ـ الطبعة الثانية . وفتح القدير للشوكاني ـ الجزء الرابع : ٣١٧ .

﴿ قال : ربِّ اغفر لي وهب لي ملكاً لاينبغي لأحدٍ من بعدي ﴾ ، قال رسول الله ﷺ :« إن عفريتاً من الجن جعل يتفلّتُ علي البارحة ليقطع عليَّ صلاتي ، وإن الله أمكنني منه ، فلقد هممت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا فتنظروا إليه كلكم ،فذكرت قول أخي سليمان :﴿وهب لي ملكاً لاينبغي لأحد من بعدي ﴾ فرده الله خاسئاً » .

فتح القدير ـ الجزء الرابع : ٤٣٥ .

لها : إن سجدت لي عافيت زوجك ، فقالت : حتى أستشيره ، فأشار عليها بأن هذا إبليس اللعين ، وأنه إن عوفي لَيَضْرِبَنَّها مائة سوط [1] ، فلما خشي على ذهاب لسانه ﴿ قالَ ربِّ إنّي مَسَّني الضرُّ وأنت أرحم الراحمين ﴾ .

فأوحى إليه ربّه أن ﴿ اركُضْ برِجْلك هذا مُغْتَسلٌ باردٌ وشرابٌ * ووهبنا له أهلَهُ ومثلَهُم معهم رحمةً منا وذِكرى لأولي الألباب ﴾ . حينئذ أوحى إليه الله أن يأخذ عرجوناً فيه مائة شمراخ ضعيفة ، فضربها به مرة واحدة .

قال تعالى :﴿وخُذْ بيدك ضِغْثاً فاضربْ به ولا تحنَثْ إنّا وجدناهُ صابراً نِعْم العبدُ إنّه أوّابٌ ﴾ .

وهكذا قصّ المولى علينا قصة عبد من عباده ، ونبيّ من أنبيائه أصابه البلاء ، فصبر ، فعافاه الله سبحانه ، فإن للصبر عاقبةً محمودة الأثر ، والصبر من الإيمان ، بمنزلة الرأس والجسد .

ولّما كان مثل هذا حدث خاصّ وقع لنبي الله أيوب عليه السلام ، وهي أمور شخصية تخصّ ذات الشخص ولا تعني سواه ، فهو المصاب ، وقد عافاه الله ، وهي ملابسات ربّما أنها لم تحدث لنبينا محمد ﷺ ، لم يكن هناك داع للتكرار .

وكفالة زكريا لمريم وتربيتها أحسن تربية مع رزق الله الواسع لها ﴿ إذْ قالت امرأةُ عِمرانَ ربِّ إني نذرتُ لك ما في بطني مُحرّراً فتقبَّل مني إنك أنت السميع العليم * فلمّا وضعَتْها قالت : ربِّ إني وضعتُها أنثى ، والله أعلم بما

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ المجلد الأول : ٧٤ ـ ٧٥ ـ الطبعة الثانية .

الركض : ضرب الأرض بالرجل .

الضغث : عثكال النخل بشماريخه .

الحنث : الإثم ، ويطلق على فعل ما حلف على تركه .

وفي هذا أعظم دليل على أن المؤمن مبتلى ، وعلى قدر البلاء يكون الجزاء .

وَضعتْ ، وليس الذكر كالأنثى ، وإني سمَّيتها مريم ، وإني أعيذها بك وذرّيتها من الشيطان الرجيم * فتقبَّلَها ربُّها بقَبُولٍ حسنٍ وأَنْبتها نباتاً حسَناً وكَفَلها زكريّا كلّما دخل عليها زكريّا المحرابَ وجدَ عندها رزقاً قال : يا مريمُ أَنّى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ،إنّ الله يرزقُ من يشاء بغير حساب ﴾ [1] [سورة آل عمران : ٣٥ ـ ٣٧] .

فهذه الجزئيّة لم ترد إلا في سورة آل عمران ، فالهدف الخاص منها بيان قدرة الله عز وجل التي تجعل من العدم المحض خيراً مطلقاً ، ووجوداً طيباً حيث أن الفاكهة والرزق كان يأتيها ليلاً ونهاراً ،وصيفاً وشتاءً ،من حيث لاتحتسب ، وإثبات قدرة الله عز وجل انجلت من أول وهلة ،فالأمر لايقتضي التكرار .

والسيدة مريم ،وإتيانها المخاض بعد أن تمثل لها الملك بشراً سويّاً فحملت بعيسى ، وما ترتّب على ولادتها من أمر الله بأن تهزّ جِذْع النخلةِ قالت :﴿ياليتني مِتُّ قَبْلَ هذا وكنتُ نَسْيّاً مَنْسِيّاً ﴾ ، ﴿ قالُوا : يا مريمُ لقد جئتِ شيئاً فَرِيّا ﴾ [2] [سورة مريم : ٢٣ ـ ٢٧] .

---

(١) وانظر إلى النكتة في سؤال زكريا : ﴿ أنى لك هذا ﴾ ؟ هكذا يكون الكفيل والوصي ،يتحرى عن كل شيء ،ثم بماذا ردت السيدة الجليلة ؟ قالت : هو من عند الله ،إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

أدب جمّ ،وجواب لطيف حسن ،فانظر إلى هذه الذرّية الصالحة .

وهكذا استحقت هذه السيدة أن تحمل كلمة الله ،وتحافظ عليها حتى تضعه مثلاً باهراً على قدرة الله عز وجلّ ﴿ إنمّا أمرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له : كنْ فيكون ﴾ .

(٢) فأجاءها : أجاء : منقول من جاء ،إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى الإلجاء .

وجذع النخلة : إمّا أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة ، كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس . أو من باب تعريف الجنس ، أي : جذع هذه الشجرة خاصة ،كأن الله تعالى أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها . =

ولمّا كان حمل السيدة مريم بالمسيح عليه السلام ،والمخاض به ،واتهامها ، وتكلّم المسيح لتبرئتها ،أموراً مقصورة على ذات المسيح عليه السلام ،أراد الباريء عز وجل أن يطلع عليها نبيّه محمداً ﷺ ، وأن يبصّره بحقيقة أخيه المسيح عليه السلام ،ومعجزة مولده ورسالته .

فمريم عليها السلام ليست رسولاً من الرسل ليتأسّى بها النبي ﷺ .

ولم تكن للنبي ملابسات عيسى ،فهو لم يتكلم في المهد ،ولم تأت به أمه قومها تحمله ،فهي حوادث فردية سيقت للإنباء والإخبار .

والواقع أن كلّ قصة من القصص لها عناصرها وجزئياتها ،من هذه قصة موسى عليه السلام التي تضمنت الكثير من الجوانب من مثل ميلاده وتربيته ،الفترة بين رجولته وبعثته ،بعثته ،موقفه مع فرعون وطريقة إثبات حجّته أمام فرعون وقومه عن طريق السحر .

ولكننا نجد من هذه الجوانب وهو موقف موسى مع فرعون ،وطريقة إثبات حجّته تكررت هذه الجزئية في أكثر من موضع في تكرار هذه القصة .

وردت في سورة الشعراء : ﴿ قال للملأ حولَه إنّ هذا لساحرٌ عليم * يريد أن يُخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون * قالوا : أرْجِهْ وأخاه وابعثْ في المدائن حاشرين * يأتوك بكلّ سحّارٍ عليمٍ . . . قال لهم موسى أَلْقُوا ما أنتم مُلْقُون * فألقَوا حبالَهم وعصيَّهُم وقالُوا : بعزَّةِ فرعون إنّا لنحنُ الغالبُون * فألقى موسى عصاهُ فإذا هي تلقَفُ ما يأفِكُونَ ﴾ [سورة الشعراء : ٣٤ - ٣٧ - ٤٣ - ٤٥] .

كما وردت في سورة الأعراف : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا

= نسياً منسياً :ما من حقّه أن يطرح ويُنسى . فريّاً : أي بديعاً .
وانظر إلى النكتة في نذرها الصوم ، وهو أن عيسى عليه السلام سيكفيها الكلام بما يبرىء ساحتها ، والثاني : كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم .
الكشاف : ٥٠٦ المجلد الثاني .

لساحرٌ عليم * يريد أن يُخْرِجَكُم من أرضِكُمْ فماذا تأمرون * قالُوا أرجِهْ وأخاهُ وأرسِلْ في المدائِن حاشِرين * يأتُوكَ بكل ساحرٍ عليم * . . . قالوا : يا موسى إمّا أن تُلْقِيَ وإمّا نكونَ نحنُ الملقين * قال : ألْقُوا ، فلما ألقَوا سحَروا أعيُنَ الناس واستَرْهَبُوهم وجاءوا بسحرٍ عظيم * وأوحينا إلى موسى أَنْ ألقِ عصاك فإذا هي تَلْقفُ ما يأفِكون ﴾ . [سورة الأعراف : ١٠٩ ـ ١١٢ ـ ١١٥ ـ ١١٧] .

وفي سورة طه : ﴿ قال : أجئتَنا لتُخْرِجنا من أرضِنا بسحرِكَ يا موسى * فلَنأتِينَّكَ بسحرٍ مثِله فاجعلْ بينَنَا وبينَك موعداً لانُخْلِفُهُ نحنُ ولا أنتَ مكاناً سُوىً * قال : موعدُكم يومُ الزينةِ وأن يُحْشَرَ الناس ضحىً * . . . قال يا مُوسى إمّا أن تُلْقِيَ وإمّا أن نكونَ أولَ من ألقى * قال : بل أَلْقُوا ، فإذا حبالُهم وعصيُّهم يُخَيَّلُ إليه من سحرهم أنَّها تسعى * فأوجسَ في نفسهِ خِيفةً موسى * قلنا لاتخفْ إنك أنتَ الأعلى * وألقِ ما في يمينك تَلْقَفْ ما صنعوا إنما صنعُوا كيدُ ساحرٍ ولا يفلحُ الساحرُ حيثُ أتَى ﴾ (١) [سورة طه : ٥٧ ـ ٥٩ ، ٦٥ ـ ٦٩] .

وقصة نوح اشتملت على العناصر الآتية : أسلوبه في الدعوة ، وموقف قومه منه ، وموقفه من قومه وابنه ، والنهاية الحاسمة .

ولكننا نجد جزئية موقف قومه منه ، ونهايتهم قد تكررت في أكثر من موضع في القرآن الكريم ، وردت في سورة الأعراف : قال تعالى : ﴿ لَقَد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلهٍ غيرُه إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قال الملأ من قومه : إنا لَنراك في ضلال مبين * . . . فكذّبوه فأنجيناهُ والذين معه في الفُلْكِ وأغرقنا الذين كذّبوا

(١) أرجه : قرىء أرجئه ، وأرجه بالهمز والتخفيف وهما لغتان ، ويقال : أرجأته وأرجيته إذا أخّرته ، أي : أخّره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة .
راجع : الكشاف : ١١٢ المجلد الثالث .

بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ [سورة الأعراف : ٥٩ ـ ٦٠ ، ٦٤] .

وفي سورة هود : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين *أن لا تعبدوا إلّا الله إني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ أليم * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراكَ إلا بشراً مثلَنا وما نراكَ اتَّبعكَ إلا الذين هُم أراذلُنا باديَ الرأيِ وما نَرى لكم علينا من فضلٍ بل نظنُّكم كاذبين * . . . وأوحي إلى نوحٍ أنه لن يؤمنَ من قومكَ إلا من قد آمن فلا تبتئسْ بما كانوا يفعلُون ،واصنعِ الفُلْكَ بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبْني في الذين ظلموا إنّهم مُغْرَقون ﴾ [سورة هود : ٢٥ ـ ٢٧ ، ٣٦ ـ ٣٧] .

فأجزاء القصّة التي تصور توجيه الرسول لقومه ، وما صادفه من عناد مرير حتى كانت النهاية الحاسمة ، نرى أنّها عنصر هام في تكرار القصة الواحدة حتى وردت في مواضعَ كثيرة من السور القرآنيّة ، ففي سورة هود يقول الحق عز وجل :﴿قالُوا : يا هود ما جئتنا ببيِّنَةٍ وما نحنُ بتاركي آلهتِنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * . . . ولما جاء أمرنا نجَّيْنا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا ونجَّيناهم من عذابٍ غليظٍ ﴾ [سورة هود : ٥٣ ـ ٥٨] .

وفي سورة الشعراء :﴿قالوا :سواءٌ علَيْنا أوعظتَ أم لم تكنْ من الواعظين * . . . فكذَّبوه فأهلكناهم ،إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنين ﴾ [سورة الشعراء : ١٣٦ ، ١٣٩] .

وفي سورة الأحقاف : ﴿ قالوا أجِئتَنَا لتَأْفِكَنا عن آلهتنا فأتِنَا بما تَعِدُنا إن كنت من الصادقين * قال : إنما العلم عند الله وأُبلغكم ما أرسلت به ، ولكنّي أراكم قوماً تجهلُون * فلما رأَوْه عارِضاً مُستقبِلَ أوديتِهِمْ قالوا : هذا عارضٌ مُمْطِرُنا ،بل هو ما استعجَلْتُم به ، ريحٌ فيها عذابٌ أليم * تُدَمّر كلَّ شيءٍ بأمر ربِّها فأصبَحوا لايُرى إلا مساكنُهم ، كذلك نجزي القومَ المجرمين ﴾ [سورة الأحقاف : ٢٢ ، ٢٥] .

﴿ كذبتْ عادٌ فكيفَ كان عذابي ونُذُر * إنا أرسلنا عليهم ريحاً

صرصراً في يوم نحسٍ مستمرّ * تَنْزِعُ الناسَ كأنّهم أعجازُ نخلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ [سورة القمر : ١٨ ، ٢٠] .

وفي قصة صالح يقول الله سبحانه : ﴿ ويا قومِ هذه ناقةُ الله لكم آية فَذَرُوها تأكلْ في أرضِ الله ولا تمسُّوها بسوءٍ فيأخذَكُمْ عذاب قريب * فعقَرُوها فقال : تمتَّعُوا في داركم ثلاثَة أيام ذلك وعدٌ غيرُ مكذوبٍ ﴾ [سورة هود : ٦٤ ، ٦٥] .

وفي سورة الشعراء :﴿ قال : هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكم شِرْبُ يوم معلوم * ولا تمسُّوها بسوءٍ فيأخذَكُمْ عذابُ يومٍ عظيمٍ * فعقروها فأصبحوا نادمين ﴾ [سورة الشعراء : ١٥٥ ، ١٥٧] .

وفي سورة القمر : ﴿ إنّا مرسلُوا الناقةِ فتنةً لهم فارتقبْهم واصطَبِرْ * ونَبِّئهم أن الماءَ قسمةٌ بينهم كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فنادَوا صاحبهم فتعاطى فعقرَ * فكيف كان عذابي ونُذُر ﴾ [سورة القمر : ٢٧ ـ ٣٠] .

وفي قصة شعيب :﴿فأخذتهم الرجفة فأصبَحُوا في دارِهم جاثمين ﴾ [سورة الأعراف : ٩١] .

وفي سورة هود : ﴿ ولّمَا جاءَ أمرُنا نجَّينا شُعَيباً والذين آمنوا معه برحمةٍ منّا وأخذَتِ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبَحُوا في ديارهم جاثمين ﴾ [سورة هود : ٩٤] .

وفي سورة الحجر : ﴿ وإن كان أصحابُ الأيكةِ لظالمين * فانتقمنا منهم وإنّهما لبإمامٍ مبين ﴾ [سورة الحجر : ٧٨ ـ ٧٩] .

وفي سورة النجم : ﴿ والمؤتفكةَ أهْوَى * فَغَشّاها ما غَشّى ﴾ [سورة النجم : ٥٣ ـ ٥٤] .

وفي سورة الحاقة :﴿وجاء فرعونُ ومَنْ قَبْلَهُ والمؤتفكاتُ بالخاطئة ﴾ [سورة الحاقة : ٩] .

وهكذا بعد أن استعرضنا هذه الكوكبة من الأنبياء ،وموقفهم مع

قومهم ، وموقف قومهم منهم ، نجد أن معظم هذه الجزئيات التي تكررت في قصصهم لا يقصد بها سوى تثبيت النبي ﷺ وتسليته ، وأن غيره من الرسل تعرّض للإيذاء والتكذيب والعناد ، وطالبهم قومهم بالمعجزات الدالة على صدقهم ،وقد جاءوا بها وأثبتوا صدقهم ،ولكن قومهم ازدروا بهم ودحضوا حججهم ، وحاولوا النيل منهم ، وطمس معالم صدقهم وبراهينهم فاصبر يا محمد كما صبروا ،واثبت واعلم بأن النهاية في صالح الرسل ومن تبعهم ، فالله سبحانه ينصر رسله بالغيب ويرفع راية الحق خفاقة ، ويثبت المؤمنين الصابرين المحتسبين ، ويحيق المكر والعذاب بالكافرين الجاحدين .

﴿ إنا لَنَنْصُرُ رسلَنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [سورة غافر : ٥١] .

وإذا كان الأمر يقتضي دفع شبهة ،وردّ الأباطيل الواجفة ،كان التكرار لازماً في القصة القرآنية ،ومن ذلك الحديث عن معجزات عيسى كثيراً عند دوران قصته في القرآن ، قال تعالى : ﴿ ورسولاً إلى بني إسرائيلَ أني قد جئتُكم بآيةٍ من ربِّكم أنّي أخلُقُ لكم من الطين كهيئةِ الطير فأنفخُ فيه فيكونُ طيراًبإذن الله وأُبرىءُ الأكمَه والأبرصَ وأحيي الموتى بإذن الله ،وأُنَبِّئُكم بما تأكلون وما تدَّخِرون في بيوتكم إنّ في ذلك لآيةًلكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [سورة آل عمران : ٤٩] .

وقال تعالى : فأشارت إليه ، قالوا : كيف نكلِّم من كان في المهد صبيّاً * قال : إني عبد الله آتانيَ الكتابَ وجعلني نبيّاً * وجعلني مباركاً أينما كنتُ وأوصاني بالصلاةِ والزكاةِ ما دمتُ حيّاً * وبرّاً بوالدتي ولم يجعلْني جَبّاراً شقيّاً * والسلامُ عليَّ يومَ وُلدْتُ ، ويومَ أموتُ ، ويومَ أبعثُ حيّاً ﴾ [سورة مريم : ٢٩ ، ٣٣] .

وتكرار مثل هذه المعجزات حتى يثبت المولى عز وجل أن معجزة عيسى

لم تتحقق إلا بالقدرة الإلهيّة ، فهو يحيي الموتى ، ويبرىء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى .

فالتكرار لازم ،حيث إن النصارى المعاندين كانوا يعلنون المرة بعد الأخرى ، أنه مادام يحيي الموتى ،ومادام أنه لا أب له معروف فهو إله .

والقرآن الكريم كثيراً ما يدحض كيد المعاندين وشبههم ويفحم دعوى المبطلين ،فالتكرار بسبب ادّعاءاتهم المتكررة وأباطيلهم التي فاقت الحد .

* * *

الفصل الثالث
الإفادة في تكرار القصّة القرآنية

قلنا فيما سبق : إن كثيراً من جزئيّات القصّة القرآنية قد دار مع دوران القصة في تكرارها في السور القرآنية ، ولكن في جمال عرض ، وإجلاءٍ للمعاني في قوة وبيان .

ولعلّ ذلك راجع إلى تنّوع أسلوب القصة ، فقد كانت تارة تميل في جزئية من جزئياتها إلى الإطناب ، وقد كانت تميل تارةً أخرى إلى الإيجاز ، وإذا أطنبت في حدث من أحداث القصة ، وأوجزت في الآخر في سورة مثلاً ،نرى العكس في سورة أخرى .

ومن ذلك قصّة موسى وردت في سورة طه ، الشعراء ، والقصص وغيرها ، ولكنها وردت في سورة طه وقد فصّل موقف موسى مع السحرة قبل الإلقاء ،هكذا قال تعالى : ﴿ وَيْلَكم لاتفتَرُوا على الله كذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بعذاب وقد خاب من افترى * فتنازَعُوا أمرهم بينهم وأسرُّوا النجوى * قالوا إنْ هذان لساحران يريدان أن يُخْرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهَبا بطريقَتِكُمُ المُثْلى * فأجْمِعُوا كيدَكم ثمَّ ائتوا صفّاً وقد أفلحَ اليومَ من استَعْلَى ﴾ الخ [سورة طه : ٦١ - ٦٤] .

أما ظفر موسى ونهاية فرعون التعيسة ، فنجد أنه قد أوجز إيجازاً واضحاً في هذه السورة ،قال تعالى : ﴿ ولقَد أوحينا إلى موسى أن أَسْرِ بعبادي فاضربْ لهم طريقاً في البحر يَبَساً ، لاتخافُ دَركاً ولا تخشى * فَأَتْبَعهم فرعونُ بجنودِه فغشِيَهُمْ من اليمِّ ما غَشِيَهُمْ * وأضَلَّ فرعونُ قومَهُ وما هَدَى ﴾ [سورة طه : ٧٧ - ٧٩] .

أما في سورة الشعراء ، فنجد العكس ، فموقف موسى مع السحرة قبل الإلقاء موجزٌ جداً ، هكذا : ﴿ قالَ لهم موسى أَلْقُوا ما أنتم مُلْقُونَ ﴾ [سورة الشعراء : ٤٣] .

أما ظفرُ موسى ونهاية فرعون ، فقد جاءت بإطناب ، قال تعالى : ﴿ فأرسلَ فرعونُ في المدائن حاشرين * إنَّ هؤلاء لشِرْذِمَةٌ قليلون * وإنّهم لَنا لَغائظون * وإنّا لجميعٌ حاذِرون ، فأخرجناهم من جنّات وعيون * وكنوزٍ ومقامٍ كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فَأَتْبَعُوهم مُشْرِقين * فلمّا تراءى الجمعانِ قال أصحابُ موسى : إنّا لمُدْرَكون * قال : كلّا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أنِ اضْرِبْ بعصاك البحر فانْفَلَق فكان كلُّ فِرْقٍ كالطودِ العظيمِ * وأَزْلَفْنا ثمّ الآخرين * وأنجينا موسى ومَنْ معه أجمعين * ثُمَّ أغرقنا الآخَرين * إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربَّك لهُوَ العزيزُ الرحيم ﴾ [سورة الشعراء : ٥٢ ـ ٦٨] . فما السر في ذلك ؟ .

ولعل السرّ في ذلك الذي من أجله فصّل موضوع السحرة قبل الإلقاء في سورة طه في حوارهم مع موسى ، وأوجز في موضوع نهاية فرعون على النقيض منها في سورة الشعراء ، أن سورة طه سيقت أساساً لتسلية النبي ﷺ ، ولذا جاء في مطلعها : ﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ وقال فيها : ﴿ وهل أتاك حديثُ موسى ﴾ [سورة طه : ١ ـ ٢ ، ٩] .

من هنا كان في حكاية ما يتعلق بنبي الله موسى عليه السلام من ولادته ، ووضعه في التابوت ، وإلقائه في اليم ، ثم رجوعه لأمه ، ثم قتله للقبطي ، ثم هربه إلى مدين ، ثم بعثته بعد ذلك إلى عدوه اللدود فرعون الذي فرّ من تعسّفه وجوره ، ما يذهب بعض الوجد من نفس النبيّ ﷺ ويسلّيه .

من هنا كان في الاسترسال في شرح موقف موسى مع السحرة ، وكيف ألقى عصاه ، فإذا هي تلقف ما يأفكون يحتاج إلى إطناب .

أمّا في موضوع نهاية فرعون فيكفي شرح حاله ، وأنه قد نزل به الهلاك وحلّت عليه اللعنات ، وفي هذا كفاية .

أما في سورة الشعراء فإنها قد سيقت للتثبيت ، ولذا جاء في مطلعها ﴿ لعلّك باخعٌ نفسك ألّا يكونوا مؤمنين ﴾ [سورة الشعراء : ٣] .

وبما أن السورة قد سيقت أساساً لهذا المطلب ، لذا ساق المولى عز وجل فيها أخبار العديد من الأنبياء ،كقصة نوح ، وهود ،وصالح ، وشعيب ،وكل ذلك ليأخذ النبي ﷺ مشرباً من هؤلاء الرسل ، وكيف صبروا على أذى قومهم بالرغم من تعسّفهم عليهم ، « فاثبت يا محمد كما ثبتوا ،واصبر كما صبروا » .

من هنا كان الاسترسال في حكاية نهاية فرعون وقومه ،وما حلّ بهم أمر مطلوب ليتّضح للنبي ﷺ نهاية المكذبين ، وخاتمتهم ، فيثبت ويصبر .

أما العملية التي دارت بين موسى والسحرة قبل أن تتم عملية السحر فلا حاجة للإطناب فيها .

ومن هنا قوله تعالى : كذَّبتْ عادُ المرسلين * إذ قال لهم أخوهم هودٌ : ألا تَتّقون * إني رسولٌ أمين * فاتقوا الله وأطيعونِ * وما أسألُكم عليه من أجرٍ إنْ أجرِيَ إلا على ربِّ العالمين * أتبْنُون بكلِّ رِيْعٍ آيةً تعبثون * وتتّخذون مصانعَ لعلّكم تخلُدون * وإذا بطَشْتم بطَشْتم جبّارين * فاتقوا الله وأطيعونِ * واتّقوا الذي أمدَكم بما تعلمون * أمدَّكم بأنعام وبنين * وجنّات وعيون * إني أخافُ عليكم عذابَ يومٍ عظيم ﴾ [سورة الشعراء : ١٢٣ ـ ١٣٥] .

وقال تعالى : ﴿ واذكُرْ أخا عادٍ إذ أنْذر قومه بالأحقاف وقد خلَتِ النُّذُرُ من بين يديه ومن خلفه ألّا تعبُدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يومٍ عظيمٍ ﴾ [سورة الأحقاف : ٢١] .

هاتان صورتان بين يديك لجانب واحد من عناصر القصة

القرآنية ،وهو جانب دعوةِ الرسل لأقوامهم ، وهي مع تكرارها ،إلا أن الأسلوب يختلف بتكرارها وإن كان المضمون واحداً .

ففي الآية الأولى إطناب وبسط في الأسلوب ،فقد بدأ هود يذكر قومه بنعم الله عليهم في شكل توقيعات استفهامية تقريرية :

أتبنون بكلِّ رِيْع آيةً تعبثون ؟

وتتّخذون مصانعَ لعلَّكم تخلُدون ؟

وإذا بطشْتُمْ بطشْتُمْ جبّارين ؟

كما نلحظ كمال الاتصال في التفصيل بعد إجمال [1] في قوله تعالى : ﴿ أمدَّكم بما تعلَمون * أمدَّكم بأنْعَامٍ وبنينَ ﴾ .

ولعلّ السرّ الذي أوجز فيه في سورة الأحقاف في جانب دعوة الرسول لقومه ،وعلى النقيض في سورة الشعراء ،أن سورة الأحقاف قد سيقت لتثبيت النبي ﷺ ،ولذا أطنبت السورة في جانب نهاية القوم وما حلَّ بهم ، حتى قال البارىء جلَّ في علاه : ﴿ فاصْبِر كما صبرَ أولو العزم من الرُّسلِ ﴾ .

وفي سورة البقرة ،في قصة إبراهيم ،تعرّض لموضوع الأصنام بإشارة خاطفة هكذا : ﴿ وعهِدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طَهِّرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والرُّكَّعِ السجود ﴾ [سورة البقرة : ١٢٥] ، فإنك تلمس معنى الطهارة ،وهي إزالة الأدران والأنجاس ، ومن ضمنها الأصنام من خلال السطور .

(١) وهذا يسمى بكمال الاتصال في علم البلاغة ، وذلك أن تنزل الجملة الثانية منزلة بدل البعض من متبوعه ،ومقتضى الإبدال هنا كون الأولى غير وافية بتمام المراد بخلاف الثانية ، فجملة : ﴿ أمدّكم بأنعام ر نين ﴾ أوفى ب ديته من قوله تعالى : ﴿ أمدّكم بما تعلمون ﴾ لدلا نه عليها بالتفصيل
الإيضاح للقزويني : ١٥٢ .

وفي سورة إبراهيم إشارة صريحة إلى ذلك ، قال تعالى : ﴿ وإذْ قال إبراهيم ربِّ اجعلْ هذا البلد آمناًواجنُبْني وبَنِيَّ أن نعبد الأصنام * ربِّ إنّهن أضلَلن كثيراً من الناس ، فمن تبعني فإنه منّي ، ومن عَصاني فإنّك غفورٌرحيم ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٥ - ٣٦] .

وفي سورة البقرة إشارة عابرة إلى عبادة الأصنام ، هكذا : ﴿ وعهِدْنَا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طهِّرا بيتيَ للطائفين والعاكفين والركَّع السجود ﴾ .

وفي سورة الحج إشارة إلى أن عبادة الأصنام فيها شرك ، قال تعالى : ﴿ وإذ بَوّأنا لإبراهيم مكانَ البيت أن لاتشركْ بي شيئاً وطهِّر بيتيَ للطائفين والقائمين والركَّع السجود ﴾ [سورة الحج : ٢٦] .

وفي سورة البقرة إشارة إلى موضوع الحج في قوله تعالى : ﴿ وأرِنَا مَناسكَنا وتُبْ علينا إنك أنْتَ التوَّابُ الرحيم ﴾ [سورة البقرة : ١٢٨] .

أما في سورة الحج فقد تعرضت لإعلام الناس بالحج على لسان الخليل بعد أن تمّت عملية رفع البيت ، هكذا : وأذِّن في الناس بالحجِّ يأتوكَ رجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتينَ من كلِّ فجٍّ عميقٍ * ليشهدوا منافعَ لهم ويذكروا اسمَ الله في أيّام معلوماتٍ على ما رزقهُمْ من بهيمةِ الأنعامِ ، فكلوا منها وأطعمُوا البائس الفقير * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهم ، وَلْيُوفوا نذورهم ، ولْيَطَّوَّفوا بالبيت العتيق * ذلك ومَنْ يعظّم حُرُماتِ الله فهو خيرٌ له عند ربّه ، وأُحِلَّت لكم الأنعامُ إلا ما يُتلى عليكم ، فاجتنبوا الرجسَ من الأوثان واجتنبوا قولَ الزور ﴾ (١) [سورة الحج : ٢٧ - ٣٠] .

وذلك لأن سورة الحج موضوعها الأساسي هو بيان الحج ومناسكه ومبدأ شرعته على لسان خليل الله إبراهيم عليه السلام بعد أن رفع البيت ، فقد سيقت أساساً لهذا الغرض ، بدليل عنوان السورة ، ولذلك

---

(١) وأذن في الناس بالحج : ذكر صاحب الكشاف أن الخطاب موجه للخليل وقيل : للنبي ﷺ ، وأمر بذلك في حجة الوداع . ولكنني أرجح الأول .

استرسل الباريء ، عز وجلّ ، في ذكر مناسك الحجّ ، وعلى النقيض سورة البقرة ، فلم تسق أساساً لهذا الغرض لذا لم يتحدث الباريء عز وجل باستفاضة على لسان الخليل عليه السلام .

وقد تعرض كثير من جزئيات القصة في القرآن الكريم بصورة مختلفة في الأسلوب ،ولكن المؤدى واحد : من ذلك قوله تعالى في قصة نوح في محمل الدعوة ،وهو الجانب الأول من جوانب قصص الأنبياء مع أممهم : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال : يا قومِ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ [سورة الأعراف : ٥٩] .

وقوله تعالى :ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنّي لكم نذيرٌ مبين * أَنْ لاتعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذابَ يومٍ أليم ﴾ [سورة هود : ٢٥ ـ ٢٦] .

وقوله تعالى : ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ [سورة المؤمنون : ٢٣] .

فهي كلها تدعو الناس إلى عبادة الله وترك عبادة ما عداه وإن اختلفت في شيء من التعبير الذي مؤدّاه واحد ، إذ في قوله تعالى في الآية الثانية : ﴿ إلّا الله ﴾ معنى القصر الذي يفيد أنه لا معبود بحق إلا الله ، وهي ما تضمنته الآية الأولى والثالثة بمنطوقها : ﴿ ما لكم مِن إله غيره ﴾ ، والتعبير بـ : عظيم ، وأليم ، وأفلا تتقون ، مع الاختلاف الواضح في المنطوق ، إلا أن مدلولات العبارات متفق ، لأن العذاب إذا اتصف بأنه يؤلم صاحبه ويوجعه فهو عذاب عظيم ليس هيّناً ، فبآثاره عظم وكبر ،ومن ثمّ يجب أن يتقي الله كلّ إنسان ويخاف عذابه الموصوف بأنه عظيم وأليم .

وهكذا نلمس اختلافاً في شيء من العبارة والأسلوب ،ولكن مؤداهما واحد ، حتى يتذوق كلّ قارىء الآية بحسب اتجاهه النفسي ، وتفسيره

الباطني ، فيكون وقع الآية على القارىء والسامع أشدّ .

وفي قصة لوط : ولمّا جاءت رسلُنا لوطاً سيء بهم وضاقَ بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يُهْرَعُون إليه ومن قبلُ كانوا يعملون السيِّئات قال : يا قومِ هؤلاء بناتي هنَّ أطْهَرُ لكم فاتَّقُوا الله ولا تُخزونِ في ضيفي ، أليس منكم رجلٌ رشيدٌ * قالوا : لقد علمتَ ما لَنا في بناتِكَ من حقٍّ وإنك لتعلمُ ما نريد * قال : لو أنَّ لي بكم قُوّةً أو آوِي إلى ركنٍ شديد * قالوا : يا لوطُ إنّا رسلُ ربِّك لن يصلوا إليك فأَسْرِ بأهلك بِقطْعٍ من الليل ولا يلتفِتْ منكم أحدٌ إلا امرأتَك إنه مُصِيبها ما أصابَهُمْ ، إن موعدَهم الصبحُ ، أليس الصبحُ بقريبٍ * فلمّا جاء أمرنُا جعَلْنا عاليَها سافلَها وأمطرْنَا عليها حجارةً من سجِّيلٍ منضودٍ * مُسَوَّمةً عند ربِّك وما هيَ من الظالمين ببعيدٍ ﴾ [سورة هود : ٧٧ - ٨٣] .

وقال تعالى في سورة الحجر : فلَمّا جاء آلَ لوطٍ المرسلون * قال : إنّكم قوم منكرون * قالوا : بل جئناكَ بما كانوا فيه يمترون * وآتيناك بالحقِّ وإنّا لصادقون * فأسْرِ بأهلك بِقطْعٍ من الليل واتَّبع أَدْبَارهم ولا يلتفتْ منكم أحدٌ وامضُوا حيثُ تُؤمرون * وقضَينا إليه ذلك الأمر أنَّ دابِرَ هؤلاء مقطوعٌ مصبحين * وجاء أهلُ المدينة يستبشرون * قال : إن هؤلاء ضيفي فلا تَفْضَحون * واتقوا الله ولا تُخْزَون * قالوا : أوَ لَمْ نَنْهك عن العالمين * قال : هؤلاء بناتي إنْ كنتم فاعلين * لعَمْرُك إنّهم لفي سكرتهم يعمهون * فأخذَتْهم الصيحةُ مشرقِين * فجعَلْنا عاليَها سافلَها ، وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيل * إن في ذلك لآياتٍ للمُتَوسِّمين * وإنها لَبِسَبيلٍ مُقيم * إنّ في ذلك لآيةً للمؤُمنين ﴾ [سورة الحجر : ٦١ - ٧٧] .

فما السرّ وراء هذا التكرار ، وتلوّن الأسلوب والمؤدى واحد ؟ .

والواقع أن نبيَّ الله لوطاً عليه السلام في سورة هود لا يعلم بأن ضيفه من الملائكة بدليل قوله لهم : ﴿ لو أنّ لي بكم قُوّةً أو آوي إلى ركن شديد ﴾

من هنا ضاق بهم ذرعاً ،وبدت عليه ملامح الحيرة والارتباك .

والقرآن الكريم قصد في هذا إلى إبراز عواطف لوط عليه السلام تسلية للنبيّ ﷺ ،كما تبرز في السورة صور العطف والحنان والحرص على هدايتهم ﴿ قال يا قوم ﴾ ﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ .

أما في سورة الحجر فنبيّ الله لوط عليه السلام يعرف بأن ضيفه من الملائكة ، لأنهم أبانوا له عن أنفسهم من بداية الأمر ﴿ قال : إنّكم قوم مُنْكَرون * قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وآتيناك بالحقِّ وإنّا لصادقون * . . . وجاء أهل المدينة يستبشرون ﴾ .

من هنا كان خطاب لوطٍ عليه السلام موجّهاً إلى قومه بهذا الأسلوب « هؤلاء بناتي فلا تفضحون » ، ولم يقل : « يا قوم » ،ولا « أطهر » . . . وكأنه يئس من هدايتهم .

وقصد القرآن في هذه القصة إلى بيان ما ينزل بالمكذّبين من عذاب ،من هنا حرص القرآن على أن يجعل الملائكة تعلن عن نفسها وتخبر لوطاً بما سيحلُّ بالقوم ،وهو ما يتلاءم مع حالة النبيّ ﷺ .

ولقد فطن كثير[1] من الباحثين إلى **أن عرض المعنى الواحد بأساليب مختلفة ،وطرق متعددة ،يدلّ دلالة قاطعة على أن بلاغة القرآن في أعلى مراتبها حيث إنه من خصائص البلاغة إبراز المعنى الواحد في صور مختلفة** .

على أن تكرار أحداث القصة بهذا الأسلوب المتمايز عن الآخر ، يجعل القارىء والسامع لا يملّ من التكرار ،بل على العكس من ذلك يجدد في نفسه معاني أخرى ربّما أنها لم تحصل له من قبل فيما عرض من أسلوب سابق .

على أن القرآن تحدّى به العرب ، فكان دليلاً على الإعجاز وإيراد المعنى الواحد في صور متعددة ، وقد عجزت العرب عن الإتيان بمثله ،يكون

---

(١)راجع : مباحث في علوم القرآن ـ للشيخ مناع القطان : ٣٠٨ ـ الطبعة الثالثة .

أبلغ في التحدي وأبعد في الإعجاز .

على أن هذا التكرار طريق من طرق تأكيد المعنى في النفس واستقرارها في خواطر القارىء والسامع ، فكلّ قصة من القصص القرآنية التي قد تكررت اتحدت أهدافها ،واتفقت غاياتها ،ومن ذلك قصة موسى مع فرعون ،فهي وإن تكررت في مواضع كثيرة من القرآن ،إلا أنها تشير إلى غاية واحدة حيث إنها تمثل الصراع بين الحق والباطل ،وعلى هذا فإن التكرار يشبب هذا الصراع ،ويؤكد نهاية الظلم ،وبذلك ترسخ هذه الغاية في النفس فتكون أدعى إلى التصديق والامتثال .

وقد أشار بعض النقاد [1] المحدثين إلى أن التكرار للشيء الواحد كما ورد في سورة الرحمن تكرار آية : ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ إحدى وثلاثين مرة ،فيها رنين الصوت المكرر الذي يدعو القارىء والسامع لكي يتمثل في ضميره نِعمَ ربّه الدنيويّة والأخرويّة ،حتى يستنقذ نفسه من العذاب الأليم ،وينال ما يجدر به من الثواب والنعيم .

ومعنى ذلك أن الدكتور شوقي ضيف على ما أرى ،يرى أن تكرار القصة القرآنية فيها إيقاظ الهمم ،ودفع العقول والنفوس إلى التأمل والتدبُّر ففرق كبير بين الشيء الذي يحكى مرّة ،وبين الشيء الذي يكثر تكراره ،ففي الثاني استشعار أقوى من الأول ،وتعليم للإنسان تقوى فيه الدلالة والمحاكاة .

على أن الأمر العظيم [2] الذي له بال خطير يستأهل التكرار ، أما الشيء العارض فإن تكراره قد يكون ثقيلاً على السمع ، بغيضاً إلى النفس ، فإنه لا يستأهل المعاودة ، أما الأشياء الجسمية ذات البال كقصص الأنبياء

---

(١) سورة الرحمن : عرض ودراسة ،د . شوقي ضيف : ٣٣ دار المعارف بمصر .

(٢) فنون البلاغة بين القرآن وكلام العرب ـ د . فتحي عبد القادر : ٣٦ الطبعة الأولى ١٤٠٠ هـ .

التي كلها عبرة وعظة وأحداث من أنباء الغيب ، فما أحوج البشرية إلى معرفتها والوصول إلى مراميها ، وعلى هذا فتكرارها أمر يطابق مقتضى الحال إذ أن الطبيعة البشرية تميل إلى أن يعاد الشيء الذي يحن الإنسان إليه ويرغب في معرفته ،وخصوصاً أن هذه الأمور مرتبطة تماماً بالعقيدة وبالسلوك الإسلامي الصحيح .

على أنه من الواضح أن هذا التكرار في القصص القرآني فيه شيء من التباين والتنوع في طريقة العرض ،كما لاحظ ذلك الطبري [١] حينما أورد نصوصاً في التشابه القصصي ـ الجزء السادس ص ١٠٧ ـ : « فالتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرار ، فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني ،وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني » .

ويرى الزركشي في كتابه [٢] « البرهان في علوم القرآن » :

« أن التكرار القرآني هو أسلوب من أساليب البيان العربي ، وأن القرآن جرى على هذا على ما في أساليب العرب من التكرار في مواقف التأكيد والتقرير . . . الخ ،والقرآن إن سلك هذا المسلك المألوف في التكرار ،إلا أنه خرج به عن ما كان يلحقه عادة من قلق النظم ، واضطراب الأسلوب ، وضعف الترابط بين أجزاء الكلام » .

ويرى أبو بكر الباقلاني [٣] في كتابه « إعجاز القرآن » ،أن من أسباب تكرار القصص القرآني أن إعادة القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر فيه الفصاحة ،وتبين فيه البلاغة .

ومن هذا كلّه يستبين لنا أن التكرارفي القصة القرآنية يفصح عن روعة

(١) راجع الفن القصصي في القرآن ـ د . محمد أحمد خلف الله : ٢١٧ ،طبعة ١٩٥١ م .
(٢) راجع : إعجاز القرآن ـ لعبد الكريم الخطيب : ٤٠٧ الطبعة الأولى طبعة ١٩٧٤ م .
وراجع : البرهان في علوم القرآن ـ الصفحة التاسعة الجزء الثالث .
(٣) إعجاز القرآن للقابلاني : ٤١٧ .

القرآن ، وكمال إعجازه ،وقوة عرضه ،وإن هذا التكرار أمر يطلبه المعنى ومقتضى الحال يدعو إليه ،ومن ثمّ كان التكرار في القصة القرآنية حسن كله تقبله النفوس .

ومعنى ذلك أن ابن سنان الخفاجي يرى فيه الجمال المطلق والغاية المثلى ،كما يفهم من عبارته « التكرار منه ما يستحسن ومنه ما يستقبح ، فالتكرار لايكون قبيحاً إلا إذا كان المعنى المقصود لا يتم إلا به[(١)] » .

ومن تنوع الأسلوب : مراعاة مقتضى الحال ،وذلك إذا كان الموقف يقتضي اللمحة الخاطفة ،والإشارة العابرة ، كما في مقام الامتنان إذا كان الهدف من القصّ بيان أن الجزاء من جنس العمل ، نرى أن القصة القرآنية تميل إلى الإيجاز والإشارة الخاطفة تذكيراً للنبي ﷺ بتلك المنن التي منّ الله بها على رسله ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ واذكُرْ في الكتاب موسى إنه كان مُخْلَصاً وكان رسولاً نبيّاً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقَرَّبناه نَجِيّا ﴾ [سورة مريم : ٥١ ـ ٥٢] . فليس الهدف هنا القصّ ،وإنما الهدف بيان رضاء الله عن عبده ورسوله لإخلاصه ، فاجتباه ووهب له الرسالة واصطفاه نبياً ،وحباه بكلماته ،وزاده بركة بجعل أخيه هارون نبيّاً .

وقال تعالى : ﴿ واذكُر في الكتاب إسماعيلَ إنه كان صادقَ الوعد وكان رسولاً نبيّاً * وكان يأمرُ أهلَه بالصلاةِ والزكاةِ وكان عند ربِّه مرضِيّاً ﴾ [سورة مريم : ٥٤ ـ ٥٥] . وكما عرفنا فليس الهدف هنا القصّ ،وإنما بيان رضاء الله سبحانه ومنّته على عبده ورسوله إسماعيل ، جزاء صدقه ، وأمر أهله بالصلاة والزكاة ، فاجتباه ربه وأكرمه بالنبّوة والرسالة ،وزاده برضاه عنه ، وهكذا فالجزاء من جنس العمل .

وقال تعالىَ : ﴿ واذكُر في الكتاب إدريسَ إنّه كان صدِّيقاً نبيّاً *

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ـ د . عبد الرزاق أبو زيد : ١٣٨ طبعة ١٩٧٦ م .

ورفعناه مكاناً عليّاً ﴾ [سورة مريم : ٥٦ - ٥٧] . فكان صدّيقاً ، وهي أرفع درجات التصديق والإيمان ، وكان نبيّاً ، حصّنه الله وعصمه : ﴿ ورفعناهُ مكاناً عليّاً ﴾ وهي السماء الرابعة - قول لأنس رضي الله عنه . أو الجنة لاشيء أعلى منها - قول للحسن رضي الله عنه - .

كل ذلك منّةٌ منْه سبحانه وكرمٌ وتذكيرٌ للنبي ﷺ بتلك المنن الجسام .

وقال تعالى : ﴿ ولوطاً آتيناه حكماً وعلماً ونجّيناهُ من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوءٍ فاسقين ﴾ [سورة الأنبياء : ٧٤] ، فلوط عليه السلام آتاه الله حكماً ، وهو ما يجب فعله ، وعلماً وهي النبوة ، ونجاه الله من القرية التي كانت تعمل الخبائث ، وأدخله الجنة مستقرَّ رحمته ، ومستودع مغفرته ، إنه كان من الصالحين .

﴿ وذا النّون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أن لن نقدرَ عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين * فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ ، وكذلك نُنْجي المؤمنين * ﴾[1] [سورة الأنبياء : ٨٧ - ٨٨] . كتب الله النجاة ليونس من الظلمات كردّ فعلٍ لتسبيحه وتوبته واستغفاره ، فجزاه الله النجاة ، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، والجزاء من جنس العمل .

---

(١) ذكر الزمخشري في « الكشاف » أن الظلمات التي عاشها يونس عليه السلام هي ظلمة الليل ، والبحر ، وبطن الحوت ، إضافة إلى أن الحوت قد ابتلعه حوت أكبر منه .

أقول : وظلمة المعصية ، فضلاً عن بطن الحوت ، فهو قبر متحرك ولذا يضرب به المثل ، فيقال : ما القبر الذي سار بصاحبه - ويعنون به حوت يونس عليه السلام - .

ويتساءل الزمخشري في تفسيره : كيف يكون نبي ويظن أن لن يقدر عليه ؟ .

ويجيب : إن يونس كان يعلم قدرة الله عليه ، ولكن كان يجهل القضاء والقدر على معنى « إن الله سبحانه لن يعمل فيه قدرته لأنّه نبي » .

راجع : الكشاف - الجزء الثاني : ٥٨٢ .

ومن تنوّع الأسلوب إضافة معنى جديد :

والشيء الذي يلفت النظر فعلاً في القصص القرآنية أنها إذا تعرضت لمعنى من المعاني في موضع ،ثم تحدّثت عن القصة في موضع آخر ، فإنها لاتذكر ذلك المعنى فحسب ،بل تأتي بمعنى جديد لم يكن قد ذكر في القصة من قبل في الموضع الأول ، وهذه سمة غالبة على القصص القرآني ، فقصة إبراهيم جاءت في سورة البقرة في إطار الحديث عن موضوع رفع البيت ،قال تعالى : ﴿ وإذْ يرفعُ إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ربَّنا تقبَّل منّا إنك أنت السميع العليم ﴾ [سورة البقرة : ١٢٧] .

وفي سورة إبراهيم حديث عن موضوع إسكان ذريّة إبراهيم ،قال تعالى :﴿وإذْ قال إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا البلدَ آمناً واجنُبْني وبَنِيَّ أن نعبدَ الأصنام * ربِّ إنّهن أضلَلْن كثيراً من الناس ،فمن تبعني فإنه منّي ،ومن عصاني فإنك غفورٌ رحيمٌ * ربَّنا إني أسكنتُ من ذرّيتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرَّم ، ربَّنا ليُقيموا الصلاةَ ، فاجعل أفئدةً من النَاس تَهْوِي إليهم وارزقْهم من الثمرات لعلّهم يشكُرون ﴾ [سورة إبراهيم : ٣٥ ـ ٣٧] .

وفي سورة الأنعام حديث عن موضوع تأمّل إبراهيم لملكوت السماء والأرض قال تعالى : ﴿ وكذلك نُرِي إبراهيم ملكوتَ السموات والأرض وليكونَ من الموقنين * فلما جَنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال : هذا ربّي ، فلما أفل قال : لاأحبّ الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي ،فلما أفَل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونَنَّ من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغةً قال : هذا ربي هذا أكبر ،فلما أفلت قال : يا قوم إني بريءٌ مما تُشْركون * إني وُجَّهتُ وجهي للذي فطرَ السموات والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين * ﴾ [سورة الأنعام : ٧٥ ـ ٧٩] .

وفي سورة مريم نجده عن جانب محاورة إبراهيم لأبيه : ﴿ واذكُرْ في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبياً * إذ قال لأبيه : يا أبتِ لِمَ تعبدُ مالا يسمعُ ولا يبصر ولا يُغني عنك شيئاً * . . . قال :أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيمُ ؟ لئن لم تنتهِ لأرجُمَنَّكَ واهجُرْني مليّاً * قال : سلامٌ عليك سأستغفرُ لك ربّي إنّه كان بي حفيّاً ﴾ [سورة مريم : ٤١ ـ ٤٢ ، ٤٦ ـ ٤٧] .

وفي سورة الأنبياء حديث عن جانب تحطيم الأصنام ، قال تعالى : ﴿ وتالله لأكيدنَّ أصنامكُم بعد أن تُوَلُّوا مدبرين * فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلّهم إليه يرجعون * قالوا : من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا : سمعنا فتىً يذكرهم يُقال له إبراهيم * قالوا : فأتوا به على أعْيُنِ الناس لعلّهم يَشْهدون * قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال : بل فعله كبيرُهم هذا ،فاسألوهم إنْ كانُوا ينطِقُون ﴾ [سورة الأنبياء : ٥٧ ـ ٦٣] .

وفي سورة الشعراء حديث عن موضوع إسناد الخلق والرزق إلى المتصرف سبحانه : ﴿ الذي خَلَقني فهو يَهْدين * والذي هو يُطْعمني ويَسقِين * وإذا مرضتُ فهو يَشْفين * والذي يميتني ثُم يحيين * والذي أطمع أنْ يغفَر لي خطيئتي يومَ الدين * ﴾ [سورة الشعراء : ٧٨ ـ ٨٢] .

وفي سورة الصافات حديث عن الرؤيا المنامية : ﴿ فبشّرناه بغلامٍ حليم * فلمّا بلغ معه السعي قال :يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحُك فانظر ماذا ترى ؟ قال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين * فلما أسلماوتلّه للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين * ﴾ [سورة الصافات : ١٠١ ـ ١٠٥] .

وهكذا نجد أنّ كل سورة قد أضافت معنى جديداً لم يطرق في سورة أخرى ،بحيث لو تضامّت جميع الجزئيات في القصة في مختلف السور التي ذكرت فيها لأعطتنا صورة مكبّرة لجزئيات تفرقت في مواطنها لتسير على حسب

مقتضى الحال .

ولقد أعجب النقاد قديماً ،ومنهم ابن سنان الخفاجي [1] ، بالتكرار على شريطة أن يكون فيه ثراء معنى وإضافة جديد ،وهذا ينطبق تماماً على التكرار القرآني كما لمسنا في غير موضع بأن التكرار يعطي معنى جديداً ويضيف شيئاً لم يحك في قصة سابقة ،فالتكرار يشير إلى أمور قد تطلبها النفس ويبحث عنها القارىء للقصة ، حيث إن هناك بعض المعاني المجملة ، فيأتي التكرار ليوضح ما أجمل من المعاني ،وما أوجز من الأفكار ،وبهذا لا يكون التكرار في القرآن عبثاً ،وإنما هو هادف لزيادة الإيضاح ، وبسط ما استعصى فهمه ،وصعب مراده .

ومن تنوع الأسلوب أن القرآن يفسر نفسه من خلال قصصه :

ففي قصة لوط عليه السلام ورد قوله تعالى : ﴿ فأخذَتْهم الصيحةُ مُشرقِين ﴾ [سورة الحجر : ٧٣] ،وقوله : ﴿ إلا آلَ لوطٍ نَجَّيناهم بسحر ﴾ [سورة القمر : ٣٤] ،﴿ولقد صبَّحهم بكرة عذابٌ مستِقرّ ﴾ [سورة القمر : ٣٨] .

فقد فسّر المقصود بالإشراق ،والسحر ، والإصباح في الآيات المتقدمة قوله تعالى : ﴿ إنّ موعدَهُم الصبحُ ،أليس الصبحُ بقريبٍ ﴾ [سورة هود : ٨١] ، فتحدّد وقت العذاب وهو الصباح .

وقوله تعالى في قرية لوط سدوم : ﴿ وإنّها لبِسَبيلٍ مُقيم ﴾ [سورة الحجر : ٧٦] ،فسَّرتْها ﴿ وإنّكم لَتَمُرّون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [سورة الصافات : ١٣٧ ـ ١٣٨] ،فقد كانت عير قريش تمر بهذه المنطقة ،وهي البحر الميت ، في تجارتها في رحلتي الشتاء والصيف لو كانوا يعقلون ! ! .

---

(١) راجع : سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي : ١١٤ ـ ١١٩ ،طبعة ١٣٧٢ هـ ـ مطبعة محمد علي صبيح بميدان الأزهر ـ مصر .

وقوله تعالى : ﴿ لا تخَفْ ولا تحزَنْ إنا منّجوك وأهلَكَ إلا امرأتك كانت من الغابرين ﴾ [سورة العنكبوت : ٣٣] ، فَسَّرتها ﴿ فأخرجْنَا من كان فيها من المؤمنين فما وجَدْنا فيها غيرَ بيتٍ من المسلمين ﴾ [سورة الذاريات : ٣٥ ـ ٣٦] ، وهو بيت لوط عليه السلام ، عدا امرأته ،وإلا فالقرية كلّها فاجرة .

﴿ قالوا لقد عِلمتَ مالنا في بناتك من حقٍّ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ [سورة هود : ٧٩] ، فسّرها : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشةَ ما سبقكم بها من أحدٍ من العالَمين * أئنّكم لتأتون الرجالَ شهوةً من دون النساء ، بل أنتم قومٌ مسرفون ﴾ [سورة الأعراف : ٨٠ ـ ٨١] .

وفي قصة شعيب عليه السلام : ﴿ وإنْ كانَ أصحاب الأيكة لَظَالمين * فانتقَمْنا منهم وإنّهما لَبِإمامٍ مبين * ﴾ [سورة الحجر : ٧٨ ـ ٧٩] . فسَّرتها : ﴿ وإلى مدينَ أخاهم شعيباً ، قال : يا قومِ اعبدُوا الله ما لكُم من إلهٍ غيرُه قد جاءتكم بيِّنةٌ من ربكم ، فأوفُوا الكيلَ والميزانَ ولا تبخسوا الناسَ أشياءهم ولا تُفْسِدوا في الأرضِ بعدَ إصلاحِها ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [سورة الأعراف : ٨٥] .

فإذن الظلم الذي أتاه أصحاب الأيكة هو التطفيف في المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم والإفسادُفي الأرض بعدَ إصلاحِها ، والكفر ،وهل بعد الكفر ذنب ؟ .

وقوله تعالى :﴿قال الملأُ الذين استكبروا من قومه لَنُخْرِجنَّك يا شُعيب والذين آمنوا معكَ من قريتنا أو لتعودُن في مِلَّتنا قال : أوَ لَو كُنّا كارهين ﴾ [سورة الأعراف : ٨٨] .

جاء في سورة هود تعليل وتفسير للتحامل على شعيب والعزم على إخراجه :﴿قالوا: يا شعيبُ أصلاتُكَ تأمركَ أن نتركَ ما يعبدُ آباؤنا أو أنْ نفعلَ في أموالنا ما نشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد . . . قالوا : يا شعيب ما

نَفْقَه كثيراً ممّا تقول ،وإنّا لنراك فينا ضعيفاً ،ولولا رهطُكَ لرجَمْنَاك وما أنت علينا بعزيزٍ ﴾ [1] [سورة هود : ٨٧ ـ ٩١] ، فهنا قد ظهر الدافع الذي حملهم على مهاجمة شعيب ومن تبعه ،والإصرار على إخراجه من قريتهم ،لأنه منعهم من التطفيف ، وأمرهم بإيفاء المكيل والموزون .

وفي قصة هود عليه السلام ،قوله تعالى :﴿إن نقول : إلا اعتراك بعضُ آلهتنا بسوءٍ ﴾ [سورة هود : ٥٤] ، فسَّرتها ﴿ إنّا لنراك في سفاهةٍ وإنا لنظنُّك من الكاذِبين ﴾ [سورة الأعراف : ٦٦] ، فقد رموه بالسفاهة وهي الجنون ، وعادوا مرة أخرى يؤكدون هذا المعنى ، فلولم تتقدم آية السفاهة في سورة الأعراف ،من أين كان لنا أن نعرف بما اعتراه بعض آلهتهم على حسب زعمهم في سورة هود ؟

ومن ذلك موقف قومه منه ، وموقفه من قومه ،ففي سورة الأعراف : ﴿ قالَ الملأ الذين كفروا من قومه :إنّا لنراك في سفاهة ، وإنا لنظنُّك من الكاذبين ﴾ [سورة الأعراف : ٦٦] .

وفي سورة هود :﴿قالوا: يا هود ما جئتَنا ببيِّنة وما نحن بتاركي آلهتِنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾ [سورة هود : ٥٣] .

ففسّروا المقصود بالسفاهة وهي النزغ والجنون بعدم مجيئه لهم ببينة دالّة على صدقه .

وقد ردّ عليهم هود عليه السلام في سورة الأعراف بقوله : ﴿ قال : يا قوم ليس بي سفاهة ولكنّي رسول من ربّ العالمين * أبلّغكم رسالاتِ ربي وأنا لكم ناصحٌ أمين * أَوَعجبتم أنْ جاءكُم ذِكْرٌ من ربّكم على رجلٍ منكم

---

(١) «ذكره الثوري بأنه كان ضعيف البصر وكان يسمى خطيب الأنبياء» . راجع ابن كثير :٢٥٧ الجزء الثاني .

بعزيز :ليس لك عندنا معزة وليس ما يجعلنا نتمسك بك .

لِيُنْذِرَكُم واذكروا إذ جعلَكم خلفاءَ من بعدِ نوحٍ وزادكم في الخلقِ بسطةَ فاذكروا آلاء الله لعلّكم تُفْلِحون ﴾ [سورة الأعراف : ٦٧ - ٦٩] .

وفي سورة هود :﴿قال : إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تُنْظِرون * إني توكلّت على الله ربّي وربِّكم ما من دابَّةٍ إلا هو آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراطٍ مستقيم ﴾ [سورة هود : ٥٤ - ٥٦] .

ففي السورة الأولى أثبت لنفسه الرسالة ونفى عنها السفاهة ، وفي الثانية أوكل أمره إلى الله في نجاح دعوته ،وأكّد المعنى الذي قصد إليه في الأولى ، وهو نفي السفاهة بقوله : ﴿ فكيدوني جميعاً ثُمّ لا تُنْظِرون ﴾ .

وفي قصة إبراهيم قال تعالى :﴿قالُوا ابنُوا له بُنْياناً فألْقُوه في الجحيم * فأرادُوا به كيداً فجعلناهم الأسفَلين ﴾ [سورة الصافات : ٩٧ - ٩٨] . فسّرها قوله تعالى : ﴿ فما كانَ جوابَ قومِه إلّا أن قالوا اقتُلوه أو حرِّقوه فأنجاه الله من النار ،إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون ﴾ [سورة العنكبوت : ٢٤] .

وقوله تعالى : ﴿ ولَقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوّة والكتاب فمنهم مهتدٍ وكثير منهم فاسقون ﴾ [سورة الحديد : ٢٦] . فسّرها في سورة العنكبوت : وَوَهبنا له إسحاق ويعقوبَ وجعَلْنا في ذرِّيَّته النبوَّة والكتاب وآتيناه أجْرَهُ في الدنيا وإنه في الآخرة لَمِنَ الصالحين ﴾ [سورة العنكبوت : ٢٧] .

ففي الآية الأولى إخبار من المولى ، عز وجل ، بإرسال نوح وإبراهيم وجعل في ذرّيتهما النبوّة والكتاب ،جاءت الآية الثانية فأوضحت هذه الذريّة والنبوة فيها والكتاب ﴿ وَوَهبنا له إسحاقَ ويعقوبَ وكلًّا جعَلْنا نبيّاً ﴾ [1] [سورة مريم : ٤٩] .

(١) يقول ابن كثير : أما الخليل ،عليه السلام ، فلم يبعث الله عز وجلّ نبياً إلا من ذريّته ، =

ومن ذريّة يعقوب يوسف وإخوته الأسباط ، ثم موسى وهو من سبط لاوي بن يعقوب ،ومن ذريّته عيسى ،ولوط بن هاران ابن أخي إبراهيم وإسماعيل بن إبراهيم وهو جد المصطفى ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ قد كانت لكُم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم : إنّا بُرَءاء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبَدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربّنا عليك توكلّنا وإليك أنَبْنا وإليك المصير﴾ [سورة الممتحنة : ٤] .

﴿ ربّنا اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقومُ الحساب ﴾ [سورة إبراهيم : ٤١] .

﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ [سورة الشعراء : ٨٦] .

﴿ قال : سلامٌ عليك سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حفيّاً ﴾ [سورة مريم : ٤٧] .

كلّ هذه الآيات تثير سؤالاً :كيف يستغفر لأبيه وهو يعلم أنه كافر ،والكافر لا يجوز الاستغفار له ،والترحّم عليه ؟ وهذا السؤال إنما يدور بخلد من قرأ الآيات من غير استقصاء ، ويزداد حَيرة حين يسمع قول الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ بشأن المنافقين : ﴿ استغفرْ لهم أولا تستغفرْ لهم إنْ تستغفر لهم سبعين مرّةً فلن يغفرَ الله لهم ،ذلك بأنهم كفروا بالله ورسولِهِ ،والله لا يهدي القومَ الفاسقين ﴾ [سورة التوبة : ٨٠] .

ولكن تزول الحيرة ويذهب الاستفهام أباديد حين يسمع قوله تعالى : ﴿ وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيهِ إلّا عن مَوْعِدَةٍ وعدَها إياه ، فلمّا تبيّنَ له أنه

= وإبراهيم من ذريّة نوح ،فإن المولى عزّ وجل لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن ،وهم الذين صحبوه في السفينة ، جعل الله ذريّته هم الباقين ،فالناس كلّهم من ذريّته » .
راجع : ابن كثير ـ المجلد الثاني : ١٥٤ .

عدوٌّ لله تبرّأ منه ،إن إبراهيمَ لأوّاهٌ حليم ﴾ [سورة التوبة : ١١٤] .

فقد فسّرت هذه الآية الإشكال ،وأزالت الإبهام الوارد في الآيات المتقدّمة ،فما القصص القرآني في تكراره إلا مفسّراً وشارحاً بعضه بعضاً .

وهكذا نرى أن القصة ما تكرر إلا لفائدة خلت عنها في موضع آخر ، فكان التكرار أمراً يطلبه المعنى ويقتضيه الموقف القرآني .

ولعل ما ذكره الزركشي [1] يؤكد هذا المعنى الذي وصلت إليه فيقول : ذكر الله عز وجل موسى في القرآن في مائة وعشرين موضعاً ،ونوحاً في خمسة وعشرين موضعاً ، وذلك لأن التكرار القرآني إنما يكون من أجل أن تحدث الفائدة في موضع خلت عنه في الموضع الآخر ،ويذكر أن القصة القرآنية إذا كرّرت زاد فيها شيء ،فالله عز وجل حينما ذكر الحيّة في عصا موسى ،ذكرها في موضع آخر ثعباناً ،وهكذا كانت أسرار التكرار في القصة القرآنية تلوح لكثير من الباحثين الذين تعمقوا في فهم القرآن الكريم ،والوصول إلى أهدافه السامية .

ومن تنوع الأسلوب اختلاف القصّة في عرضها :

فتارة تقدم نهاية من نهايات القصة على عنصر البداية أو على النقطة الأولى من نقاط القصة ،وذلك لبيان أن هذا العنصر المقدم هو محور الحديث والركن الأساسي في القصة ،من ذلك قصة موسى عليه السلام وردت في سورة طه ،والقصص ، والشعراء ،وغيرها ، ولكنها في سورة طه قدّم فيها ذكر النهاية ،ثم بدأ الباريء سبحانه في سرد بقية القصة : ﴿ وهَلْ أتاك حديثُ موسى * إذ رأى ناراً فقال لأهله : امكثُوا إنّي آنست ناراً لعلّي آتيكم منها بقَبسٍ أو أَجِدُ على النار هدىً * فلمّا أتاها نُوديَ يا موسى * إنّي أَنا ربُّك فاخلَعْ نعلَيْك إنّك بالوادي المقدَّس طُوىً * . . . ولقد مننّا عليك مرّة

(١) راجع : البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٢٥ ـ ٢٦ ، المجلد الثالث ـ الطبعة الثانية ـ الناشر : دار المعرفة ـ بيروت .

أخرى * إذ أوحينا إلى أمك ما يُوحى * أنِ اقذِفيه في التابوتِ فاقذفيه في اليمِّ فَلْيُلْقِهِ اليمُّ بالساحلِ يأخُذْهُ عدوٌّ لي وعدوٌّ له * وألقيتُ عليك محبّة مني وَلِتُصْنَع على عيني ﴾ [سورة طه : ٩ـ١٢ ، ٣٧ـ٣٩] .

وتارةً يبدأ القصّة من بدايتها هكذا : وأوحينا إلى أمّ موسى أن أرضِعيه ، فإذا خفتِ عليه فألقيهِ في اليمِّ ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادُّوه إليكِ وجاعِلُوه من المرسلين * فالتقطَه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدوّاً وحَزَناً ، إنّ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما كانوا خاطئين * وقالت امرأةُ فرعونَ قُرَّةُ عينٍ لي ولك لا تقْتُلوهُ عسى أن ينفَعنا أو نتَّخِذه ولداً وهم لا يشْعُرون * وأصبح فؤادُ أمِّ موسى فارغاً إن كادَت لَتُبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكونَ من المؤمنين * وقالت لأخته : قُصِّيه ، فبَصُرَت به عن جنُب وهم لا يشعرون ﴾ [سورة القصص : ٧ـ١١] .

ثم تحدث بعد ذلك عن بعثة موسى فقال :﴿فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله ﴾ [سورة القصص : ٢٩] ، وذلك لأن سورة طه مطلعها يدلّ على أن بعثة الرسول ﷺ ،وإنزال القرآن عليه من الأهمية بمكان ،فهي سر الحديث ومناط الاعتزاز ،كما هو واضح في قوله تعالى : ﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ [سورة طه : ١ـ٢] ، فمن التوافق بمكان أن يبدأالقصة ببعثة موسى ومناداته حتى يتلاءم الكلام القرآني ،ولو لم تكن هي بداية الحدث القصصي بترتيبه الزمني .

أما في سورة القصص ،فمن المناسب أن تعرض القصة الموسوية مرتبّة أحداثها ترتيباً زمنياً ،حيث إن عنوان السورة يوحي بأنها ما كانت إلا لتخبر عن نبأ من الأنباء له ماله من العبرة البالغة ، والمدلولات التي من ورائها الأسرار الكامنة في هذه الرعاية الإلهية التي ظللت موسى عليه السلام ،حتى منَّ الله عليه بهباته ،وأفاض عليه من واسع عطائه ،في الوقت الذي دحر فيه أهل الصّلَف والطغيان .

لقد أجلت السورة القصة الموسوية من بدايتها إلى نهايتها ،حتى تمّ التسلسل الفكري بين أحداثها ،وبذلك انكشفت جوانبها ،ولاحت جزئياّتها متناسقة محكمة .

ولقد أبان الحقّ ،عزّ وجل ،في مطلع السورة عن الغاية من تلاوة تلك الأحداث ،فقال عزّ من قائل : ﴿ طسم * تلك آياتُ الكتابِ المبين * نتلُو عليك من نبأ موسى وفرعونَ بالحقِّ لقومٍ يؤمنون ﴾ [سورة القصص : ١ - ٣] .

وقصة آدم عليه السلام فيها تقديم ذكر العاقبة : ﴿ ولقد عهِدنا إلى آدم من قبلُ فنسيَ ولم نجد له عزماً ﴾ [سورة طه : ١١٥] ، ثم يستمر عرض السورة هكذا : وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدمُ إنّ هذا عدوٌّ لك ولزوجك فلا يُخْرِجَنَّكُما من الجنة فتشقَى * إنّ لك ألاّ تجوعَ فيها ولا تَعْرى * وأنّك لا تظمؤُ فيها ولا تَضْحى * فوسوس إليه الشيطان قال : يا آدمُ هل أدلُّك على شجرةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يَبْلى * فأكلا منها فبدَت لهما سؤاتهما ،وطفِقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ،وعصى آدم ربَّه فغَوى * ثم اجتباه ربُّه فتابَ عليه وهدى ﴾ [سورة طه : ١١٦ - ١٢٢] .

وذلك على النقيض مما ورد في سورة الأعراف : ﴿ ويا آدمُ اسكنْ أنت وزوجُك الجنّة فكُلاَ من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطانُ ليُبْدِي لهما ما وُوري عنهما من سَوْءاتِهماوقال : ما نهاكما ربُّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلاّهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهُما سوءاتُهما وطَفِقا يخصِفان عليهما من ورقِ الجنة ، وناداهما ربُّهما : ألم أنْهَكُما عن تِلْكما الشجرة وأقُلْ لكما : إن الشيطان لكما عدوٌّ مبين * قالا : ربَّنا ظلَمْنا أنفسَنا وإنْ لم تغفر لنا وترحَمْنا لنكونَنَّ من الخاسرين ﴾ [سورة

الأعراف : ١٩ ـ ٢٣] .

وقصة آدم كما جاءت على طريق الحوار كما في سورة الأعراف : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدُوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال : ما منعك ألّا تسجدَ إذ أمرتُك ؟ قال : أنا خيرٌ منه ، خلقتني من نارٍ وخلقتَه من طين * قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبَّر فيها فاخرج إنك من الصاغرين * قال : أَنْظِرني إلى يوم يُبْعثون * قال : إنّك من الـمُنْظَرين * قال : فبِما أغوَيْتَني لأقعُدَنَّ لهم صراطَكَ المستقيمَ * ثمَّ لآتيَنَّهُمْ من بينِ أيديهم ومن خَلْفِهم وعن أيمانِهم وعن شَمائلهم ولا تَجِدُ أكثَرَهم شاكرين * قال : اخرجْ منها مذءوماً مدحوراً لَمَنْ تبِعَكَ منهم لأملأنَّ جهنَّم منكُم أجمعين ﴾ [سورة الأعراف : ١١ ـ ١٨] .

فقد وردت عن طريق السرد مع شيء من التفصيل ، كما في سورة البقرة : ﴿ وإذْ قال ربُّك للملائكة : إني جاعلٌ في الأرض خليفةً قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحنُ نسبِّح بحمدك ونقدس لك قال : إني أعلم مالا تعملون * وعلّم آدم الأسماء كلَّها ثم عرضَهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماءِ هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا : سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال : يا آدمُ أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال : ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون * وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ [سورة البقرة : ٣٠ ـ ٣٤] .

* * *

البَابُ الثالث

مَلَامِحُ ٱلقِصَّةِ ٱلقُرْآنِيَّةِ

الفصل الأول :

عنصر التشويق .

الفصل الثاني :

رسم الشخصيّة القرآنيّة وحيويّتها .

الفصل الثالث :

أحداث القصّة القرآنيّة من حيث ترابطها وواقعيتها .

الفصل الرابع :

ما تهدف إليه القصّة من قيم ومعالجة إنسانية .

الفصل الأول
عنصر التشويق

هذا ومن خصائص القصة الفنية القرآنية تنّوع طريق المفاجأة وذلك إما :

١ ـ بأن يكتم السرّ عن البطل والنظاره حتى يكشف لهم في آن واحد .

٢ ـ وإما بأن يكتم السرّ عن أبطال القصّة في حين يكشف للنظارة .

٣ ـ وإما بأن يكشف بعض السرّ للنظارة وهو خافٍ عن البطل في موضع ،وخافٍ عن النظارة وعن البطل في موضع آخر في القصة الواحدة .

٤ ـ وإما أن لايكون هناك سرّ بل يفاجأ البطل والنظارة بالموضوع دفعة واحدة من غير ترقّب وانتظار .

فمن الأول وهو ما جاء فيه السرّ خافياً عن البطل والنظّارة حتى يكشف لهم معاً قصة موسى عليه السلام ،بعد أن غادر مَدْين مع أهله ،وكانت ليلةً شاتية مطيرة ،فقدح موسى زَنْده فأصلد ،هنالك حانت التفاتة منه إلى الأفق فأبصر ناراً تتراءى ،فأسرع إليها قائلاً لأهله : ﴿ امكثُوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبسٍ أو أجدُ على النار هُدىً ﴾ [سورة طه : ١٠] .

ويفزع موسى إلى النار ،فيجدها تمتدّ نوراً في شجرة عناب ،وهنا يعتريه الذهول ،نوراً يمتدّ ويرتفع إلى العنان بدون أن يكون له دخان [١] .

وهنا يبدأ السرّ في التجلّي لموسى عليه السلام وللنظارة حين نسمع مع

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ المجلد الأول : ١٠٠ ـ الطبعة الثانية .

موسى تلك المناداة من رب العزّة والجلال ﴿ إني أنا ربّك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدّس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبُدْني وأقمِ الصلاة لِذكري * إنّ الساعةَ آتيةٌ أكاد أخفيها لتُجزى كلُّ نفسٍ بما تسعى * فلا يَصُدَّنَّكَ عنها من لايؤمن بها واتَّبع هواه فَتَرْدَى ﴾ [سورة طه : ١٢ - ١٦] .

فالسرُّ الذي استكان في النار قد خفِي علينا كما خفي على بطل القصة كليم الله حتى تجلّى في ملِك الملوك ،وكانت ليلة من أسعد ليالي العمر لكليم الله ،حيث تشرّف بمخاطبة البارىء عز وجل ،وحيث تشرف بالنبوة والرسالة .

وإما أن يكتم السر عن أبطال القصة في حين يكشف للنظارة فمثاله :

قصة الخليل ،عليه السلام ، في تحطيمه للأصنام ،فإنها معلومة للسامعين ،بينما أبطال القصة الحقيقيين يجهلونها ،قال تعالى على لسان خليله : ﴿ وتالله لأكيدَنَّ أصنامكم بعد أن تُوَلُّوا مدبرين * فجعلهم جُذاذاً إلا كبيراً لهم لعلَّهم إليه يرجعون ﴾ [سورة الأنبياء : ٥٧ - ٥٨] ، فقد علمنا الفاعل بينما قوم إبراهيم يجهلونه ﴿ قالوا : من فعلَ هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ فهم يجهلونه . . .

وأصحاب الجنة ﴿ إذ أقسموا لَيَصْرِمُنَّها مصبحين *ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربّك وهم نائمون * فأصبحت كالصريم ﴾ ،فبينما نحن نعلم هذا كان أصحاب الجنة يجهلونه .

﴿ فتنادوا مُصبِحين * أن اغْدُوا على حرثِكم إنْ كنتم صارِمين * فانطَلَقوا وهم يتخافَتُون *ألّا يدخُلَنَّها اليومَ عليكم مسكين * وغدَوا على حَرْدٍ قادرين ﴾ [سورة القلم : ٢١ - ٢٥] ، وقد ظللنا نحن النظّارة ،نسخر منهم وهم يتنادون ويتخافتون ،والجنة خاوية كالصريم ، حتى انكشف لهم السر أخيراً بعد أن شبعنا تهكّماً وسخرية ﴿ قالوا إنّا لضالّون

بل نحن محرومون ﴾ ! وذلك جزاء من يحرم المساكين[1] .

ومنه في مقام العظة والاعتبار قصة الذي مرّ على قرية ﴿ أو كالذي مرّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها ، قال : أنّى يحيي هذه الله بعدَ موتها ؟ ! فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال : كم لبثت ﴾ ؟ .

فبينما نحن نعلم مدة موته ،كان يجهل ذلك حتى قال : لبثتُ يوماً أو بعض يوم ﴾ يظنّ نفسه نائماً ﴿ قال : بل لبثت مائة عامٍ فانظر إلى طعامك وشرابِك لم يَتَسنَّهْ وانظر إلى حمارك ولِنَجْعَلَك آية للناس ،وانظر إلى العظام كيف نُنْشزها ثم نكسوها لحماً ، فلمّا تبينّ له قال :أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير ﴾ [2] [سورة البقرة : ٢٥٩] .

وأهل الكهف وقيامهم بعد ثلاثمائة سنة وتسع ،وعودتهم إلى المدينة لشراء الطعام وهم لا يعرفون حقيقة أمرهم ،فلقد ظنوا أنهم ناموا لحظة من اللحظات ،أما السامعون للقصة فمعروف عندهم أنهم ناموا ثلاثمائة وازدادوا تسعاً ، وعلى ذلك فالوضع في المدينة قد تغيّر وتبدّل ،قال تعالى : ﴿ أم حسبتَ أنّ أصحابَ الكهفِ والرقيمِ كانوا من آياتنا عجباً * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا :ربَّنا آتنا من لَدُنْك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً * فضربناعلى آذانهم في الكهف سنين عدداً * ثم بعثناهم لنعلم أيُّ الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً * نحن نقصّ عليك نبأهم بالحقّ إنهم فتيةٌ آمنوا بربّهم وزدناهم هدىً ﴾ [سورة الكهف : ٩ ـ ١٣] .

---

(١) راجع التصوير الفني في القرآن ـ لسيد قطب ـ الطبعة السادسة : ص ١٥١ .

(٢) وأما صاحب القرية ، فقد ذكر ابن كثير في تفسيره بأنه عزير ، والرواية لعلي بن أبي طالب .

لم يتسنه : لم يتغير .

ننشزها : نحييها .

راجع : تفسير ابن كثير ـ المجلد الأول : ٣١٤ .

وأما ما كشف فيه بعض السر للنظارة :

فمثاله عرش بلقيس الذي جيء به في غمضة عين ،وعرفنا نحن أنه بين يدي سليمان ، في حين أن بلقيس ظلت تجهل ما نعلم ،فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو !

فهذه مفاجأة عرفنا نحن سرّها سلفاً ،ولكن المفاجأة الصرح الممرد من قوارير ،ظلّت خافية علينا وعليها حتى فوجئنا بسرها معاً ،حينما ﴿ قيل لها : ادخلي الصرح ،فلما رأته حسبته لجَّةً وكشفت عن ساقيها ،قال : إنه صرح ممرَّد من قوارير ﴾ [سورة النمل : ٤٤] .

وقصة موسى عليه السلام وتربيته في بيت فرعون فهو معلوم للنظارة مجهول لأم موسى ،لأنها وضعته في التابوت ولا تعلم أين يستقر ، بينما قد علمنا مسير التابوت إلى بيت فرعون ﴿ فالتقطَه آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدواً وحزَناً ﴾ [سورة القصص : ٨] .

ولم تعلم أم موسى به إلا بعد أن ذهبت أخته تقصّه ،وبعد أن حرّم الله عليه المراضع تحقيقاً لما وعد الله به أم موسى .

أما حقيقة الردّ فذاك أمر خاف علينا نحن النظارة ،وعلى البطل التي هي أمّ موسى ، على معنى كيف سيرجع إليها ؟ هل سيرجع في التابوت ؟ أم على يد شخص يحمله ؟ ، وهل سيعود شاباً أم شيخاً ؟وهل عودته في وقت قريب أم بعيد ؟ .

لأن الربّ أخبرها بعودته ولكن على أي شاكلة ،فهذا ما تجهله هي ونحن قال تعالى : ﴿ إنّا رادُّوه إليك وجاعلُوه من المرسلين ﴾ [سورة القصص : ٧] .

ثم عاد إليها عن طريق المراضِع بعد أن امتنع عن قبول أيِّ ثدي حتى دلَّتهم أخته على أمه ﴿ فردَدْناه إلى أمه كي تقرَّ عينُها ولا تحزَنَ ﴾ [سورة القصص : ١٣] .

وإما أن لا يكون هناك سرّ ، بل يفاجأ البطل والنظارة بالموضوع دفعة بدون سرية فمثاله : قصة نبي الله يونس حينما ركب في السفينة ، واستهم أهلها ، لم يكن يدُر بخلده ولا النظارة أن السهم سيقع عليه ، ومن ثم فوجئنا وإيّاه بذلك ﴿ فساهم فكان من المُدْحَضين ﴾ [سورة الصافات : ١٤١] .

ونبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب فلم يكن داود ليعلم أن هؤلاء الخصم ملكين كريمين جاءا لمعاتبته ، وكذا النظّارة مما هو ظاهر الآيات الكريمات : ﴿ وهل أتاكَ نبأُ الخصم إذ تسوَّروا المحراب * إذ دخلوا على داود ففزِع منهم قالوا : لا تخف خصمان بغى بعضُنا على بعض فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشْطِطْ واهدِنا إلى سواءِ الصراط * إن هذا أخي له تسعٌ وتسعون نعجةً ولي نعجةٌ واحدة فقال : أكفِلنيها وعزّني في الخطاب * قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضُهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هم ﴾ [سورة ص : ٢١ - ٢٥] .

ثم اتضح الموقف وانجلى الأمر فتبين أن هؤلاء رسل ربه ما جاءوا إلا ليقرّروا حقيقة من الحقائق كانت غائبة عنه ، وما كان لنبيّ من أنبياء الله أن يقع فيها : ﴿ وظنّ داود أنّما فَتنّاه فاستغفر ربَّه وخرَّ راكعاً وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزُلْفى وحسنَ مآب ﴾ .

ومفاجآت قصة السيدة مريم البتول حين اتخذت من دون أهلها حجاباً فتُفاجأ بالروح الأمين في هيئة رجل فتقول : إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ، نعم إننا عرفنا قبلها بلحظة أنه الروح ، ولكن الموقف لم يطل فقد أخبرها بذلك قائلاً : ﴿ إنّما أنا رسولُ ربِّك لأهَب لك غلاماً زكيّاً ﴾ ! .

وقد فوجئنا كذلك معها إذ جاءها المخاض إلى جذع النخلة ﴿ قالت يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نَسْياً منسيّاً ، فناداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربُّك تحتكِ سريّاً ﴾ [سورة مريم : ٢٣ - ٢٤] .

وقصة ابني آدم : ﴿ إذ قرَّبا قربانا فتُقبِّل من أحدهما ولم يُتَقبَّلْ من الآخر ،قالَ : لأقْتُلَنَّكَ ﴾ فيتوعَّده بالقتل ولكنه يعرض عنه مفوضاً أمره إلى الله ﴿ لئنْ بسطت إليّ يدك لتقتُلَني ما أنا بباسطٍ يديَ إليك لأقتُلَك ﴾ .

ونفاجأ بقابيل وهو يقتل أخاه هابيل ﴿ فطَوَّعتْ له نفسُه قتلَ أخيه فقتلَه فأصبح من الخاسرين ﴾ ،ونفاجأ مرّة أخرى بالغراب وهو يبحث في الأرض ليريَه كيف يواري سوأة أخيه ﴿ قالَ : يا ويلتَى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأةَ أخي ،فأصبحَ من النادمين ﴾ [سورة المائدة : ٢٧ ـ ٣١] .

وفي موقف موسى مع السحرة قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم مُلْقُون ! ونفاجأمع موسى بالسحرة يُلقون حبالَهم وعصيّهم ،فإذا هي ﴿ يخيَّلُ إليه من سحرِهم أنّها تسعى ﴾ .

ونفاجأ مرة أخرى بموسى يلقي عصاه ﴿ فإذا هي تلقَفُ ما يأفِكون ﴾ [سورة الأعراف : ١١٧] . وثالثة بالسحرة يلقون سجداً ﴿ فأُلقيَ السحرةُ سجّداً قالوا : آمنّا بربِّ هارون وموسى ﴾ [سورة طه : ٧٠] .

والهدهد في مملكة سليمان فقد تفقده سليمان يوماً فلم يجده ،فأقسم ليوقعن به أو يأتي بعذر واضح مقبول ﴿ وتفَقَّدَ الطيرَ فقال : ما ليَ لاأرى الهدهد أم كانَ من الغائبين * لأعذِّبَنّه عذاباً شديداً أو لأذبَحَنّه أو ليأتِيَني بسلطان مبين ﴾ .

ويظهر الهدهد فجأة ليقول في لهجة المنتصر مخاطباً نبيَّ الله سليمان عليه السلام : ﴿ أحطتُ بما لم تُحطْ به ﴾ ويتجلى هذا الاكتشاف في امرأة تملك أرضاً بجوار سليمان ، وتعبد الشمس ﴿ وجئتُكَ من سبأٍ بنبأٍ يقين * إني وجدتُ امرأةً تملكهم وأوتيت من كلّ شيء ولها عرش عظيم * وجدتُها وقومَها يسجدون للشمس من دون الله ،وزيَّن لهم الشيطانُ أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لايهتدون ﴾ [سورة النمل : ٢٢ ـ ٢٤] .

ومن السمات البارزة في القصص القرآني أنها مشعل تشويق ، ومنارة تعطش حتى لمسنا فيها طرائف متعددة من ألوان إثارة السامع والقارىء .

فتارة نرى أن العقدة حينما يشتد أوارها حتى تحار النفس في حقيقتها يأتي الحل الذي يزيل معجمها ،ويدفع خفاياها .

وهناك ما تتوالى فيها العقد على أن تُحلَّ كلُّ جزئيّة منها أوّلاً بأوّل ، وقد نرى عكس ذلك ، فنرى توالي العقد وتشابكها على أن تؤجل حلولها إلى نهاية سردها فتأتي مجتمعة دفعة واحدة وذلك كقصة موسى مع العبد الصالح في سورة الكهف ،جاءت فيها العقد مجتمعة ،وجاءت عقب ذلك حلولها دفعة واحدة ،فموسى يلتقي مع العبد الصالح وركبان السفينة فيقوم الرجل الصالح بخرقها ، وتعتري الدهشة موسى والسامعون لماذا أقدم الرجل على هذا العمل ؟ وهل يعقل ما يفعل ؟ والسفينة سوف تغرق ؟ ! ﴿ أخَرَقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمراً ﴾ ؟ [سورة الكهف : ٧١] .

ثم يقتل الغلام ، وهذا أمر أشدّ إثارة من الأول ! ﴿ أقتلتَ نفساً زكيّة بغير نفسٍ ، لقد جئت شيئاً نُكراً ﴾ ؟ [سورة الكهف : ٧٤] .

وفي إصلاح الجدار ﴿ لو شئتَ لاتّخذتَ عليه أجراً ﴾ ؟ ! [سورة الكهف : ٧٧] .

إن موسى والسامعين في منتهى الشوق لمعرفة حل هذه العقد الثلاث ، ويأتي الحلّ : ﴿ أمّا السفينةُ فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كلَّ سفينةٍ غصباً ﴾ [سورة الكهف : ٧٩][1] .

---

(١) القصة في سورة الكهف يقال : إن الرجل الصالح قال لموسى : يا موسى لاتَلُمْ فتلام ،لمتني على خرق السفينة ، وخشيت على أهلها الغرق ،ونسيت حين وضعتك أمك في التابوت ،وألقتك في اليّم ولم تخش عليك الغرق ؟ !

﴿ وأمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾ [سورة الكهف : ٨٠] [(١)] .

﴿ وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة ،وكان تحته كنزٌ لهما ، وكان أبوهما صالحاً ، فأرادَ ربك أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري ،ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ [سورة الكهف : ٨٢] [(٢)] .

وأما القصة التي يأتي فيها الحلّ عقب العقدة ،وتتوالى فيها العقد يعقبها الحلول ، فقصة موسى منذ ولادته [(٣)] إلى حين بعثته ، إذ تشتمل على العقد التالية :

١ ـ وضعه في التابوت .
٢ ـ قتل النفس .
٣ ـ سقيه لابنتي شعيب .
٤ ـ موقفه من السحرة .
٥ ـ النهاية العامة للقصة ، وكل عقدة يعقبها حلّ فهي تحلّ أولاً بأول .

فأما العقدة الأولى فحينما تؤمر أمه بوضعه في التابوت وقذفه في اليّم ، ويبدو الإيهام في طريقة الرد؟ كيف سيكون؟ ومتى ؟ وأين ؟ .

ويظلّ المتفرجون في حيرة من كلّ هذا ،وفجأة يظهر التابوت على الساحل أمام بيت فرعون : ﴿ فالتقطَهُ آل فرعون ﴾ .

---

(١) لمتني على قتل الغلام ،ونسيت حين قتلت القبطي ؟ ! وأصبحت في المدينة خائفاً تترقب ؟ !

(٢) ولمتني على إصلاح الجدار ،ونسيت حين سقيت لابنتي شعيب بدون أجر يا موسى ، لاتلم فتلام .

(٣) راجع : سورة القصص .

وماذا سيكون مصيره ؟ هل سيقتله ؟ أم يبقيه ؟ ﴿وقالت امرأة فرعون : قُرّةُ عينٍ لي ولك لاتقتُلُوه ﴾ .

وفي قتله للقبطي وهو من شيعة فرعون : ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ .

يا ترى ماذا سيصنع فرعون بموسى ؟ وما سيصنع موسى ؟
أمّا من جانب فرعون فالملأ يأتمرون به ، وأمّا من جانب موسى فقد فرّ إلى مدين ﴿ فخرجَ منها خائفاً يترقَّبُ ﴾ .

ولما توجه تلقاء مدين ،وقدّم خدماته لابنتَي شعيب ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظلّ ، ما نوع المكافأة التي سيقدّمانها له ؟
﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ، قالت : إن أبي يدعوك ليجزيَكَ أجر ما سقيتَ لنا . . . قال : إني أريدُ أن أُنْكِحَكَ إحدى ابنتَيَّ هاتين ﴾ [سورة القصص : ٢٥ ـ ٢٧] .

ويرحل بأهله بعد انقضاء الأجل ويلتقي برب العزة والجلال من جانب الطور ،ويبعثه إلى فرعون الذي فرّ منه ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ .

فبماذا يا ترى سيقابله فرعون ؟ وهل سيؤاخذه بقتل النفس ؟ وبماذا سيواجه دعوته ويرد عليه ؟

﴿ قال : ألم نُربِّك فينا وليداً ؟ ولبثتَ فينا من عمرك سنين ؟ * وفعلت فعلتك التي فعلت ؟ ﴾ [سورة الشعراء : ١٨ ـ ١٩] .

وهكذا نجد أن فرعون قد امتن على موسى وأنّبه على قتل النفس ،ولكنه لم يوقع به ، بل ظلّ يطارحه ﴿ وما ربُّ العالمين ﴾ ؟ . . . الخ .

ويلتقي موسى بالسحرة في يوم مشهود ﴿ يوم الزينة وأن يُحْشَرَ الناس ضحىً ﴾ [1] .

فهل يا ترى ماذا سيجري بين موسى والسحرة والكلّ يتوقع الغلب لنفسه ؟ ويقول السحرة : إمّا أن تلقيَ وإمّا أن نكون أول من ألقى ﴾ [سورة طه : ٦٥] .

قال : ﴿ بل ألقوا فإذا حبالُهم وعصيُّهم يخيَّل إليه من سحرهم أنَّها تسعى ﴾ [سورة طه : ٦٦] ، ويلقي موسى عصاه ﴿ فإذا هي تَلْقَفُ ما ما يأفِكون ﴾ .

ونلتقي أخيراً بالنهاية العامة للقصة ،وهو : ما مصير موسى وفرعون ؟ فنجد الخاتمة نجاة موسى وغرق فرعون وجنوده ﴿ فأخذناه وجنودَهُ فنبذناهم في اليمِّ فانظُرْ كيف كان عاقبةُ الظالمين ﴾ [سورة القصص : ٤٠] .

وأما القصة التي تقوم على عقدة يعقبها حلّها ،وذلك بالنسبة للقارىء فهو ماذا سيكون موقف أصحاب الجنة في سورة القلم : وقد أصبحت كالصَّريم ؟ والجواب : إنهم سيصعقون ،ثم يثوبون إلى رشدهم فيعترفون بظلمهم في حرمان المساكين فيقولون : ﴿ إنّا لضالّون * بَلْ نحن محرومون ﴾ .

ومن هذا قصة السيدة مريم [2] ، فالعقدة التي تقوم عليها القصة هي عقدة حَمْلِها حينما مسّها المَلك .

هنا يحار القارىء : هل نتيجة هذا المسّ الحملُ الطبيعي ؟

---

(١) قال ابن عباس : كان يوم الزينة هو يوم عاشوراء .
وقال السدي : كان يوم عيدهم .
راجع : مختصر تفسير ابن كثير ـ للشيخ محمد علي الصابوني ـ المجلد الثاني : ٤٨٤ ، طبعة ١٣٩٣ هـ ، الطبعة الأولى ،مطبعة دار القرآن الكريم .

(٢) راجع : سورة مريم القصة .

وإذا كان الحمل طبيعياً ، هل سيأخذ النظام الكوني المألوف ؟
وإذا وضعت كما يضع سائر البشر ،ما يكون موقفها إزاء قومها ؟
وما نهاية هذا المولود الذي سيكون ؟
كلّ هذه التساؤلات تحيط بالقارىء وهو لايعرف لها حلاً إلا أن يعرض عليه المولى عز وجل أنباءها .
فلقد أخبر تعالى بحملها فقال : ﴿ فحملته ﴾ .
وأخبر بإتيانها المخاض ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ .
وأخبر بولادتها ﴿ فناداها من تحتها ﴾ .
وتحدث عن المولود الذي كانت ولادته عجباً ، وطفولته عجباً ، وأحداثه عجباً ،ومستقبله عجباً .
وبهذا كله حلت الألغاز ، وفكت الطلاسم ، فسكنت العقول ، وهدأت النفوس ، وانتهت التساؤلات .
هذا وعنصر التشويق إذا كان يتمثل في جانب عقدة وحلها ، فإن له جانباً آخر هو جانب العرض ، والقرآن حينما عرض علينا موقف زليخا الذي فيه انحدار لغريزتها ، وضعف لشخصيّتها ، صوره لنا بعنصر مشوق ، وبعبارة تجذب النفوس لأحداث القصة ، وكلّ ذلك في عبارة وقورة ، ولفظ بعيد عن خدش الحياء ، وفي الوقت ذاته نرى أن هذا الحدث وإن صوّر الواقع كاملاً ، ورسم الحدث بتمامه ، إلا أنه لا يومىء بقوة صاحبه وتباهيه بما صنع ، وإنما ينم عن ندم وحسرة وارتباك نفسي . وفي تصويره لانحدار غريزة زليخا :
١ ـ غلّقت الأبواب .
٢ ـ قالت : هَيْتَ لك .
٣ ـ دعوتها للنساء اللائي لُمْنَها على صنيعها مع يوسف : « وقالت نسوةٌ في المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . . . » . « فلمّا

سمِعَتْ بمكرهن أرسلَت إليهن واعتدَتْ لهن مُتكأ وآتت كلّ واحدةٍ منهنّ سكّيناً [1] » .

وفي آدم ، وفي تصوير انحدار غريزته وهبوط بشريته :

١ ـ فأزلّهما الشيطان عنها .

٢ ـ فوسوس لهما الشيطان .

٣ ـ فنسي آدم ربّه فغوى .

إنه تصوير وإن دلّ على الانزلاق والانحدار للغرائز البشرية التي تصرف الإنسان عن طاعة الله ، وتبعده عن جانب الحق .

إلا أنا نحس بأن هذا التصوير ليس فيه ما يدلّ على أن صاحبه قد صنع أمراً خارقاً ، أو ارتكب فعلاً قد يتباهى به أمام مجتمعه ، وإنما هي أحداث تشف عن نفس كئيبة ، لأنها انحدرت في الهاوية ، وسارت في مسالك الهوى ، ومن ثمّ رأينا آدم عليه السلام يلوذ بتوبته : « ثمّ اجتباهُ ربُّه فتاب عليه وهدى » . [سورة طه : ١٢٢] .

وبهذا نرى أن القرآن الكريم كانت قصته مشوقة تمام التشويق ، لما رآه كثير من النقاد المحدثين الذين رأوا في مظاهر التشويق أن لا تكون عقدته مفتعلة ، وأن تتسق المقدمة مع النتيجة ، وأن لا تكون العقدة كاللغز الذي يحار في فكّه ، وهو ما يطلق عليه بالعقدة المضادّة بل إن العقدة في القصة القرآنية مهما استغلق هدفها ، فسرعان ما يحكي القرآن الحل لها ، ويأتي بالنتائج المحققة التي من ورائها العظة والعبرة ، فليس في القصة القرآنية ما يسمّى بالعقدة المضادّة ، وهو ما يعمد إليه بعض مؤلفي [2] القصة الحديثة ،

---

(١) راجع : سورة يوسف .
هيت لك : أي هلم لك ـ بالحورانية ـ ومعناها : تعال .
انظر : مختصر تفسير ابن كثير ـ للصابوني ـ ٢٤٥ ـ المجلد الثاني .

(٢) راجع : القرآن والقصة الحديثة ـ لمحمد كامل حسن : ٣٠ .

بوصول العقدة إلى أوج الطلاسم ، ظنّاً منهم أن ذلك يزيد من تشويق القارىء .

بل إن القرآن في قصصه كان جذّاباً في تشويقه من غير إغلاق محكم ، وإخفاء مستعصٍ على الأذهان ، قد يطول حلّه ، ويضيق النفس طويلاً في الوصول إلى مراميه ، بل كان القرآن مشوّقاً بدون هذه التعمية التي لا تفيد إلّا فساد المعنى .

فالقرآن الكريم حوادثه وإن أدّت إلى خلق العقدة ، فإننا نلاحظ أنها كانت بطريقة منطقية طبيعية يتقبلها العقل ، ويألفها الوجدان .

ولعل قصة [1] يوسف عليه السلام ، وهي أحسن القصص تصور لنا عن طريق العرض المشوق ، ألوان الإثارة من خلال الرؤيا التي رآها يوسف ﴿ يا أبتِ إني رأيت أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ ثم مراودة الإخوة أباهم ليدفع إليهم أخاهم ﴿ أرسلْهُ معنا غداً يرتع ويلعبْ ﴾ ثم قذفه في البئر وادعاء أن الذئب قد أكله ﴿ يا أبانا إنّا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ﴾ ، هنا تبدو النفس مشدودة إلى معرفة مصير يوسف ؟ وما الذي سيحدث له بعد ذلك ؟ هل سيخرج أم لا ؟ ، ويلتقطه السيّارة [2] ، فيا ترى هل سيستخدمونه ، أم ماذا ستصنع به السيارة ؟ ويباع بثمن بخس ، وأين ؟ في مصر ! بعيد أشدّ البعد عن موطنه الأصلي فلسطين ، ويباع لمن ؟ للعزيز [3] !

الإثارة تشتد في معرفة مصير يوسف في هذا البيت الشامخ الوجيه ،

---

(١) راجع : سورة يوسف .

(٢) السيارة : المارة من المسافرين .

مختصر تفسير ابن كثير ـ المجلد الثاني : ٢٤١ .

(٣) العزيز : الوزير .

مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ـ المجلد الثاني : ٢٤٨

وكيف سيتأقلم مع أسلوب الحياة هناك ، وتعلونا مظاهر الارتياح حين نسمع العزيز يقول لامرأته : ﴿ أكرمي مَثْواه عسى أن ينفَعنا أو نتخذَه ولداً ﴾ .

ونتساءل ، هل ستكرم امرأة العزيز مثواه ؟ أم تنظر له نظرة الدخيل ؟ ، ونتشوق إلى معرفة معيشته هناك ؟

ونفاجأ بمراودة امرأة العزيز له﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ . ونتشوق إلى معرفة موقف يوسف معها ؟ هل سيصعق من هذه المفاجأة ؟ أم يخضع لإرادتها ، لا سيما وهي وليّة نعمته ، ويعيش معها ، وليس هو مظنة للتهمة ، لأن عيشه معها عاد كابن لها ، فالشكوك لا تتطرق إليه ، ويأتي الردّ على هذه التساؤلات في تعوذ يوسف من هذه الفعلة﴿ قال معاذَ الله ، إنه ربّي أحسن مثوايَ ، إنه لا يفلح الظالمون ﴾ . [سورة يوسف : ٢٣] .

وهنا نتشوق أيضاً إلى معرفة ردها ، هل ستوقع به ؟ أم تحاول تلافي الموقف ، وترجو من يوسف أن لا يخبر زوجها بالأمر ؟ ولكن الموقف يزداد توتّراً ويتفاقم حدّة ، بعد أن نفاجأ بالزوج العزيز ، يدخل في نفس اللحظة التي كان يوسف يركض مولّياً الأدبار ، وهنا يصيبنا الذهول العميق حين نسمع امرأة العزيز ترمي يوسف بتهمة الخيانة : ﴿ قالت : ما جزاء من أرادَ بأهلك سوءاً ﴾ . [سورة يوسف : ٢٥] .

ونتشوق إلى معرفة موقف العزيز من يوسف ، لا شك بأنه موقف حرج للغاية ، فيوسف يريد من العزيز أن يحسن الظن به وهو مظلوم ، والعزيز يا ترى يصدق من ، ويكذب من ؟ .

ويحلّ اللغز ، وتتبدد الحيرة حين شهد شاهد من أهلها ﴿ إنْ كانَ قميصُه قُدَّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قُدَّ من دبُر قال : إنه من كيدِكُنَّ إنّ كيدكن عظيم ﴾ . [سورة يوسف : ٢٦ ـ ٢٨] .

وينتقل يوسف إلى السجن بعد هذه التهمة المنكرة ، وكانت حالة

يوسف عند دخوله السجن مزيجاً من الفرح والحزن ، الفرح لأنه ابتعد عن بيت المكر والخديعة ، والحزن لأنه سجن ظلماً ، والسمعة السيّئة لمن لا يعلم حقيقة الحال ، لكن السجن كان فاتحةَ خير له ، ورُبَّ محنةٍ ضمنها منحة ، وفي السجن يلتقي بفتيان [1] ، سألاه عن رؤياهما ﴿ قال أحدُهما : إني أُراني أعصر خمراً ، وقال الآخر : إني أُراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ، نبّئنا بتأويله ﴾ ويعبّر لهما الرؤيا ﴿ أمّا أحدكُما فيسقي ربّه خمراً ، وأمّا الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ .

ونتشوق إلى معرفة سرّ تعبير هذه الرؤيا لنجد القرآن يباغتنا بالحل : ﴿ وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكُرني عند ربك ﴾ . وتستثيرنا هذه العبارة ، ونستشعر قرب خروج يوسف من السجن ، ولكننا نفاجأ بأن الساقي قد نسي ﴿ فأنساه الشيطانُ ذكرَ ربّه ﴾ .

ويرى الملك رؤياه ، ويعجز المعبرون عن تفسيرها ، ونجد تعبيرها عند يوسف على يد الساقي ، وهنا تتوالى المفاجآت في سلسلة من الترابط والاتساق ، أولها : في خروجه من السجن ، وثانيها : في اعتراف زليخا ، وثالثها : في تولّية أمر الخزانة ﴿ وقال المِلكُ ائتوني به أَستخلِصْهُ لنفسي ، فلمّا كلّمه قال : إنك اليوم لدينا مكينٌ أمين ﴾ .

---

(١) الفتيان : اسم أحدهما بنو ، وكان رئيس السقاة ، والآخر ملحب ، وكان رئيس الخبازين . وكانا قد دخلا السجن بتهمة التآمر على الملك ، وقد عبّر يوسف رؤياهما بأن أحدهما وهو رئيس السقاة سيبرأ من تهمته ، وأما الآخر فسيذهب ضحيتها ،وقد كان والملك من الأجانب الذين غزوا مصر ، والذين أطلق عليهم اسم « الهكسوس » أي الملوك الرعاة .

فبعض المؤرخين يعتبرهم عرباً ، والبعض الآخر يعتبرهم فينيقيين .

راجع : اليهود في القرآن ـ لعفيف عبد الفتاح طبارة : ١٥٦ ـ ١٦٠ ـ الطبعة الثامنة .

﴿ قالت أمرأة العزيز : الآن حَصْحص [1] الحقُّ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين * ذلك ليعلم أنّي لم أَخُنْهُ بالغيب ، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ .

﴿ قال : اجعلْني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم ﴾ .

ويعين وزيراً للخزانة ، وأصبح مسؤولاً عن صرف الميرة والطعام في زمن القحط ، وهنا تتبادر عدّة تساؤلات مشوقة .

هل إخوة يوسف سيذهبون إليه لإحضار الميرة كسائر الناس أم لا ؟

ونفاجأ بهم في ضمن القادمين : ﴿ وجاء إخوة يوسف ﴾ .

وبعد أن عرفنا قدومهم ، فيا ترى هل سيعرفهم يوسف بعد هذه الغيبة الطويلة أم لا ؟ وهم بالتالي هل سيعرفونه ؟ وعلى افتراض أن يوسف عرفهم ، فما هو موقفه حينذاك ؟ وهنا تأتي الردود على هذه التساؤلات من كتاب الله .

﴿ فعرفَهم وهم له مُنكرون [2] ﴾ .

﴿ ولما جهَّزهُم بِجَهَازهم قال : ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم ، ألا ترَوْن أنَي أُوفي الكيلَ وأنا خيرُ المُنْزِلين ﴾ .

وإذ طلب يوسف إحضار أخيه بنيامين ، فيا ترى هل سيستجيب

---

(١) حصحص : ظهر وبرز ،على أن من العجيب حقاً في اعتراف زليخا أنها جاءت بالبراءة ليوسف ، وهي نفسها التي نسبت إليه الفحش ظلماً وعدواناً .
ولعل اعترافها « صحوة ضمير » أو أنها خشيت إن بقيت مصممّة على إنكارها أن تشهد عليها النسوة بما اعترفت لهن سابقاً بما جرى معها ومع يوسف حين قالت لهن :﴿فذلكنَّ الذي لُمتُنَّني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ،ولئن لم يفعل ما آمره به ليسجنن وليكونن من الصاغرين ﴾ .

(٢) ﴿ فعرفهم وهم له منكرون ﴾ : حيث كان في أبّهة الملك ، ويتكلّم اللهجة المصرية ،وقد غيّر الملك اسمه إلى « صفنات فعينع » بمعنى طعام الحياة .
اليهود في القرآن ـ طبارة ـ ١٦٧ .

يعقوب لهذا ، أم لا ، وخصوصاً أنهم خانوا أباهم من قبل حينما طلبوا يوسف ؟ .

هنا تفاجئنا نصوص القرآن بالإجابات المشوقة : ﴿ قال : هل آمَنُكم عليه إلّا كما أمِنتكم على أخيه من قبل ، فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ .

لقد تردّد يعقوب في البداية ، لكنه وافق في النهاية ، ولعلّ موافقة يعقوب كانت نتيجة تلك الإشارة الخاطفة [1] ﴿ قال : لن أرْسلَه معكم حتى تُؤتون موثقاً من الله لتأتنّني به ، إلا أن يُحاط بكم ، فلمّا آتوهُ موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل ﴾ .

ويصل بنيامين إلى وزير الخزانة ، فماذا سيكون موقفه مع أخيه هل سيعرفه أم لا ؟ ، وهل سيبقى في كنف أخيه ؟ وكيف الطريقة لاستبقائه ؟ وما الذي سيصنعه يوسف معه ؟ .

والقرآن الكريم يفاجئنا بكلّ هذه التساؤلات في إجابات مثيرة جداً ، قال تعالى : ﴿ ولما دخَلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال : إنّي أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ .

---

(١) قلنا : الإشارة الخاطفة ، لأن جملة : ﴿ ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ متى نقلت لأبيهم أوقعته في استغراب ،وجعلته يظن أن لهذا الرجل المصري المتولي على خزائن مصر مغزىً في هذا الطلب ،وإلّا فمَن عرّفه أن لهم أخاً من أبيهم ؟ وما هي علاقته به ؟ وما هي الأسباب التي تدفعه لهذا الطلب ؟

فكان هذا الطلب ما هو إلا برقية خاطفة من يوسف لأبيه ،أو لغز لايحلّه إلا يعقوب ، يضاف إلى ذلك تجهيز يوسف إخوته بما يلزم لهم في سفرهم وزيادة الكيل لهم بدون ثمن ،فيعقوب فهم هذه الرموز ، وأن ابنه يوسف في مصر ،بدليل قوله لأولاده عند زيارتهم لمصر للمرة الثالثة : ﴿ يا بَنِيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه ﴾ .

راجع : اليهود في القرآن : ١٦٧ .

إذن فقد فرح يوسف بأخيه وأعلمه بنفسه ، ثم أظهر يوسف لأخيه رغبته في استبقائه عنده كتمهيد لإحضار والديه إلى مصر ، وأن الطريقة التي ارتآها هي نسبة السرقة [1] إليه وأخذه رقيقاً ليكون بجانبه ، فقبل بنيامين .

وتشتد الإثارة في كيفية العمل ، وما هي الطريقة التي سيتصرف بها يوسف لنسبة السرقة لأخيه ، ويأتي الحلّ : ﴿ فلمّا جهزّهم بجَهازهم جعل السقاية في رَحْل أخيه ، ثم أذّن مؤذّن : أيّتُها العِير إنكم لسارقون * قالوا واقبلوا عليهم : ماذا تَفْقِدون * قالوا : نفقِدُ صُوَاع [2] الملك . . . قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنّا سارقين * قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا : جزاؤه من وُجِدَ في رحلة [3] فهو جزاؤه ، كذلك نجزي الظالمين ﴾ .

ويوسف على علم بأنهم سيقولون ذلك ، لأن شرعة بني إسرائيل تجعل السارق في مقابل سرقته .

ثم تبدو تساؤلات جديدة وعديدة : كيف يصنع إخوة يوسف ؟ هل سيعودون بدون بنيامين ؟ وما موقف الأب حينما يعودون له ؟ وهل سيعودون مرة أخرى للمطالبة ببنيامين وتقديم فداء له ؟ وما موقف يوسف منه إذا عادوا ؟

ويطالعنا القرآن بالإجابات المثيرة لهذه التساؤلات : ﴿ فلمّا استيأسُوا منه خلصُوا نَجِيّاً ﴾ .

---

(١) وكانت سنّة آل يعقوب أن يأخذوا السارق بسرقته .
تفسير الجلالين : ٣٢٠ .

(٢) الصوّاع : كان من فضة يشربون فيه ،وكان للعباس مثله في الجاهلية .

(٣) الرّحل : المتاع .
راجع : مختصر تفسير ابن كثير للصابوني : ٢٥٥ ـ ٢٥٧ ـ المجلد الثاني .

﴿ قال : بلْ سَوَّلت لكم أنفسُكم أمراً فصبرٌ جميلٌ عسى الله أنْ يأتيَني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم ﴾ .

﴿ فلما دَخلوا عليه قالُوا : يا أيّها العزيز مسّنا وأهلَنا الضرُّ وجئنا ببضاعة مُزجاةٍ[1] ، فأوفِ لنا الكيلَ وتصدَّق علينا إن الله يجزي المتصدِّقين ﴾ .

فهم لم يعودوا لطلب بنيامين ، ولم يأتوا حتى بسيرته ، وهنا يرق يوسف للحال التي وصل إليها أهله ، ويرى بأن وقت الإفصاح عن نفسه قد حان فيقول : ﴿ هلْ علمتم ما فعلتُم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ﴾ .

كلمات تعيد إليهم ذكرياتٍ مضت واندثرت في مخيّلاتهم ، وهنا يثوبون إلى رشدهم ويقولون في غمرة الاندهاش ، وفي تساؤل ممزوج بالفرح والحزن ، يقولون : ﴿ أئنك لأنت يوسُف ﴾ ؟ !

ويرد عليهم : ﴿ أنا يوسفُ وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتّق ويصبر فإن الله لا يُضِيع أجر المحسنين ﴾ .

وهنا يلجؤون إلى تمحل عذر يسوغ لهم فعلتهم ، ويدفع الخجل عنهم ، ويبرىء ساحتهم ، قالوا : ﴿ تالله لقد آثرَك الله علينا ﴾ والاعتراف بالحق فضيلة ﴿ وإنْ كنّا لخاطئين ﴾ .

ويلجأ يوسف إلى التخفيف من حدّة الموقف وتوتّره ، فيقول في تعبير يشف عن نفس مهذّبة : ﴿ لا تثريبَ[2] عليكم اليومَ يغفرُ الله لكم وهو أرحمُ الراحمين ﴾ .

ثم نتشوق إلى معرفة لقاء يوسف بأبويه ، هل سيعود لهما ؟ وإذا عاد ما هي الطريقة التي يعود بها ؟

---

(١) مزجاة : مدفوعة يدفعها كلّ من رآها لرداءتها ، وكانت دراهم زيوفاً أو غيرها .

(٢) لاتثريب : لاتأنيب ولا عتب .

هل يعود في موكب ملوكي رهيب أم لا ؟

وإذا اتّضح الحق وعرف أبوه ما فعل بإخوته ما يكون موقفه منهم حينئذاك ؟ ويفاجئنا القرآن الكريم بالإجابات التالية :

﴿ اذهبوا بقميصي [1] هذا فألقُوه على وجه أبي يأت بصيراً وائتوني بأهلكم أجمعين ﴾ .

﴿ فلما أن جاء البشير [2] ألقاه على وجهه فارتدّ [3] بصيراً ، قال : ألم أقلْ لكم : إني أعلمُ من الله مالا تعلمون ﴾ .

﴿ قالوا : يا أبانا استغفْر لنا ذنوبَنا إنّا كنّا خاطئين * قال : سوف أستغفرُ لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

ويتجهز الأب والإخوة للرحيل إلى مصر ، وهناك كان لقاء الأحبّة ، لقاء لا يوصف ﴿ فلمّا دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ .

وبعد أن انتهت القصة يحار العقل في ربط الرؤيا المنامية الأولى ليوسف

---

(١) والقميص : هو قميص إبراهيم الذي لبسه حين ألقي في النار ، كان في عنقه حين ألقي في الجب ، وهو من الجنة ، وقيل : إن فيه ريحها ، ولا يلقَى على مبتلىً إلا عوفي بإذن الله .

راجع : تفسير الجلالين : ٣٢٣ .

(٢) البشير : هو يهوذا ، وكان قد حمل قميص الدم سابقاً فأحب أن يفرحه الآن .

(٣) وارتدّ بصيراً : ذاك لأنه ابيضّت عيناه من الحزن ، حيث تنشأ عن الحزن العميق حالة نفسية يزداد بسببها الضغط على العينين وتحدث الجلوكوما ، أو ما يسمى عرفاً : « بالمياه الزرقاء » فيزول صفاء القرنيّة وبريقها ، ويضعف البصر شيئاً فشيئاً حتى يزول نهائياً وتبدو العين بيضاء .

فانظر كيف وصف القرآن الكريم حالة يعقوب بما يؤيده العلم وما ذاك إلا أنه وحي إلهي لا من صنع البشر .

راجع : اليهود في القرآن : ١٧٥ .

حيث قال : ﴿ ياأبت إني رأيت أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي ساجدين ﴾ .

فتبيّن صدق الرؤيا بسجود إخوته ، وكان عددهم أحدَ عشرَ أخاً ، ورفع أبويه على العرش وهما الشمس والقمر ﴿ وخرّوا له سُجّداً [1] ، وقال : يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقّاً ﴾ .

ثم انظر إلى الفطنة في القول ، فقد قدم ذكر منّة الله عليه بإخراجه من السجن مع كونها تالية لمنّة الخروج من البئر ، ولم يذكر سببها إلا ضمناً ﴿ من بعد أن نزغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي ﴾ ليفصح عن حرصه على الطهارة والنقاء ، إذ في خروجه من السجن استبان أنه بريء من أي ريبة ، وما اختلقته امرأة العزيز كان محض افتراء ﴿ وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ [سورة يوسف : ١٠٠] .

كل ذلك في تفصيل مثير ، وارتباط وتشابك قائم على حلقات مثيرة ، عقدة تلو الأخرى ، وحلولها في تعانق وارتباط ، فلو لم يُلْق في البئر لما وصل إلى بيت العزيز ، ولولا مراودة امرأة العزيز له لما دخل السجن ، ولولا السجن لما وصل إلى الوزارة ، ولولا الوزارة لما التقى بإخوته ، ولولا التقاؤه بهم لما توصل إلى تفسير اللغز المنسي يوسف . . . الذي اتهم بأكل الذئب

(١) سجداً : سجود انحناء لا وضع جبهة ، وكانت تحيتهم في ذلك الزمان .
أبويه : أمه وأبوه ، ولكن من هي أم يوسف التي حضرت إلى مصر قيل هي : « راحيل » ، ولكن ورد في سفر التكوين أن راحيل ماتت وعمر يوسف عشر سنين .
وقيل : المراد من أمه التي حضرت لمصر « بلهه » جارية أمه ومربيته حال حياة أمه وبعد وفاتها ، والمربية تدعى أمّاً لقيامها مقام الأم .

له ، ثم تعبير الرؤيا التي وردت في بداية السورة ، كلّ هذا في تكامل وتزاوج واتساق .

* * *

الفصل الثاني
رسم الشخصية القرآنية وحيويّتها

وإذا كان الحكم على الشخصية يتم من خلال التعرف على تصرفاتها وعاداتها ، فإن المتتبع للقصص القرآني يستطيع أن يتعرف ويحكم على شخصياته من خلال أحداثها ، لأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره .

وبتحليلنا لشخصية خليل الرحمن ، وجدنا أنها شخصية تمتاز بالحلم والأناة والحكمة ، وذلك من خلال محاورزاته لأبيه : ﴿ ياأبتِ لاتعبدِ الشيطان ﴾ .

﴿ يا أبت إني أخافُ أن يمسَّك عذابٌ من الرحمن ﴾ [سورة مريم : ٤٥] .

وبالعقل والذكاء ، وذلك لتأمله في ملكوت الله سبحانه :

﴿ فلما جَنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً . . . ﴾ [سورة الأنعام : ٧٦] .

وفي محاجَّته للنمروذ ، قال : ﴿ ربّيَ الذي يحيي ويميت ﴾ .

وفي طلبه من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى . . . [سورة البقرة : ٢٥٨ - ٢٦٠] .

وبالإذعان والتسليم لأمر الله سبحانه ، بدليل مسارعته إلى ذبح ابنه وحيده من خلال الرؤيا ، وهذا أمر يشقّ على النفوس ﴿ قال : يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحُك ﴾ [سورة الصافات : ١٠٢] .

وبالثقة التامة بمولاه ،وتفويض الأمر إليه ،بدليل إسكان ذرّيته بوادٍ غير ذي زرع .

وشخصية الكليم موسى عليه السلام تمتاز بالقوة ،ولعلّها من أظهر

صفاته بدليل أنه حينما استغاثه ﴿ الذي من شيعته على الذي من عدّوه ،فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ [سورة القصص : ١٥] .

تصور أنها الضربة القاضية منتهى القوة والفتوة .

وبالأمانة والعفّة بدليل قوله تعالى على لسان بنت شعيب :﴿قالت إحداهما : يا أبتِ استأجره إنّ خير من استأجرتَ القويُّ الأمينُ ﴾ [سورة القصص : ٢٦] .

كما أنه لايأنف من تقديم يد العون والمساعدة لكل معوز ﴿ فسقى لهما ثم تولّى إلى الظل ﴾ .

وبالذكاء والفطنة ،بدليل أنه حينما تلقى الأمر بالذهاب لدعوة فرعون ﴿ قال :ربّ إني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ﴾ [1][سورة القصص : ٣٣] ، كيف أدعوهم وأنا قاتل منهم نفساً ؟ !

ثم إحساسه بعدم القدرة على توجيه الدعوة كما ينبغي لعدم فصاحة لسانه ، فقال : ﴿ أخي هارونُ هو أفصح مني لساناً فأرسلْه معي ردءاً يصدِّقني ﴾ ثم هو كالمساعد المعاون ردءاً يصدّقني .

وبشدة الانفعال في الحق بدليل أخذه بلحية أخيه ،قال تعالى: ﴿ ولمّا سكت عن موسى الغضبُ ﴾ [سورة الأعراف : ١٥٤] .

وبحب الاستطلاع ﴿ قال : ربِّ أرني أنظرْ إليك ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٣] .

---

(١) يذكر المفسرون : أنها حينما جاءته لتدعوه إلى بيت أبيها فإنه أمرها بأن تسير خلفه ،فإذا ضل الطريق تقذف حجراً أمامه إلى الجهة المطلوبة لئلا يراها ولئلا يسمع صوتها ،ثم هي إذا سارت أمامه قد تنكشف من فعل الريح ، وهكذا حافظ عليها حتى أوصلها إلى بيت أبيها دون أن يصدر منه ما يمس الشرف أو الكرامة .

راجع : تفسير ابن كثير ـ المجلد الثالث : ٣٨٥ .

وشخصية نوح تمتاز بالصبر بدليل أنه مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومع هذا لم يؤمن به إلا القليل ﴿ ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾ [سورة هود : ٤٠] .

وبقوة الإرادة ، فهو بالرغم من تكذيب قومه له واستهزائهم بدعوته وسخريتهم منه وهو يصنع الفلك ،إلا أنه ظلّ يدعوهم إلى عبادة الله ﴿ ويصنعُ الفلك وكلما مرّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه ﴾ [سورة هود : ٣٨] ،حتى كان يقول له بعضهم :قد صرت نجاراً بعد النبوة !

وبالإنابة والخشوع والتسليم لأمر الله ، فحينما أمره ربه ألا يخاطبَه في القوم الظالمين ، وفاته ذلك فخاطبه في شأن ابنه عاد ، فاعتذر عن ذلك فقال : ﴿ وإلا تغفرْ لي وترحمْني أكنْ من الخاسرين ﴾ [سورة هود : ٤٧] .

أخيراً يطالعنا نوح بشخصية المبتئس من قومه بعد طول مكث فيهم ﴿ وقالَ نوحٌ : ربِّ لا تذَرْ على الأرض من الكافرين ديّاراً * إنَّك إن تذْرهم يُضِلُّوا عبادك ولا يلدُوا إلا فاجراً كفّاراً ﴾ [سورة نوح : ٢٦ ـ ٢٧] .

حتى قال له البارىء عز وجل : ﴿ فلا تبتئسْ بما كانوا يفعلون ﴾ [سورة هود : ٣٦] .

وشخصيّة السيدة مريم بنت عمران فقد كانت عفيفة ، بدليل موقفها من الملك : ﴿ قالت : إني أعوذ بالرحمن منك ﴾ [سورة مريم : ١٨] .

وحينما جاءها المخاض تمنت الموت حتى لاتظهر بهذا المظهر الذي قد لايقبله مجتمع من المجتمعات ،وهذا يدلّ على حيائها ووقارها وسمتها ﴿ قالتْ : يا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نَسْياً منسيّاً ﴾ [سورة مريم : ٢٣] .

أما شخصية يوسف فتشف عن نفس مؤمنة صابرة على تحمل اللأواء بدليل أنه حينما رماه إخوته في الجبّ صبر واحتسب وعلم أنه أمر مقدور له .

وحينما راودته التي هو في بيتها ،وغلّقت الأبواب : ظهرت قوة الإيمان

﴿ قال : معاذَ الله ﴾ ، ثم بعد أن ثبتت براءته قال قولته التي تدل على عظمة الإيمان ورسوخه : ﴿ ذلك ليعلمَ أنّي لم أخُنْه بالغيب وأنّ الله لا يهدي كيدَ الخائنين * وما أبرّىء نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء ﴾ [سورة يوسف : ٥٢ - ٥٣] . قمة التواضع ، وخفض الجناح لبارئه ، وهكذا فحسنات الأبرار سيئات المقرّبين .

والعلم مع الأمانة ، وذلك في تعبير الرؤيا ﴿ لا يأتيكُما طعامٌ ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علّمني ربّي ﴾ [سورة يوسف : ٣٧] ، وهما شرط في ذوي المناصب الرفيعة .

والأمانة في حفظ العهد مع العزيز فلم يخنه في عرضه ، حاشاه ، وذلك مع توفر الأسباب الداعية لذلك ﴿ ذلكَ ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ [سورة يوسف : ٥٢] ، فكانت أمانته مع علمه سبباً في قبول الملك طلبه في ولاية الخزانة ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [سورة يوسف : ٥٥] .

ثم الدربة وسعة الحيلة ، وفرط الذكاء ،حيث استطاع أن يعمل الوسيلة الناجحة لإحضار أخيه الشقيق بنيامين حينما ذهب إخوته لطلب الميرة ،وحيلته في أنه خاطبهم بأنه يحسن المكيال ،ويكرم الضيوف ﴿ ولما جهّزهم بجَهازهم قال : ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم ،ألا ترون أني أُوْفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ [سورة يوسف : ٥٩] .

وأراد أن يرغبهم في العودة إليه والرجوع لأخذ الميرة مرة بعد مرة فقال لهم : ﴿ فإنْ لم تؤتُونِ به فلا كيلَ لكم عندي ولا تقربون ﴾ [سورة يوسف : ٦٠] .

إنها كلها حيل خطها يوسف الصديق بأمر من ربه حتى تعمل إخوته على أن يعود إليه بنيامين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولذلك كان ردهم دالاً على ذلك حيث قالوا : ﴿ سنُراود عنه أباه وإنّا لفاعلون ﴾ [سورة

يوسف : ٦١] .

على معنى : إننا سنجتهد في طلبه ونحتال في انتزاعه من يد أبيه .

ومن حيله الدالة على قوة الفطانة والحكمة الرصينة في استبقائه أخيه بنيامين بوضع صواع الملك في رحله ليأخذه في مقابله ،وهي شريعة بني إسرائيل حيث إنهم يأخذون السارق في مقابل سرقته ﴿ فلما جهّزهم بجَهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ، ثم أذّن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم : ماذا تفقدون * قالوا : نفقد صُواع الملك ولِمَن جاء به حِمْلُ بعير وأنا به زعيم * . . . قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قالوا : جزاؤه مَنْ وُجِدَ في رَحلهِ فَهُوَ جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ﴾ [سورة يوسف : ٧٠ ـ ٧٢ ، ٧٤ ـ ٧٥] .

ولما بدأ بتفتيش الرحل فتش جميع الأوعية وأخّر وعاء أخيه ، بل تردد في تفتيشه ،حتى قال له الإخوة : لابد من أن تفتشه ﴿ فبدأبأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ [سورة يوسف : ٧٦] .

فنجحت الحيلة حيث إنه استبقى بنيامين لاقسراً ، وإنما بحكم تطبيق الشريعة التي كانت سائدة حينئذاك .

ثم الحنين حيث أخذه الشوق والحنين لرؤية أخيه الشقيق بنيامين بعد أن رأى إخوته جميعاً ﴿ ائتوني بأخ لكم من أبيكم ﴾ [سورة يوسف : ٥٩] .

والشفافية والطهر مع الروحانية الصادقة والإلهامات الربّانية والتجلّيات الإلهيّة ، حيث إنه حينما رأى إخوته عرفهم ﴿ وجاء يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ [سورة يوسف : ٥٨] .

فرق بين شخصية يوسف وشخصية إخوته ، فبصيرة يوسف فيها إشراقة ،وأنوار متلألئة حتى استطاعت أن تكشف الحقيقة فيلوح لها أن هؤلاء هم إخوة يوسف .

أما شخصية إخوته فلا زالت شخصية مطمورة فيها صدأ ،حتى لم تر الحق حقّاً ،ومن ثمّ لم تتعرف على شخصية يوسف ولم تفطن إلى أنه هو الشخص الذي كادوا له كيداً حتى دبّروا له الحيلة وصنعوا به ما صنعوا .

ثم اللباقة وحسن الذوق والأدب والحصافة التي تدل على ذكاء نادر حينما ثبت ظاهرياً بأن بنيامين هو السارق حيث وجد صواع الملك في وعائه ، قال إخوة يوسف : ﴿ قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ [سورة يوسف : ٧٧] . مع بيان أن إخوة يوسف لازالت نفوسهم تبغض يوسف وتكرهه ، حتى افتأتوا عليه فرموه بالسرقة ، إلا أن يوسف لم يجابهم بالحقيقة ،ولم يعاملهم بالمثل ، ولم يخبرهم بدسائسهم وحيلهم التي صنعوها قبل ذلك ،حيث ألقوه في البئر ،ولكنه أخفى هذه العبارة في نفسه ،ولم يظهرها لإخوته تلطّفاً منه حتى يصل إلى ما يريد أن يصل إليه ، ولكنه قال في نفسه : ﴿ أنتم شرٌّ مكاناً ﴾ [سورة يوسف : ٧٧] ، على معنى أنهم بسرقتهم لأخيهم هم شرّ الناس منزلة ،قال ذلك في نفسه ولم يبدها لهم .

كما يظهر يوسف في تسامحه وهو ما يسمى بالعفو عند المقدرة وذاك حينما تعرف عليه إخوته ، فقد كان بمكنته أن يوقع بهم وهم الذين أساؤوا إليه ، ولكن الصديق لايفعلها لأن كرم عنصره ،وشرف نجاره يأبى عليه أن ينزلق هذا المنزلق فضلاً عن أنه قد أصدر قراره بالعفو العام عنهم ، بدلاً من أن يثأر منهم ويطلب مجازاتهم فقال : ﴿ لاتثريبَ عليكمُ اليوم يغفرُ الله لكم وهو أرحم الراّحمين ﴾ [سورة يوسف : ٩٢] .

وأما في قوله ﴿يا أبتِ هذا تأويل رؤيايَ من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ [سورة يوسف : ١٠٠] . فتتأكد شخصية يوسف المكينة في تعبير الرؤيا حينما ربط بين سجود أبيه وأمه وإخوته حينما دخلوا عليه وسجودهم من باب التحية والإكرام لا من باب العبودية .

حينئذاك ربط يوسف بين هذا الصنيع الذي صدر من أبويه وإخوته

بالرؤيا التي رآها سلفاً قبل أن يكيد له إخوته :﴿إني رأيت أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدين ﴾ [سورة يوسف : ٤] ، ربط بين تلك الرؤيا وبين سجود أبيه وإخوته حينما دخلوا عليه ﴿ قال : يا أبتِ هذا تأويلُ رؤيايَ من قبل ﴾ [سورة يوسف : ١٠٠] .

إنها شخصية مؤمنة قانتة ، لقد صهرتها الأحداث ، وهزّتها النوائب ،من قذفٍ في البئر ،واتّهامٍ هو منه بَراء ،والسجن ظلماً ، والبعد عن الأبوين والأقارب . لقد صمد على هذا كلّه وهو ثابت العقيدة ، متلالىء الإيمان جبينه مشرق باليقين ، حتى إذا ما اقشعت الغمامة ،وزال الكرب ،واجتمع مع الأحباب في مكان طيب خصب ﴿ وقدْ أحسنَ بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدوِبعد أن نزغ الشيطانُ بيني وبين إخوتي ﴾ [سورة يوسف : ١٠٠] .

وهنا تتجلى شخصية يوسف ، وقد ملئت بالحياة والخجل بعد أن تاب الله على إخوته ، أبى كلّ الإباء أن يذكر عبارة تجرح شعورهم ،أو تؤلم مشاعرهم بعد أن ندموا وتابوا ، فهو يشكر الله على خروجهم من السجنِ ولم يذكر حديث الجبِّ والرمي في البئر ،وهذا هو حياء المؤمن ، حصافة أهل الفطنة والذكاء ، فالموقف يتطلب الرقَّة والتسامح وعدم ذكر الأسى وما يجلب البغض والكراهية ، ومن ثمّ ربط هذه الدسائس كلها بفعل الشيطان فقال : ﴿ من بعد أن نزغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾ [سورة يوسف : ١٠٠] .

لقد استمر يوسف في شكره لله حيث إنه في محنته قد أعطاه الله الملك ، وعلمه علماًواسعاً به عبّر الرؤى ،ومن ثمّ فهو يشيد بعظمة الله وقدرته ،ويمد يده إلى السماء ،ويأمل من ربه أن يجزيه الحسنى في الدار الآخرة كما جزاه بالحسنى في الدنيا ﴿ ربِّ قد آتَيْتني من المُلْكِ وعلّمتني من تأويل الأحاديث

فاطرَ السمواتِ والأرضِ أنت وليِّي في الدنيا والآخرة توفَّني مسلماً وألحقْني بالصالحين ﴾ [سورة يوسف : ١٠١] .

وشخصية يعقوب تمتاز بالثقة بالله ، فحينما قدم عليه أبناؤه مدّعين أن الذئب قد أكل يوسف ﴿ وجاءوا على قميصِه بدمٍ كذِب ﴾ [سورة يوسف : ١٨] . فحينذاك علم أنّ ولده قد فُقد ، وقد كان مقرباً إلى نفسه ، ولكنه لم يجزع جزع المريب والشاك في قضاء الله وقدره ، فقال عبارته الدالّة على إيمانه المتقد ، واعتماده على ربه الذي لا رادّ لقضائه ﴿ قال : بل سوَّلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميلٌ والله المستعان على ما تصفون ﴾ [سورة يوسف : ١٨] .

وفي المرة الثانية حينما طلبوا منه ولده بنيامين بعد ما قدّموا إليه من الحيل ، وقد ساوره الشكّ فيهم حتى قال : ﴿ هل آمنُكم عليه إلا كما أمِنْتُكم على أخيه من قبلُ ﴾ .

ولكنه وقد قدّم الولد لهم حتى يأتوا إليه بالميرة ، فلا يكون سبباً في هلاكهم من الجوع ، يربط ذلك كله بقدرة الله عز وجل فيقول : ﴿ فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ [سورة يوسف : ٦٤] .

وهو إذ يرسل الولد معهم يذكرهم بعهد الله وميثاقه ، وفي ذلك لون رائع من ألوان الإيثار ، ودليل قوي على فطنة يعقوب وذكائه حيث إنه تردّد في البداية ، والمؤمن لا يلدغ من جحرٍ مرّتين ، ولكن ذلك كلّه في سبيل لقمة العيش ، وإحياء النفوس المجهدة : ﴿ قال لن أرسلَه معكم حتى تؤتونِ موثقاً من الله لتأتنَّني به إلا يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل ﴾ [سورة يوسف : ٦٦] .

وحينما عادوا إلى أبيهم من غير بنيامين ، فأخبروه بما حدث حتى احتجز جزاء فعلته ، نرى يعقوب للمرة الثانية لا يتزعزع عن عقيدته ، ولا تلين شوكته ، ولا تضعف إرادته ، ولا تخمد ثقته بالله حتى قال : ﴿ قالَ : بل

سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل عسى الله أن يأتيَني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم ﴾ [سورة يوسف : ٨٣] .

وهو إذ يحدّث عن هذا الحدث ، وقد ذكّره بحدث يوسف ﴿ وتولّى عنهم ، وقال : يا أسفَى على يوسفَ وابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ [سورة يوسف : ٨٤] .

حتى ليم على ذكره الدائم ليوسف ، والتفجع عليه ﴿ قالوا تالله تَفْتأ تذكُرُ يوسُف حتى تكون حَرضاً أو تكون من الهالكين ﴾ [سورة يوسف : ٨٥] ، على معنى : إنك لاتزال تذكره وتتحسر عليه ، وعلى ضياعه ، حتى تهلك أسىً وحسرة ، وتموت ،ولكنه أعرب عن قصده الدالّ على قوة إيمانه فقال : ﴿ إنّما أشْكُو بثّي وحزْني إلى الله ﴾ [سورة يوسف : ٨٦] .

ومع فقده لولده الأول يوسف ، وقد طال شيء من الوقت ، إلا أنه لم ييأس ولم يقنط من رحمة الله عز وجل في أن يعود إليه بنيامين مصاحباً لأخيه الأكبر يوسف ، فيتحقق الفرح كاملاً ، وفي ذلك يقول : ﴿ يا بُنيّ اذهبوا فتحسّسُوا من يوسفَ وأخيه ولا تيأسوا من رَوْحِ الله إنه لا ييأسُ من رَوح الله إلّا القومُ الكافرون ﴾ [سورة يوسف : ٨٧] .

نعم لقد طال الوقت على يعقوب ، ولم يحظ برؤية يوسف ، إذ أن يوسف طلب من إخوته عند المكيال أن يحضروا له أخاهم بنيامين ، ولم يطلب أن يحضروا أباه ﴿ ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم ﴾ [سورة يوسف : ٥٩] ، والمولى بهذا يريد أن يضاعف الأجر ليعقوب ، لأن عظم البلاء من عظم الجزاء ، وأن الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم .

وتتجلى في شخصية يعقوب عاطفة الأبوّة الكامنة ، فبالرغم من أنه كان ملهماً بأن أولاده صنعوا بيوسف ما صنعوا ، وأضمروا له الحقد الدفين ، مما سبّب له هذه المحنة التي فيها فقد ولديه ، إلا أنه كان يتمنى لأولاده كلَّ

خير ، فيبدو رقيق القلب عليهم ، يحنّ لهم حتى إنهم إذا أرادوا أن يدخلوا مصر لا يدخلوها دفعة واحدة حتى لا يتعرضوا لحسد الحساد ، ونظرة العين الطائشة ، فهو يؤمن بالحسد ، ويقر أذى العين ، وإن كان ذلك من قضاء الله سبحانه وسلطانه ، ﴿ وقال : يابني لا تدخلوا من باب واحد وادْخلوا من أبواب متفرقة ﴾ [سورة يوسف : ٦٧] ، فهو إن أمرهم بأخذ الحيطة إلا أنه يرى أن حكم الله نافذ ﴿ وما أُغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ [سورة يوسف : ٦١] ، أي لا أدفع عنكم بحيلتي شَيئاً مما قضاه الله ، على معنى : أن الحذر لا يدفع القدر ، وهو بذلك كان مؤمناً بربه أشدّ الإيمان ، حيث إنه ربط بين القدر والحذر .

ومن ثمّ نرى أن الله عز وجل أثنى عليه كلّ الثناء فقال معقّباً على هذا : ﴿ وإنه لذو علمٍ لما علّمناهُ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [سورة يوسف : ٦٨] .

ولقد كان قوي البصيرة ، ملهم الفؤاد ، حيث إن العير حينما خرجت منطلقة إلى الشام لتبشيره بعودة يوسف والعثور عليه قال : ﴿ إنّي لأجدُ ريحَ يوسفَ لولا أن تُفَنِّدون ﴾ [سورة يوسف : ٩٤] ، أي لولا أن تتهموني بالخرف وذهاب العقل ، ممّا يدل على إلهاماته المشرقة ، وبصيرته النيّرة ، وهكذا نرى أن ملامح شخصية يعقوب اتضحت في قوة إيمانه وذكائه المتقد ، وبعده عن اليأس والقنوط ، واعتماده على الله عزّ وجل مع الأخذ بالأسباب ، كما نلمس فيه عاطفة الأبوة التي تفجرت في الحفاظ على أولاده وأحاطتهم بسياج به لا يلحقهم شر العين وأذى الإنسان ، كل ذلك في بصيرة مشرقة ، ونفس ملهمة ، لا ريب في ذلك ، فهو نبي من أنبياء الله سبحانه .

وأما شخصيّة إخوة يوسف ففيها شيء من الغَيرة الإنسانية ، يتجلّى هذا في قوله تعالى : ﴿ إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن

عصبة ،إن أبانا لفي ضلالٍ مبينٍ ﴾ [سورة يوسف : ٨] .

كما تمتاز بشيء من القدرة على الخداع والمراودة ﴿ مالك لا تأمنّا على يوسف وإنّا له لناصحون * أرسلْه معنا غداً يرتع ويلعب وإنّا له لحافظون ﴾ [سورة يوسف : ١١ ـ ١٢] . وفي قولهم : لئن أكَلَهُ الذنب ونحن عصبة إنّا إذا لخاسرون ﴾ [سورة يوسف : ١٤] ، ثم مجيئهم أباهم عشاء يبكون ﴿ وجاؤوا أباهم عشاءً يبكون ﴾ [سورة يوسف : ١٦] ، إنها مخادعة واضحة حتى يؤكدوا لأبيهم أن لاذنب لهم في فقد أخيهم يوسف ،فادَّعوا أن الذئب قد أكله ، واستدلوا على ذلك بقميصه الملّوث بالدماء الكاذبة ﴿ وجاؤوا على قميصه بدمٍ كذِب ﴾ [سورة يوسف : ١٨] ، على معنى أنهم جاؤوا على ثوبه بدم ليس من دمه .

يذكر ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في تفسير الآية : « إنهم ذبحوا شاةً ولطّخوا بدمها القيمص ، فلما جاؤوا يعقوب قال : كذبتم ،لو أكله الذئب لخرق القيص »[1] .

كما نلمس فيهم شدّة الجدل مع قوة الحجة ﴿ قالوا : يا أبانا مُنع منّا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتلْ وإنا لـه لحافـظون ﴾ [سورة يوسف : ٦٣] ، ﴿ قالوا : يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردّت إلينا ،ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ،ونزداد كيل بعير ، ذلك كيلٌ يسير ﴾ [سورة يوسف : ٦٥] .

وإلصاق التهم مع عدم التورّع فيها : ﴿ إن يسرق فقد سرَق أخٌ له من قبلُ ﴾ [سورة يوسف : ٧٧] ، عودة إلى المراوغة واستعمال الحيلة ،ولكن على من ، على من عرفها !

---

(١) الطبري ـ الجزء الثاني عشر : ١٦٤ ، راجع : صفوة التفاسير ـ الجزء السادس : ١٠ .

﴿ يا أيّها العزيز إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخُذْ أحدَنا مكانه ﴾ [سورة يوسف : ٧٨] .

فهم يحسنون وسائل الاعتذار والتملّق ﴿ إنّا نراك من المحسنين ﴾ .

وتظهر قوة الحجّة أيضاً ، حينما أخذوا يوسف وأخاه : ﴿ إن ابنك سرق وما شهِدنا إلا بما علمنا ،وما كنا للغيب حافظين * واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقون ﴾ [سورة يوسف : ٨١ ـ ٨٢] .

أخيراً في اعترافهم بذنبهم كوسيلة للاستلطاف والتهيئة ﴿ قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنّا لخاطئين ﴾ [سورة يوسف : ٩١] ، ولكن مع هذا كله نرى أنها نزغة شيطان لفحتهم ، ونوازع الهوى قد أصابتهم ،ومع ذلك حينما استبان الحق لهم ،وانبلج نور اليقين ، نراهم قد أحسوا بوخز يساورهم ،وبضمير يؤنبهم ، ومن ثمّ اعترفوا بالخطيئة ، وأحسّوا بالذنب ﴿ قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ ، وطلبوا من أبيهم أن يصفح عن زلتهم ،فيطلب من ربه لهم المغفرة ﴿ قالوا : يا أبانا استغفرْ لنا ذنوبَنا إنّا كنّا خاطئين ﴾ [سورة يوسف : ٩٧] .

وهكذا أحسسنا بشخصية هؤلاء ، التي إن تعثرت في زلتها ، وسقطت في مهاوي الضلال ،إلا أنها سرعان ما تعود إلى ربها وترجع إلى خالقها ، فهو ،جلّ وعلا ، غفّار الذنوب ،وقابل التوبة الصادقة ﴿ يمحُو الله ما يشاء ويُثْبِتُ وعنده أمُّ الكتاب ﴾ [سورة الرعد : ٣٩] .

وهنا لفتة جميلة بدت من إخوة يوسف حينما طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم بدلاً من أن يطلبوا بأنفسهم ،ففي ذلك مرضاة لأبيهم ، وهو الذي وقعت عليه الإساءة ،وعاد إليه الكرب الشديد ، فعاش بسببهم في محنة قاسية لا يقدر عليها إلا الصابرون .

إن طلبهم من أبيهم الاستغفار فيه ترضية لخاطره ،واعتراف منهم

بأنهم نكلوا به ، فلا بدّ من أن يصفح عنهم أولاً ، ويتسامح في صنيعهم حتى يهيء نفسه للدعاء لهم ، فإذا طلب من الله ، عزّ وجل ، أن يتوب عليهم فمعنى ذلك أن نفسه قد استراحت ، وأن روحه قد فاضت بحبّ الخير لهم ، وهكذا كانت شخصيّة إخوة يوسف ، شخصيّة متمكّنة لها طابعها المميّز لها ، فكان لهم أسلوبهم الخاص ، واتجاهاتهم التي تشف عن طبائعهم ، ومع أنّنا قد لمسنا منهم الوقوع في المحظور والزلّة في المعصية ، رأيناهم وقد رقّوا لأبيهم عند حجز بنيامين ، فكان في عبارتهم : ﴿ إنّ له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه ﴾ [سورة يوسف : ٧٨] . ما ينبىء عن تعاطفهم الشديد نحو أبيهم ، وكأنهم في المرة الثانية لم يقصدوا أن يخونوا العهد كما خانوه قبل ذلك مع يوسف وإنما الظروف والدوافع هي التي جعلتهم يعودون إلى أبيهم ، وليس في صحبتهم بنيامين ، وسبحان ربي ؟ ! لقد تنبأ لذلك أبوهم يعقوب بإلهامٍ إلهيّ حينما أخذ عليهم العهد في ردّه : إلا أن يحاط بهم ، أي : أن يكون الأمر خارجاً عن إرادتهم ﴿ قالَ : لن أُرسلَه معكم حتّى تُؤْتونِ مَوْثِقاً من الله لَتَأْتُنَّنِي به إلا أن يُحاط بكم [1] ، فلما آتوه موثقهم قال : الله على ما نقول وكيل ﴾ [سورة يوسف : ٦٦] .

وأما شخصية زليخا فهي تصور غريزة المرأة حينما تكون مندفعة في شهوتها : ﴿ ولقد هَمّت به وهمّ بها ﴾ [سورة يوسف : ٢٤] ، وحينما تفاجأ بأنها قد وقعت في سوء ما دبرت ، تدركها غريزتها فتتنصل من تهمتها وتلصقها بغيرها ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ [سورة يوسف : ٢٥] .

وحين تسمع بحديث النسوة تساورها نفسها أن تثبت لهن ضعفهنّ أمام هذه الشهوة العارمة ، كما ضعفت هي أمامها : ﴿ فلمّا سمعتْ بمكرِهنّ

(١) إلا أن يحاط بكم : أي : إلا أن تغلبوا فلا تقدروا على تخليصه .

أرسلت إليهن وأعْتَدَت لهن مُتَّكَأً وآتت كلَّ واحدةٍ منهن سكّيناً وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن . . . قالت : فذلكنّ الذي لمتُنَّني فيه . . . ﴾ [سورة يوسف : ٣١ ـ ٣٢] .

ثم هي تسعى بكل ما أوتيت من قوة لتحقيق غرضها الأثيم ، فهي أسيرة شهوتها ، وهي ضعيفة الإرادة أمامها ﴿ ولئن لم يفعل ما آمُره ليسجنَن وليكونن من الصاغرين ﴾ [سورة يوسف : ٣٢] .

وأخيراً تغلبها أنوثتها حين ترى الوقائع وهي تكشفها فتقول : ﴿ الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ [سورة يوسف : ٥١] .

هذه نماذج لشخصيات قرآنية ، وكما لاحظنا فالشخصية مرتبطة بالحدث ، إذ لابدّ لكل فعل من فاعل ، وهي تتفاعل مع أحداثها حية في تصرفاتها ، تصور لنا الوقائع كأنها مرآة نشاهدها ونعيشها وننسجم داخل كيانها القصصي في انفعال تام[1] .

وأما شخصية عزيز مصر كما تكشف عنه الآية الكريمة ﴿ يوسفُ أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ [سورة يوسف : ٢٩] ، فهي شخصية تميل إلى التستّر ، فعزيز مصر لما رأى أنّ يوسف بريء من ادعاء زوجته ، وأنها هي الطالبة له ، وهو الهارب منها ، كتم الأمر ، بل طلب من يوسف أن يكتم الأمر ولا يذيعه لأحد ﴿ يوسفُ أعرضْ عن هذا ﴾ [سورة يوسف : ٢٩] .

وهذا يدل على أن شخصية العزيز كانت شخصية تميل إلى التستّر والتحفّظ ، وعدم إظهار الفضائح الجنسية ، فإنه أمر لا يقبله إنسان ، حتى لو عاش في مجتمع جاهلي .

---

(١) راجع القصة في أدب الجاحظ لعبد الله أحمد باقازي : ٩١ ـ الطبعة الأولى .

وأراد أن يدعم هذا التستّر بطلبه من زوجته أن تستغفر وتتوب ﴿ واستغفري لذنبك إنك كنتِ من الخاطئين ﴾ .

كما يستفاد من هذا الموقف أيضاً ، أن العزيز لم تكن عنده الغيرة القوية حتى يغضب غضبة مضرية ، أو يثور ثورة عارمة ، فينتقم من زوجته التي تعلق قلبها بغيره ، وكادت أن تدنس فراشه بهذا المنكر الفظيع .

وهكذا استبان لنا من خلال عرض شخصية العزيز ، وامرأته ، ويوسف بعضٌ من ملامح شخصية العزيز ، فهي شخصية كتومة للسرّ ، لاتذيع ما يستقبح ذكره في الوقت الذي تعرف جرم الحدث وعظم أمره .

كما أنها شخصية فاترة هادئة لاتتحرك لتدنيس عرض ، ولا تهتز اهتزازاً ملفتاً لخيانة زوجية .

« والنقد الحديث يرى أنه على القاص أن يعرض علينا أشخاصاً عاملين نراهم بقوة ، ونفهم أخلاقهم ، ونسايرهم بشعور سار إلى آخر القصة ، ومعنى ذلك أن أسلوب القصة يكون أجود كلما تجلت شخصياتها متمايزة ، وتوالت حوادثها وفصولها في أعمال أبطالها وحوارهم »[(١)] .

وواضح في قصص كبار الكتّاب أنه لكل شخصية آراؤها التي تكشف عن سلوكها وحديثها في القصة .

ومن العيب في القصص الحديث أن يتدخل المؤلف تدخلاً سافراً بالشرح والتحليل ، وينبغي أن يكون تدخله مستوراً ، وفي أضيق الحدود[(٢)] .

ورأوا أن تشابه الشخصيات يرجع إلى أن الكاتب كان يصدر في إحساسه عن إيمان بالمثال ، والمطلق العام ، لا عن إحساس بالتجربة الذاتية وتفردها .

(١) أصول النقد الأدبي ـ د. أحمد الشايب ـ الطبعة الثامنة : ٣٤٠ .

(٢) النقد الأدبي الحديث ـ د. محمد غنيمي هلال : ٥٥١ .

وبهذا نرى [1] أن النقد الحديث في علاجه للقصة العصرية حاكى شيئاً من أسلوب القصة القرآنية ، حيث إنه راعى في منهجه النقدي أن في عرض الشخصية عرضاً دقيقاً من الممكن أن يستشف جوانبها النفسية وأحوالها وعاداتها وما لها من ظلال وقيم ،ولن يكون ذلك إلا برسم الشخصية القصصية رسماً محكماً يعرب عن حقيقتها إعراباً تاماً .

فكان القرآن الكريم في عرضه لشخصياته نبراساً يستضيء به الكثير من الأدباء وما ذاك لشيء إلا لإعجابهم بملامحه التصويرية ،وقوة عرضه المحكم .

على أننا إذا تأملنا القصة العصرية الحديثة ،رأينا أنها كثيراً ما تُعني بالتحليل النفسي لبعض الأبطال ، فكان جانب التحليل النفسي ،كما يرى بعض الباحثين [2] ،يطغى على بقية عناصر الرواية .

إلا أن هذا التحليل النفسي كثيراً ما رأيناه يقوم على تجسيد كثير من المعاني التي عكست نفسية البطل ،وما كان يعانيه من صراع ،مما لاحظناه عند بعض القصاصين من مثل نجيب محفوظ الذي كان يعتمد كثيراً في توضيح معالم الشخصية بكثير من الأخيلة والأوصاف التي لها إيحاءات ورموز [3] .

ولكن القصّ القرآني الكريم مع استشفافنا لملامح شخصياته بكل يسر وسهولة ،إلا أنه لم يعتمد في عرضه على جانب توضيحي خيالي إيحائي

---

(١) تطور الرواية العربية الحديثة في مصر من ١٨٧٠ م إلى ١٩٣٨ م للدكتور عبد المحسن طه بدر : ١٩٥ ،طبعة عام ١٩٦٣ م .

(٢) الأدب القصصي والمسرحي في مصر في أعقاب ثورة ١٩١٩ م إلى قيام الحرب الكبرى الثانية ـ للدكتور أحمد هيكل : ١١٢ ـ ١١٥ الطبعة الثالثة .

(٣) راجع : القصة وتطورها في الأدب العربي للدكتور مصطفى عمر ٣٠٠ ـ ٣٠١ ـ الطبعة الأولى .

رمزي ، كما هو صنيع كثير من كتّاب البشر الذين أعجزتهم الحيل عن أن يصوروا نفسية أبطال الرواية إلا بالجنوح إلى هذه التوهمات التي قد تجلّي في نظرهم شيئاً مما أرادوه ،ولكننا قد أثبتنا غير مرة أن القرآن الكريم عندما يجلّي لنا بطل القصة ،بل وجميع أشخاصها ، نستطيع أن نحلّل النفسيات ،ونقف على معالم الأشخاص من غير أن يعطينا القرآن الكريم شيئاً من الأساليب الابتكارية ، والصور المطلية بالعبارات التوضيحية الخيالية ، فحينما غضب موسى حينما رأى قومه عبدوا العجل ، ولام أخاه هارون في تركه لهم ،نرى القرآن الكريم يعرب لنا عن نفسية موسى حينذاك وصنيعه تجاه قومه وأخيه هارون ،من غير أن يجنح إلى رمز أو خيال فيقول الحق عز وجل : ﴿ قال : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا * ألا تتبعن أفَعَصيت أمري *قال : يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول :فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقُب قولي ﴾ [سورة طه : ٩٢ - ٩٤] .

وقد لاح لنا في توضيح شخصية مريم ، ونوح ، ويوسف ، ويعقوب ، وما إلى ذلك من الأمثلة السابقة أن ملامح الشخصية في كل ذلك جاءت على غير عادة الكتّاب العصريين الذين اعتمدوا على اللوحة المطلية التي تجسد الكثير من المعاني لكي تعكس ما كان عليه الأشخاص من عادات ،ومثل ، وطباع ، وما إلى ذلك ،وما قصدت بهذا أن أعقد شيئاً من الموازنة فشتان بين رب عليم حكيم يتقن ويدبر ويحكم ، وهو قادر قوي ،وبين بشر عاجز ضعيف ، ولكنني أردت بذلك أن أثبت لمحة من لمحات الإعجاز في القصة القرآنية ، فإن حاول أحد أن يتمثل به ويتخذه سبيلاً ، فسرعان ما يحس بالعجز المطلق ، والضعف المؤكد ،ومن ثمّ يحس بنبضات القلب وهمسات الفؤاد ،وهي تشيد ببيان القرآن الذي ضلّت العقول فيه ، وحارت في قوة جماله ، وسحر معانيه ،وألفاظه .

إن الروائيين في عصرنا الحديث عندما حاولوا أن يقتبسوا شيئاً من

منهجه ،وطريقة سرده ، لابقصد المحاكاة أو المعارضة ، وإنما بقصد الإعجاب المطلق ، والإشادة بهذا العرض القصصي الذي يفيض عذوبة ومعنى رائقاً ،وتصويراً بلغ المدى ؛ أحسوا بأن القرآن الكريم فوق الطاقة البشرية ، ونسقه فوق كل بيان .

ارتباط الشخصيات وتفاعلها :

كل شخصيّة من شخصيّات القصة القرآنية لها دورها البارز في القصة وهي تتفاعل تفاعلاً تامّاً مع سائر الشخصيّات الأخرى ، بحيث تحس بأن هناك سلكاً منتظماً يجمع هذه الشخصيّات ذات الأواصر القوية ، وهو الذي يعرف ببطل القصة يرتبط بجميع الشخصيات ارتباطاً وثيقاً .

خذ قصة آدم مثلاً ، فآدم هو المحور في القصة فهو بطلها والشخصيات في قصته هم : حواء زوجته وشريكته في سكنى الجنة ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكُلا منها رغَداً حيث شئتما ﴾ [سورة البقرة : ٣٥] ، والملائكة أمروا بالسجود له ﴿ فسجد الملائكة كلّهم أجمعون ﴾ [سورة الحجر : ٣٠] ، وكان مصدر غواية وتضليل له ﴿ إلا إبليسَ لم يكن من الساجدين ﴾ [سورة الأعراف : ١١] . فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ماووري عنهما من سوءاتهما وقال : ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠] .

وهكذا تحس بالارتباط الوثيق بين بطل القصة وجميع الشخصيات بحيث لاتحس بأن هناك شخصية معطلة أو منعزلة عن أحداث القصة فهي كالحلقات يكمل بعضها بعضاً في سلك منتظم متين .

كما تحس بأن كل شخصيّة من شخصيّات القصة تؤدي دورها كاملاً في حركة متصلة ،فإبليس في قصة آدم له أدوار خطيرة ، حيث إنه أغرى آدم وحواء وحاول ما استطاع أن يصرفهما عن طاعة الله حتى نجح في مقصده ، ووصل إلى هدفه .

﴿ فأزلّهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين ﴾ [سورة البقرة : ٣٦] .

وفي قصة موسى عليه السلام ،نجد أن موسى يرتبط بشخصيات قصته ،فارتباطه بفرعون من حيث إنه ربي في بيته ﴿ فالتقطه آلُ فرعون ليكونَ لهم عدُواً وحزناً ﴾ [سورة القصص : ٨] ، ﴿ ألم نُربِّك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ ؟ [سورة الشعراء : ١٨] .

وارتباطه بهؤلاء السحرة الذين حاولوا دحض حجته ﴿ قالوا : يا موسى إمّا أن تلقيَ وإمّا أن نكونَ أوّلَ من ألقى ﴾ [سورة طه : ٦٥] ، ﴿ قال لهم موسى : ألقُوا ما أنتم مُلْقُون * فألقَوا حبالهم وعصيَّهم وقالوا : بعزّة فرعون إنا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقَفُ ما يأفِكون ﴾ [سورة الشعراء : ٤٣ ـ ٤٥] .

وفي بنات شعيب لأنه سقى لهما ، ثم تولّى إلى الظلّ ،ولأنه تزّوج إحداهنّ ﴿ قال : إني أريدُ أن أُنكحك إحدى ابنتيَّ هاتين ﴾ [سورة القصص : ٢٧] ، وهكذا تحس أن بطل القصة يرتبط بكلّ الشخصيات ارتباطاً وثيقاً .

وفي قصة موسى نرى أن شخصية فرعون لم تكن ساكنة خامدة ،وإنما أدت دورها ببراعة ، وكما ينبغي أن تؤديه ، حيث إنه حاج موسى حينما وجهه إلى عبادة الله ﴿ قال : فمن ربُّكما يا موسى ﴾ [سورة طه : ٤٩] . فأجابه موسى : ﴿ ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيء خلقه ثم هدى ﴾ [سورة طه : ٥٠] . ولكن فرعون ظلّ يطارحه فقال : ﴿ فما بالُ القرون الأولى . . . ﴾ الخ .

وفي قصة نوح ، نرى أن قومه ذكروا في القصة ،وبدت عليهم الحركة الدائبة ،والتفاعلات المتعددة ،فلقد أبرز الله عز وجل سخريتهم

واستهزاءهم برسالته . ﴿ ويصنعُ الفلك وكلّما مرّ ملأٌ من قومه سخروا منه قال : إن تسخروا منّا فإنّا نسخرُ منكم كما تسخرون ﴾ [سورة هود : ٣٨] .

ومن الواضح في شخصيّات القصّة القرآنيّة أنها شخصيّة لا ترد في القصة على نمط واحد لا يتمثل فيها عنصر التطوّر والتدرج والتغيير .

بل على العكس من ذلك ، نرى أن الشخصيّة القصصيّة ، ويتغير موقفها ،وتتعدّد اتجاهاتها ، وتختلف حياتها ، كما ظهر لنا كثيراً في أثناء عرضنا لكثير من القصص القرآنية ،وعلى سبيل المثال نرى أن شخصية نوح تتجلى فيها عاطفة الأبوّة الكاملة وقت أن طلب من ربه ما طلب في سبيل نجاة ابنه ﴿ فقال :رب إنَّ ابني من أهلي وإن وعدك الحقّ وأنت أحكم الحاكمين ﴾ [سورة هود : ٤٥] .

ولكنّه سرعان ما تغيّرت شخصيته تجاه ولده بعد أن قال الحق عز وجل له : ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ فقال نوح عليه السلام : ﴿ ربّ إني أعوذُ بك أن أسألك ما ليس لي به علمٌ وإلاّ تغفرْ لي وترحمْني أكنْ من الخاسرين ﴾ [سورة هود : ٤٧] .

وسحرة فرعون بعد أن بدت شخصيتهم المحبة للمال ،التّواقة للحصول على أجر سحرهم ، المستجيبة لأوامر فرعون ﴿ قالوا لِفرعون : أئن لنا لأجراً إن كنّا نحن الغالبين * قال : نعم وإنكم إذاً لمن المقرّبين ﴾ [سورة الشعراء : ٤١ ـ ٤٢] ، بعد أن بدت شخصيتهم بسمة الخنوع والخضوع والحرص على الحياة ، نرى أن شخصيتهم قد انقلبت ،وعقائدهم قد تغيرت ،وذلك بعد أن رأوا عظمة ما صنعه موسى حتى إنهم لم يؤثر فيهم التهديد الفرعوني ،ومن ثمّ نراهم يخرّون للأذقان سجّداً لله رب العالمين ﴿ نأُلقِي السحرةُ ساجدين * قالوا : آمنا بربِّ العالمين * ربِّ موسى وهارون * قال : آمنتم له قبل أن آذنَ لكم إنه لكبيرِكُم الذي علّمكم السحر

فلسوفَ تعلمون ، لأُقَطِّعَن أيديَكم وأرجُلَكم من خِلاف ولأُصلِّبَنّكم أجمعين ﴾ [سورة الشعراء : ٤٦ ـ ٤٨ ، ٤٩] .

لم يأبهوا بهذا التهديد ﴿ قالوا : لاضَيْرَ ﴾ أي لا ضرر يلحقنا بصلبك يا فرعون لأننا سنلقى الله عز وجل فيغفر لنا ما وقعنا فيه من ظلم ﴿ إنّا إلى ربّنا مُنقلبون * إنا نطمعُ أن يغفر لنا ربُّنا خطايانا أَنْ كُنّا أولَ المؤمنين ﴾ [سورة الشعراء : ٥٠ ـ ٥١] .

وهكذا في كثير من الشخصيات القرآنية ، نلمح أنها لا تقف عند اتجاه معين ، بل يتمثل فيها كثيراً عنصر التطور والاستجابة لما حولها من ملابسات ، ولا شك أن تطور الشخصية بهذا المفهوم يكسبها جمالاً ويولّد فيها الحركة والحيوية حتى تثمر ثمرتها ، وتعطي العبرة والعظة كاملة ، على عكس عرض القصص ذات الشخصيّات الجامدة التي لا نحسّ فيها بتقدّم ولا بتأخّر أو نموّ أو نقص ، فعلى ما فيها من جلب النفور للسامع والقارىء ، فليس حولها مغزىً كبير يمكن أن يستفاد منها .

وفي رأيي إن بعض نقاد القصة العصرية وضعوا نصب أعينهم هذا القصّ القرآني ، بما له من شخصيات حيّة متحركة ، حتى عابوا بعض الروايات التي تكون شخصيتها مستوية بشكل عام ، لا يتمثل فيها عنصر النمو والتطور والاستجابة للمؤثرات العامة أو الخاصة ، وما ينبغي أن تقدم الشخصية في صورتها النفسية الثابتة من البداية إلى النهاية [١] .

* * *

---

(١) الواقعية في الرواية العربية ـ د. محمد حسن عبد الله : ٤٧٥ .

الفصل الثالث
أحداث القصة القرآنية من حيث ترابطها وواقعيتها

وأما الحديث عن أحداث القصة القرآنية ، فإنها تدلّ على أنها مترابطة متسلسلة ،وهي كلها في سلك واحد منتظم ، لا غناء عن عنصر من عناصر الأحداث ،فكلّ عنصر له دوره في إبراز مقاصد القصة ،وما تجلّيها من عظة وعبرة .

ففي **قصة موسى** عليه السلام نرى أن من أحداثها على سبيل المثال :

١ ـ قتله النفس .

٢ ـ إقامته في مدين .

٣ ـ بعثته .

فنرى أن هذه الأحداث يكمل بعضها بعضاً ،وأن الحدث الثاني لاحق للأول ،وكالنتيجة له ،فقتل موسى للقبطي أدّى إلى حدوث الذعر والاضطراب في نفس موسى ،عليه السلام ، حتى أوجس في نفسه خيفة ،فأراد الله عزّ وجلّ أن يزيل عنه ستار هذا الخوف ،ويبدد عنه هذا الذعر الذي لحقه ،ولن يكون ذلك إلا بمغادرته مصر إلى مدين ، وإقامته في عشّ الزوجيّة بعد أن تزوّج بإحدى بنات مدين .

فإذا ما جاء الموعد المحدد لبعثته كانت نهاية خدمته التي قد قررها شيخ مدين صداقاً لزواج ابنته من موسى .

وهكذا نجد تتابع أحداث القصة ،ونرى أن جزئياتها يكمل بعضها بعضاً .

وقصة آدم عليه السلام تتكوّن مجمل أحداثها من :

١ ـ سجود الملائكة لآدم .
٢ ـ امتناع إبليس عن السجود .
٣ ـ طلبه النِّظرة إلى يوم الدِّين .
٤ ـ سكنى آدم الجنة وزوجه .
٥ ـ أكله من الشجرة .
٦ ـ هبوطهم إلى الأرض .

وهكذا نجد الترابط بين أحداثها ، فعصيان إبليس مرتّب على امتناعه عن السجود حينما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، فلو لم يأمر ربّ العزة والجلال الملائكة بالسجود ، لما امتنع إبليس عن السجود ، وامتناعه أدى به إلى عداوة آدم وذريته من الوسوسة لآدم في الخروج من الجنة ، ولولم يعص آدم ربّه بأكله من الشجرة لما بدت لهما سوءاتُهما وطفِقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وأهبطوا إلى الأرض .

وهكذا نجد أنّ كل حدث مرتبط بسابقه ، ولا يمكن أن يستغني عنه في جو القصة ، وهي في نفس الوقت أحداث واقعيّة ، ومتكاملة ، ومتناسقة ، نتائج ومقدمات .

وفي حديث إبراهيم مع ضيفه ، الحدث التمهيدي واضح فيها إذ أن رسُل الله من الملائكة حينما بشّروه بما بشّروا به ، جاءوا إليه بطريقة تدريجية ، فهم على هيئة بشر ، ومن ثمّ استحقوا الضيافة ، فلما رأى إبراهيم أنهم لايقبلون على طعامه علم أنهم ليسوا من البشر المألوف ، ذوي الطابع الخاص ، فأوجس منهم خيفة .

وحينذاك كانت الفرصة السانحة بعد هذا التهيُّؤ ، بأن يعلمه الملك بحقيقة الأمر ، وهي البشرى من الله ، فالأحداث الأولى عملية تمهيدية حتى تتمّ البشرى بروح مقبولة .

وهذه الصورة التمهيدية من قبل الملائكة وردت مع داود عليه

السلام ، حينما تسوّر الملكان عليه المحراب ، لإعلامة بأنه حاد عن الجادة ، كان مثل هذا المنظر غير مألوف ، ولم يألفه البشر ، ولم يتعودوا عليه ، فهو يثير النفوس ، ويجعل المرء في دهشة وذهول ، فما أشد على بني الإنسان أن يلحظ أمراً ليس من واقع حياته .

ومن ثمّ أراد الملكان أن يخفّفا من هول ما شاهد داود ، ويقلّلا من ذعره ، فحاولا أن يطمئنا نفسه ، ويطيّبا خاطره ، حتى يتمّ الائتناس بينهما وبينه ، فقالا : خصمان بغى بعضنا على بعض ، وحينئذاك نرى أن داود قد اطمأنت نفسه لهذين الرجلين ، وسكنت خواطره ، لأنه أيقن أنهما رجلان دخلا في النزاع والمشاجرة ، وما أحوجهما إلى داود ، وقد عرف بالفصل في المنطق ، ولذلك حكم عليهما من قولهما فقال : ﴿ لقد ظلمكَ بسؤال نعجتك إلى نعاجه ﴾ .

والطبيعة البشرية ، والنفس الإنسانية ، حينما ترى ظلماً صارخاً لايتناسب مع منطق العدل ، ولا يتواءم مع المحبّة والألفة والرباط الأخوي تشمئز منه ، وتحسّ بغضاضة ، ومن ثمّ يكون التبرّم والسخط ، وعلى هذا صدر حكمه ، ولكن هواتف قلبه ، وإحساسه الداخلي ، حيث أنه كان له تسع وتسعون امرأة ، وطلب امرأة شخص ليس له غيرها وتزوجها ودخل بها .

وقد ذكر المفسرون هنا قصة أكثرها مأخوذة من الإسرائيليّات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه (١) .

وهنا أدرك داود أن هذا الأمر إنما هو أمر إلهي ، وأنه اختبار من الله سبحانه له ، وأن ما أمامه ليسا متنازعين على الحقيقة وإنما هي صورة مجسّمة تشير إلى معنى إرادة الله عزّ وجل ، حتى يحسّ داود بوخز يؤنّبه ، وضمير يعاقبه ومن ثمّ تدارك هذا الوحي الإلهي فقال : ﴿ وظن داود أنّما فتنّاه

(١) تفسير الجلالين : ٦٠١ .

فاستغفر ربّه وخرَّ راكعاً وأناب ❊ فغفَرْنا له ذلك وإن له عندنا لَزُلْفى وحسنَ مآب ﴾ [سورة ص : ٢٤ ـ ٢٥] .

ودليل هذه الالتفاتة :

١ ـ التشابه في الأمر .

٢ ـ قوّى هذا التشابه أنه لمس أن هذين الشخصين ليسا عاديَّين بدليل أنهما جاءا بطريقة غير عاديّة ، لأنهما لم يأتيا من الأبواب باستئذان ، وإنما تسلَّقا السور .

٣ ـ ورجَّح هذا كلَّه ما ذكره صاحب الكشّاف أن داود بعدما حكم لصاحب النعجة نظر فلم ير أحداً ، فعرف ما وقع فيه [١] .

وفي قصة مريم حينما جاءها الملك من عند الله عز وجل ، رأينا أن أحداث القصة كانت متسلسلة ، حيث إن الملك جاء في صورة البشر ، حتى لاتنزعج مريم ، فترى شيئاً غير مألوف ، ومّما يدل على أنه أتاها في صورة بشر أنها استعاذت بالله منه .

الأمر الثاني : أنها ربطت كلامها بتقواه ، وذلك كله يدلّ على أنها عرفت أنه بشر عادي ، وعلى ذلك تم شيء من الائتناس .

ولكنها حينما ترى هذا الطلب الذي فيه هتك للعرض ، وضياع للشرف ومقت للفضيلة ، كان لابدّ أن يصارحها بأنه ملك من عند الله ، جاء إليها ليهب لها غلاماً زكيّاً ، فحينذاك تحوّلت بشريّته ، فأصبح ملكاً بمرأى عينها وقلبها ، ولكن العجب يحيط بها فكيف يهب لها غلاماً ولم يمسسها بشر ؟ ! ومن ثم فما أحوجها إلى اقتناع من هذا الملك بأن ذاك شيء في الإمكان ، وليس مستحيلاً ، معللاً ذلك بقوله : ولنجعلَهُ آيةً للناس ورحمة منّا وكان أمراً مقضيّاً ﴾ [سورة مريم : ٢١] .

---

(١) الكشاف للزمخشري ـ المجلد الثالث : ٣٧٠ .

وعلى هذا إذا تم الحمل ،ونفذ أمر الله ،لا تعيش مريم في دهشتها التي كانت متوقعة ،فلا تحسّ بحيرة واضطراب ،لأنها علمت أن الأمر من الله ،وأن الحكم حكم الله ﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصيّاً ﴾ [سورة مريم : ٢٢] .

وهي وإن كانت آمنت بحكم الله ،وصدّقت رسول الله ،وأيقنت بقضاء الله وقدره ، ولكنّها تحسب حساب مجتمعها ،فتخاف سطوة لسانه ،وتخشى من تهكّمه وإيذائه ،حتى قالت : يا ليتني مت قبل هذا ﴾ [سورة مريم : ٢٣] .

ولكن صاحب الأمر ﴿ كن فيكون ﴾ لابدّ أن يخفّف عنها هذا العناء ،ويقلّل من هذا السلاح الاجتماعي الرهيب ،حتى كلّمها طفلُها فهدّأ من نفسها ،وأزال شيئاً من خوفها قائلاً :﴿ألا تحزني ﴾ .

ثم بعد ذلك تكلم وهو طفل صغير فقال : ﴿ إني عبدُ الله آتانيَ الكتاب وجَعلني نبيّاً ﴾ [سورة مريم : ٣٠] ،فحينما تكلم من تحتها ليثبت أمه ،ويزيل عنها شيئاً من القلق .

وحينما تكلّم في المرّة الثانية ،ليدفع عنها أذى قومها ،لأنهم إذا رأوا طفلاً صغيراً يتكلّم ،فمعنى ذلك أنّ الأمر كلّه غير عادي ، وعلى هذا فإن مريم في نقائها وصفائها وعلوها وشرفها ، وهي بريئة من كلّ ريبة وبعيدة من كلّ فِرية ، فهي عنصر شريف ﴿ ما كانَ أبوكِ امرأ سَوْءٍ وما كانت أمُّك بغِيّاً ﴾ [سورة مريم : ٢٨] .

وقصة سليمان مع الهدهد ، نرى أن هذه القصة تحتوي على أحداث متعددة منها :

الحدث الأول : حدث غياب الهدهد .

الحدث الثاني : إتيان بلقيس .

الحدث الثالث : دخولها الصرح .

والحدث الأول مرتبط بالقصة تمام الاتباط ، حيث أن الهدهد كان دليلاًقوياً على أن معجزة سليمان الخالدة أنه كان يفهم لغة الطير ويسخرها تحت أمره ومشيئته .

وليس أدلّ على ذلك من أنه عجب أشدَّ العجب حينما طالت غيبة الهدهد عنه ، ومن ثمّ رأى أنه يستحق العذاب ، أو يقيم عليه العذاب ، وقد يعفيه من هذين الأمرين إذا كانت غيبته لأمر « ما » ، كأن كان يتلقف نبأ ، أو يأتي بخبر لا يعلمه سليمان ﴿ فقال : ما ليَ لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذِّبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنَّه أو ليأتينِّي بسلطان مبين ﴾ [سورة النمل : ٢٠ - ٢١] .

فهذا دليل قاطع على أن حدث الهدهد يدلّ على أن طيوراًكانت مسخرة لسليمان ، وكان يعرف لغتها ، ويعي دلالتها ، ويدرك إشارتها ، وتلك معجزة من معجزات الله عزّ وجل ، فقد سخّر الله ، عزّ وجل ، له الكثير من خلقه ، سخّر الريح ، والشياطين ، والطيور ، حتى يكون قد استجاب الله عز وجل لدعوته حينما طلب من ربّه أن يؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ﴿ قالَ : ربِّ اغفر لي وهبْ لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي إنك أنت الوهّاب ﴾ [سورة ص : ٣٥] .

كما أن حدث الهدهد كان دليلاً قاطعاً أمام سليمان على أن هناك قوماً تركوا عبادة الله ، وانصرفوا إلى عبادة الشمس ، فكان ذاك أدعى لسليمان من أن يقوم بتوجيهه السماوي ، فينشر رسالته وهو نبي من أنبياء الله .

فيوجه الدعوة إلى عبادة الله ، مع نبذ عبادة الشمس التي فيها الأفول ، والمحق ، والزوال ، أما عبادة الله ففيها الخلود ، والبقاء ، والدوام .

ومن هذا كله يدرك أن حدث الهدهد عنصر أصيل في القصة ، وجوهر مكين في كيانها ، ولايمكن أن تستقيم أحداث القصة ، وتؤدي مغزاها التي

سيقت من أجله إلا بهذا الحدث ، الذي هو بمثابة البداية والمقدمة لعرض أحوال بلقيس وقومها .

أما عن حدث إتيان عرشها فله مدلولات في القصة قويّة ، ومغزى يدركه من تأمل فيها ، إذ أن إتيان هذا العرش على ما فيه من تثبيت لبلقيس ، وتهيئة نفسها لعبادة الله عز وجل ، وترك عبادة الشمس التي هي خلق الله .

حيث أن بلقيس قد ظن أنها المخلوق الوحيد التي قد ازدهى عرشها ، وجمل ملكها ، وتزيّن سريرها ، وهذا ربّما يكون مبعث غرورها وسرّ عدم استجابتها ، فإذا ما لاح لناظرها هذا العرش الذي أتى به عفريت من الجنّ ، قد تهدأ نفسها شيئاً « ما » ، ويذوب شيء من كبريائها ، فليست وحدها التي تملك العروش الزاهية ، ومن ثمّ يملكها الكثيرمن الناس فليست وقفاً على أحد ، ولا خاصة لنوع معين من الناس ، فما بالكم وأن هذا العرش هو عرشها ، وهنا يحار العقل : كيف نقل هذا العرش من بلد مترامية الأطراف ، بعيدة الأغوار ، تبعد المسافة الطويلة بينه وبين ملك سليمان ؟ لا تتأتّى قدرةٌ بشرية أن تحمل هذا البنيان الشامخ ، وتنقل على عاتقها هذا الطود الأشمّ ، اللهم إلا إذا كانت هناك قدرة خفية حملته على عاتق القدرة الإلهية ، والعظمة العلويّة ، لقد فام الذي تتلاشى أمامه كلّ السلطات ، وقدرته التي تضعف أمامها كلّ قدرة ، فأتى بهذا العرش في لحظة وجيزة ، ونظرة خاطفة .

ومن ثمّ شكر سليمان ربّه : ﴿ فلما رآه مستقرّاً عنده قال : هذا من فضلِ ربّي ليبلوَنِي أأشْكُرُ أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكرُ لنفسه ، ومن كفر فإنّ ربي غنيٌّ كريم ﴾ [سورة النمل : ٤٠] .

على أن هذا العرش يمثل معجزة من المعجزات التي أعطاها الله سبحانه لسليمان ، وتقرب أموره الخارقة للعادة للمدارك العقلية ، فحمل

العرش يتوافق مع تسخير الريح ،ويتوافق مع تسخير الشياطين ،مما يقرب معجزات سليمان عليه السلام .

فكم من شيطان سخّر لسليمان ،يغوص ويأتي له بالدرر ،ويكابد فيقيم له ما شيد بناؤه ،وقوّم سمته .

على أننا عند تأملنا لبلقيس وقد عرض عليها هذا العرش في ملك سليمان ،نرى أن القرآن الكريم ينقل إلينا ماحدث لها عند رؤية هذا المشهد ، فالقرآن الكريم يقول :﴿أهكذا عرشُك ﴾ [1] ؟ ! فقالت : كأنه هو﴾ [سورة النمل : ٤٢] .

فهذه الآية الكريمة تدلُّ على أن بلقيس فطنت إلى المشابهة التامة بين عرشها الذي تركته في ملكها ،وبين هذا العرش الذي لمحته في ملك سليمان .

ولكنها تستبعد كلّ البعد ،وجرياً على ما هو مألوف أن ينقل عرش من مكان إلى مكان مهما كانت المسافة قصيرة ،فما بالكم والكون شاسع بين ما كان فيه ، وما نقل إليه ،فآثرت التشبيه بكأن ،ولم تؤثر التشبيه بالكاف ،إذ أن التشبيه بكأن يأتي إذا كان المشبه قريباً من المشبه به ، أما التشبيه بالكاف فيرى البلغاء أنه يأتي مع البعد بين المشبه والمشبه به .

أما عن هذا الصرح الذي قد شيّده الجن لسليمان ،ففيه العظة والعبرة ،كلّ العظة والعبرة ،فلو صحّ ما قيل بأن سليمان كان يرغب [2] في زواجها ،لكان دخولها الصرح الذي يتشكل بشكل الماء دافعاً لانصرافه عنها ،حيث أنه رأى منها مالا يحب أن يراه ، وذلك حينما كشفت عن ساقيها ،ظنّاً منها أنها لاتدخل صرحاً مّمرداًمن قوارير ،وإنما تشق طريقها في

---

(١) العرش :سرير الملك ، وكان مرصعاً بالجواهر .

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير- المجلد الأول : ١٣٢ - ١٣٣ الطبعة الثانية .

المياه ، فرأى منها شعراً على رجلها فانصرف عنها ،وهذا سبب قوي في أن إرادة الله عز وجل هي النافذة .

وكما يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسولُه أمراً أن يكون لهم الخِيَرةُ من أمرهم ﴾ [سورة الأحزاب : ٣٦] .

وهكذا نلمح أحداث القصة ،ذات هدف ومغزى ،ومرتبطة تمام الترابط ،وتومىء إلى وقائع لو تأمل فيها المدقق لأحس بالعظة والعبرة ،ففيها القدرة الإلهية البالغة ،وفيها الحكم الرائعة ،وفيها تصوير للذكاء البشري ،والعقلية الإنسانية .

أليس أدلّ على ذلك من أن بلقيس حكمت بنبوة سليمان بعدم قبوله الهدية ﴿ وإني مرسلةٌ إليهم بهديّة فناظرةٌ بم يرجع المرسلون ۞ فلمّا جاء سليمانَ قال : أَتُمِدُّونَن بمالٍ فما آتانيَ الله خيرٌ مما آتاكم ،بل أنتم بهديّتكم تفرحون ﴾ [سورة النمل : ٣٥ ـ ٣٦] .

يقول الدكتور شوقي ضيف :« ومن هنا تأتي صعوبة القصة ، فهي ليست سرداً قصصيّاً كما قد تبدو ،وإنما هي خلق وضبط وإحكام ودأب في أن يبث القصاص في قصته ما يجعلها خليقة بالبقاء »(١) .

---

(١) في النقد الأدبي للدكتور شوقي ضيف ـ الطبعة الرابعة : ٢٢٩ .

ولعل سائلاً يسأل :إن عدم قبول الهدية لا يكفي دليلاً تستدل به بلقيس على نبوة سليمان ؟

والجواب : إن بلقيس حينما وصلها كتاب سليمان الداعي لها للإسلام ،أرادت أن تجرّب هذا الداعية ، هل هو طالب ملك وسلطان ؟ أم هو داعية إلى حق ؟ فلما ردّ هداياها تأكدّت حينئذ من صدق دعواه ،فقدمت إليه مذعنة .

والحادثة : عبارة عن سلسلة حوادث في قصة يرتبط بعضها ببعض بروابط السببية في سبيل تكوين حبكة لها بداية وتطوير ونهاية .

راجع : معجم مصطلحات الأدب ـ د . مجدي وهبة ـمكتبة لبنان : ١٩٧٤ م صفحة : ٥ .

ومع أن هذه الأحداث جاءت في أسلوب حركيّ يدفعها لكي تصل إلى النهاية دون تعثر أو وقوف ، إلا أننّا نرى أن بعض الأحداث قد تقف أحياناً عند تجاوزها بحدث أخر ، حتى قد يظن أن شيئاً من التسلسل الحركي قد انقطع ، ولكن في الحقيقة إن هذا التوقف الحدَثي المؤقّت دعامة أساسية من دعائم بناء القصة القرآنية ، وعنصر هام من عناصر تشويقها ، فتوقف هذا الدفع الحدثي أجلى طبيعة الحبك الفني في القصّة القرآنية الشريفة ، وعلى سبيل المثال « حجز بنيامين بعد أن وجد الصواع في وعائه » .

فمصير بنيامين أصبح مجهولاً حتى يذهب إخوته إلى أبيهم ، وقد عرّفوه بالحقيقة التي عرفوها ، فحدث بنيامين قد توقف قليلاً ، ولكنه ما توقف إلاّ لكي نستمع إلى حدث آخر ، وفيه شيء من الاتباط الوثيق بينه وبين هذا الحدث الذي يظن أنه قد توقف كما يفهم من قول يعقوب : ﴿ يا بنيّ اذهبوا فتحسّسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ [سورة يوسف : ٨٧] .

ومن مثل قصة موسى ما إن توقف حدث قتله للقبطي ، وبدت أحداث أخرى تنجلي في القصة القرآنية ، كموقفه من ابنتي شعيب ، وزواجه حتى يعود الحدث الذي اختفى ، بعد أن يرسله الله عز وجل إلى فرعون إلى غير ذلك من أمثلة ما ينقطع الحدث إلا لبناء القصة وحبكها حبكاً قوياً .

وإنني أرى أن تسلسل أحداث القصة القرآنية ودفعها بهذا السحر العجيب ، وما لها من أسلوب حركي بديع ، ربما أنه لفت أنظار بعض النقاد العصريين الذين اهتموا بأدب القصة ، حتى وضعوا معايير فنيّة لصياغة القصة ، فاشتقّوا الكثير من تلك الأحداث القصصية القرآنية ، فيرون « الصياغة الفنية ليست مجرد تشكيل أحداث القصة فحسب ، بل هي كذلك المحرك الذي يحرّكها ، ويتحرك معها في إطار الحبك الفني ، وما يقتضيه من ترتيب المواقف وتنسيقها تقديماً أو تأخيراً إجمالاً أو تفصيلاً ، مع الربط الوثيق

في ترتيب المواقف والأحداث في ترتيب مقنع يقوم على أساس الاقتناع القائم بين القصة وقارئها »[1] .

أما من حيث واقعيتها ، فكلمة حق إن الأحداث كلما كانت مأخوذة من واقع الحياة ، صادقة في الكشف عن جوانبها ، جادّة في الوصول إلى ما حولها ، وما يحيط بها ، كانت القصة التي تذخر بتلك الأحداث قصة لها وقعها النبيل على النفس .

فإننا لو تأملنا القصّ القرآني ، لوجدناه كالعدسة النقية الجلّية التي تشفّ أحوال الأمم ، وتسجّل ماضيها مع الكثير من الأنبياء والرسل .

والقصة القرآنية كثيراً ما أعربت عن دور الرسل في نشر الدعوة والعقيدة السماوية ، وأفصحت عن نوايا النفس ، ومكنون الخواطر بأسلوب بلغ المدى في الفصاحة والبلاغة ، وما ينبغي لأحد أن يصف القصة القرآنية بأنها أسطورة من الأساطير ، اللهم إلا إذا كان من أهل الوثنية والشرك ، وأهل الزيغ والضلال .

وصدق الله عز وجل حينما سجّل عليهم عنادهم ، وحكى افتراءهم فيقول عزّ من قائل : ﴿ وقالَ الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاؤوا ظلماً وزوراً ❊ وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ [سورة الفرقان : ٤ ـ ٥] .

ولقد ردّ الله سبحانه وتعالى على هؤلاء ، لكي يبطل ادعاءاتهم الكاذبة ، فأبان عزّ وجل عن أن هذا القرآن الكريم كله ، بما فيه هذا القصّ القرآني ، منزل من عند الحق عز وجل ، الذي يعلم السرّ وأخفى ﴿ قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ [سورة الفرقان : ٦] .

---

(١) صور ودراسات في أدب القصة ـ حسني نصار ـ ص : ٧٣ ، طبعة عام ١٩٧٧ م .

إن القرآن الكريم بما فيه هذا القصّ كله حق ، وليس فيه زيغ ولا اختلاق ﴿ بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ،ولّما يأتهم تأويلُه ،كذلك كذّب الذين من قبلهم ،فانظر كيف كان عاقبةُ الظالمين ﴾ [سورة يونس : ٣٩] .

إن القصة القرآنية قصة تمثل أحداثاً حقيقية ،وجوانب ملموسة ،ومشاهدَ قد تمّ وقوعها ،فليست القصة القرآنية جانباً خرافياً ، أو حادثاً وهميّاً ، أو أمراً اختلاقياً ، أو عنصراً ما كان إلا للتزييف والمبالغات الوهميّة ،حبّاً في الإثارة المصطنعة ،وجمع الآذان التي تطيب لكثير من الأحداث التي بنيت على الحدث والتخمين .

إننا لو تأملنا أحداث القصة القرآنيّة جزئيّة جزئيّة ،لكنّا صادقين في القول بأنها أحداث الوقائع الملموسة التي قد شوهدت في زمن من الأزمنة ،وهي بعيدة كل البعد عن أي مبالغة ممقوتة ، والأدلّة على ذلك لاحصر لها .

ففي قصة موسى مثلاً حينما ذكر الله عز وجل موقف موسى حينما شاهد فعل السحرة التابعين لفرعون ،وما رآه بعينه من سحرهم ،وقد أصيب أولاً بشيء من الخوف ، يحكي الله عزّ وجل هذا الحدث ،وينقله للقارىء والسامع بصورته الملموسة الواقعية ،فيقول عز من قائل : ﴿ يُخيّل إليه من سحرهم أنّها تسعى ﴾ [سورة طه : ٦٦] ،فإن حقيقة الأمر أنّ سحرة فرعون حينما ألقوا حبالهم وعصيّهم تخيّلها موسى من عظمة السحر أنها حيات تتحرك وتسعى على بطونها ،حتى أحسّ موسى الخوف في نفسه بمقتضى الطبيعة البشرية ،إن القرآن الكريم يقرر الحقيقة ،ويحكي ما حدث فعلاً بدون تزييف أو مبالغة ،ولننظر إلى ما حدث بعد أن ألقى موسى ما في يمينه فإذا هي تلقف ما يأفكون .

إن القرآن الكريم حكى أثر ذلك في نفوس سحرة فرعون ،حكى ذلك من غير أن يضيف عنصراً يشوق آذان السامع أو القارىء ،فقال عزّ من

قائل : ﴿ فألقي السحرة سجّداً قالوا آمنّا بربّ هارون وموسى ﴾ [سورة طه : ٧٠] ،إنها آية قرآنية واقعية ،وليست تهويلية .

ولننظر إلى قصّة نبيّ الله شمعون ،وهو من نسل هارون وطالوت فإن الله عزّ وجل حينما أبان عن نيّة هؤلاء القوم ،وأفصح عن عزيمتهم التي تدلّ على نيتّهم الصادقة ، فإن كانوا حقّاً أحبّوا الجهاد والقتال في سبيل الله ،فإنّهم إذا مرّوا بنهر وهم على حالة العطش الشديد ولم يشربوا منه كما أمرهم بذلك طالوت ،فإنهم صادقوا النية ،ولهم الإرادة التي تمكنهم من الجهاد في سبيل الله ،يذكر الله عز وجل هذه القصة فيقول :﴿فلمّا فصلَ طالوتُ بالجنودِ قالَ إن الله مُبْتليكمُ بنَهَر ،فمن شرب منه فليس مني ،ومن لم يَطْعَمْه فإنّه منّي إلا من اغترَف غَرْفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم ،فلمّا جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا : لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ [سورة البقرة : ٢٤٩] .

فيا ترى ،هل القرآن الكريم حينما أراد أن يصفي أتباع طالوت ليعرف منهم الصادق والكاذب ،هل اختار لهم طريقاً يجلّي حقيقتهم غير مرورهم على النهر ؟

أم الحقيقة ابتلاؤهم بذلك النهر فقط ،فمن صبر على عطشه مع اجتيازه تلك المياه كان ذلك دليلاً على قوّة صبره .

إن القرآن الكريم ليست أحداث قصصه خيالية أو وهمية ،بحجة أن القصّة القرآنية لها جسم وهيكل للحكاية ،والجسم والهيكل غير مقصود ،وأما المقصود حقّاًفهو باقي القصة من توجيهات دينيّة أو خلقية (١) .

لقد زعم بعض الباحثين ،ومنهم الشيخ محمد عبده (٢) ،أن القصص

---

(١) راجع :الفن القصصي في القرآن لمحمد أحمد خلف الله : ١٩٧ طبعة عام ١٩٥١ م .

(٢) المنار لمحمد رشيد رضا ـ تفسير قصة هاروت وماروت ،الجزء الأول : ٣٩٩ .

القرآني جاء في القرآن لأجل العظة والاعتبار ،لالبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين ،وإنه ليحكي من عقائدهم الحقّ والباطل ، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ،ومن عاداتهم النافع والضار ،لأجل العظة والاعتبار .

وقد يأتي في الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكي عنهم ،وإن لم تكن صحيحة في نفسها ،مثل : ﴿ فلما بلَغ مطلِعَ الشمس ﴾ .

وفي الحقيقة أن الشيخ محمد عبده مصيب في قوله بأن القرآن الكريم يحكي في قصصه الحق والباطل ،والصادق والكاذب ،والنافع والضار ،لأجل الموعظة والاعتبار .

وهذا واضح ملموس في كثير من القصّ القرآني ،مثل عبادة العجل فهو أمر باطل ،وعبادة الأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع ،وعقر الناقة ، وتطفيف المكيال والميزان ،وما إلى ذلك من أمور باطلة .

أما عن كلامهم الكاذب ،مثل قول الحق ، عزّ وجل ، على لسان فرعون ﴿ قال : إن رسولكم الذي أُرسِل إليكم لَمَجْنُون ﴾ [سورة الشعراء : ٢٧] .

أما عن القول الصادق ،مثل قول الله سبحانه وتعالى على لسان سحرة فرعون الذين آمنوا بموسى : ﴿ قالوا : لا ضير إنّا إلى ربِّنا منقلبون * إنا نطمع أَنْ يغفرَ لَنا ربُّنا خطايانا أن كُنّا أولَ المؤمنين ﴾ [سورة الشعراء : ٥٠ ـ ٥١] .

فما دامت القصة القرآنية تتحدث عن حياة أمة من الأمم ، فهي تتناول سيرتهم التي تحمل جانبي الخير والشر ،والحقّ والباطل ،على أن كلّ رسول إذا بعث في قوم فقد يجد فيهم من يصغي لقوله ،ويستجيب لندائه ،وقد يجد فيهم من تحجّر قلبه ، وتبلّدت عقليته .

ومن ثمّ كانت القصّة القرآنيّة تمثل هذه الجوانب المتباينة ، وإن كنّا نؤمن جميعاً بأن القصّة القرآنيّة هدفها الأسمى العظة والاعتبار ، كما يفهم من قول الحق عزّ وجل : ﴿ لقد كانَ في قَصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ﴾ . ولكني لا أؤيد ما ذهب إليه الإمام محمد عبده من أن القصّة القرآنية ما جاءت للحمل علىٰ الاعتقاد بجزئيات الأخبار .

إذ أن الحق تبارك وتعالى بعد أن بينّ في صدر الآية أن القصّة للعبرة ، نراه يقول : ﴿ ما كان حديثاً يُفْتَرى ولكنْ تصديقَ الذي بينَ يدَيه وتفصيلَ كلِّ شيء وهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون ﴾ [سورة يوسف : ١١١] .

فما دامت القصة حقّاً ، وليس فيها افتراء ، فلزاماً علينا أن نعتقد ونصدّق كل جزئيّة من جزئياتها ، وخصوصاً أننا في الأمثلة السابقة أثبتنا أن كل جزئية بعيدة عن الزيغ والتهويل ، لأنها تحكي الواقع ، وتسجل الأحداث كما هي .

حقاً إن الشيخ محمد عبده مصيب في قوله : « لأن الحكاية قد تأتي بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين ، أو المحكيّ عنهم ، وإن لم تكن صحيحة في نفسها» إذ أن ذلك في رأيي يؤيد ما أقوله بأن القصة القرآنية قصّة واقعيّة في كلّ ملامحها حتّى كانت المعاني المألوفة على ألسنة شخصياتها تُحكى كما هي ، وإن لم تكن قريبة من الأفهام لكي تكون القصة معبرة تماماً ، ومسجّلة المفاهيم التي ألفتها الأمم بدون زيادة أو نقصان .

لقد فطن النقد الحديث [1] إلى أن الأدب الواقعي لن يكون إلا إذا كان يقوم على ملاحظة الواقع وتسجيله ، لا على صورة الخيال وتهاويله مما يتعارض مع الأدب الرومانسي .

وإذا تأمّلنا لهذه القصص القرآنية التي تحكي الصفات النفسية الغريزية

---

(١) الواقعية في الرواية العربية ـ د. محمد حسن عبد الله : ٣٣ طبعة عام ١٩٧١ .

البشرية المقوتة ،كالحسد ،والتعالي ،والغرور ،والكبرياء ،والتفاعل الاجتماعي غير السليم ،والقصور في التفكير ، والخضوع للبشريّة دون الله عز وجل ، والأنانيّة ، وحبّ الذات ، وإيثار مصلحة الفرد على الجماعة .

إذا تأمّلنا هذا كلّه ، أحسسنا بأنّ القصة القرآنيّة قصة موضوعية ومن ثمّ ،فهي قصّة واقعيّة ،وهي بهذا المعنى تبعد عن القصة الخيالية الوهمية ،التي لاتشف عن المشاكل الاجتماعية ،والأحداث التي تئن منها المجتمعات ،وتكتظ بها الحياة .

لقد تنبه النقد الحديث إلى أن الواقعية إنما تكون لإيقاظ وعي الجماهير ودفعها إلى حلّ المشاكل بطريقة أو بأخرى .

والقرآن الكريم كما سنذكر عند الفصل الرابع من الباب الثالث ،كانت قصصه كثيراً ما تهدف إلى غرس القيم النبيلة ،ومعالجة النفس البشرية والقصص القرآنية في جملتها تعليم ، وتهذيب تربية ، ومعنى هذا أنها بهذا المفهوم النقدي الحديث توصف تماماً بالواقعية ، ومعنى ذلك أن القصة القرآنية في هيكلها وأحداثها العامة ، وجزئياتها المتلاحقة وأهدافها السامية ، واعتمادها تماماً على تسجيل الأحداث كما هي قصة واقعية :

واقعيّة في صدقها ، حيث أنها لاتستمد أحداثها من الأساطير الخرافيّة .

واقعيّة في نقلها الأحداث كما هي .

واقعيّة في معالجتها لمشاكل الحياة .

ولعل النقد الحديث [1] حينما رفض أن تكون الرواية الفنية تقليدية ، لعله وضع في حسبانه أن الرواية التي تستقي أحداثها من الأساطير ، وتستمد من التاريخ حتى لو كان خرافياً موضوع قصتها وتسلسل أحداثها .

---

(١) راجع :تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ـ للدكتور عبد المحسن طه بدر : ١٩٤ ، طبعة دار المعارف ١٩٦٣ م .

إن القصة القرآنية قصة واقعية تذكرنا بأحداث الأمم ، وتدعونا إلى التأمل في سلوك جيل بعد جيل ، لكي نقف على حيلهم ، وما صنعوه تجاه رسلهم ، وفي ذلك دربة للعقول المفكرة ، وفي ذلك فليعتبر المعتبرون .

إن آثار الأسطورة على النفس إن أحدثت هزة ، فسرعان ما يضيع أثرها ، وينمحي بريقها .

أما القصة الواقعية فلن يضيع أثرها على النفس ، ولن تنطفىء شعلتها الموجهة للنفوس الهادية للحائرين ، إذ أن النفوس البشرية تسكن للحقائق ، وتطمئنّ لكل حدث سرى في الحياة ، لكي تقف على نهايته وتعرف نهاية الصالح ، وعاقبة الطالح .

أما الأحداث الوهميّة الخرافية ، فإذا كانت في أصلها أمراً مختلقاً وشيئاً مصنوعاً ، فكيف تشتاق النفوس لمعرفة غاياتها ، والوقوف على ثمرتها ، فالحدس والتخمين والافتراء أمر لا تقبله العقول فضلاً عن أن يحدث دويّاً في نفس القارىء أو السامع .

لله ! ما أحكم القصص القرآني ! وما أعظم صدقه ! وما أجل وقائعه ! وما أسمى أحداثه التي كانت أمينة في نقل المشاهد ، حتى كانت في قمة الفصاحة والبلاغة وروعة البيان والأداء ، ولا ريث ولا عجب فهي تنزيل من حكيم حميد .

إن واقعية القصّة القرآنية كانت مبرراً في سرد الأحداث بتفاصيلها حتى كان تأثير القصة القرآنية ليس مبعثه تخير موقف معيّن ، أو حدثٌ بذاته ، كما نشاهده في كثير من القصص التي اصطنعه كتّاب اليوم ، فهم لايستطيعون ـ كما لمس ذلك بعض الباحثين ، ومنهم الأستاذ أحمد أمين [1] ـ لا يستطيعون أن يقصّوا تفاصيل الأشياء جميعها ، إنما يتخيرون ما يعدّونه موضع التأثير .

---

(١) النقد الأدبي ـ أحمد أمين ـ ص : ٦٩ طبعة ١٩٦٧ م .

ومن ثمّ اختلف الفنانون ، فإن الأشياء لاتقع في نفوسهم موقعاً واحداً ، بل قد يتأثر كلٌّ بناحية غير التي يتأثّر بها الآخر ، فيخرجها كلٌّ كما تأثر بها ، وبهذا صبغ فنهم بالكمالية ، حيث أنهم لا يخرجون الشيء كما هو في الخارج ، ولكن كما يتصورونه ، ويتخيلونه ، ويتأثرون به .

وما كان لي أن أحدث شيئاً من المقارنة بين هذا القصّ البشري وبين هذا القصّ الربّاني ، فشتان بين قول المخلوق وقول الخالق .

ولكن قصدي أن أثبت الإعجاز القصصي الربّاني ، حيث أن واقعيته ، وسرد أحداثه ، لها قوة في التأثير ، وروعة في تحريك المشاعر من غير أن يكون فيها موقف معيّن أراده الحق عزّ وجل ، فإنّ كلّ سلسلة فيها ، وكل جزئية ، قد صورت الواقع ، لها ما لها من سحر خلاب ، وقوة بيان ، وحسن مغزى ، وعلى هذا اتسمت القصة القرآنية بسمات الإعجاز ، مادامت لم تجنح إلى الخيال في تأثيرها ، وإلى التقاط بعض المواقف لكي يكون وقعها على النفس أشد ، ورنينها على الأسماع أقوى نغمة .

إن واقعية القصة القرآنية ، وتتابع أحداثها ، وتسلسل أفكارها ، وترابط معانيها ، حتى كانت كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، أكسبها رونقاً وسحراً جذّاباً ، وأعطاها جمالاً لا ينكره أصحاب المواهب الفطرية ، والعقول المستنيرة ، والعواطف المتأجّجة بحرارة الإيمان .

إن كان هناك شيء من الخيال في القصة القرآنية ، فهو ليس مقصوداً لذاته ، ولا يمثل حلقة من حلقات القصة القرآنية ، وإنما أراد به الحقّ عز وجل أن يوضح حدثاً ويجليّه أمام العرب ، حتى يتمثلوا الوقائع التي حدثت عند الأمم الغابرة ولم يشاهدوها ، كأنها ماثلة أمام أعينهم .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وأمّا عادٌ فأُهلِكوا بريحٍ صَرْصرٍ عاتية * سخّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حُسوماً فترى القومَ فيها صَرْعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية ﴾ [سورة الحاقة : ٦ - ٧] .

فالله تبارك وتعالى أراد أن يُبيِّن لنا قوة الريح التي أهلكت عاداً وهم قوم هود ، فلقد سلّطها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعة لا تفتر ولا تنقطع ، فكانت النتيجة أن تركت هؤلاء القوم صرعى ، أي موتى ، لا حركة فيهم ولا حس ، فهذه حقيقة وأحداث تمثل الواقع ، ولكن الله سبحانه وتعالى لكي يوضح لنا حال تلك الجثث ، وهيئتها جنح إلى التشبيه الذي يقرب الأفهام ،فقال : ﴿ كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية ﴾ ، أي : كأنهم أصول نخلٍ متآكلة الأجواف ، فلقد حدّث[1] المفسرون أن الريح كانت تقطع رؤوسهم ، كما تقطع رؤوس النخل ، وتدخل من أفواههم وتخرج من أدبارهم حتى تصرعهم ، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف .

وهكذا كان التشبيه بأعجاز النخل لمسة من لمسات إجلاء الأمر أمام العرب الذين عرفوا النخيل ، فالخيال هنا القائم على التشبيه لم يغير مجرى الواقعية في القصة القرآنية ، وإنما جاء لنقل المشاهد غير المرئية في صورة المشاهد المرئية ، حتى يكون وقعها على النفس أشدَّ ، وتكتمل الصورة في عقل القارىء للقصة القرآنية .

وهكذا نحسُّ بأن إجلاء الوقائع بطريق التشبيه ، أو الاستعارات لا يخرج القصّة القرآنيّة عن واقعيتها ، بل بالعكس يبرز هذه الواقعية في ثوب محسوس ملموس .

وقد نرى مشهداً من مشاهد القصة القرآنية ،وقد يبدو للسطحيين لأول وهلة أنه محض خيال وأسطورة من الأساطير ،وذلك من مثل قول الحق عز وجلّ : ﴿ وإذْ نتَقْنا الجبلَ فوقَهم كأنّه ظلَّه وظنُّوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكُم بقوَّةٍ واذكُروا ما فيه لعلّكم تتقون ﴾ [سورة الأعراف : ١٧١] .

فرفع جبل الطور فوق بني إسرائيل حتى أصبح كالظلّة التي تظللهم

(١) صفوة التفاسير- للشيخ محمد علي الصابوني- الجزء التاسع والعشرون- ص : ٢٦ - الطبعة الأولى .

فخيّل إليهم أنه سيقع عليهم فيهلكهم هذا الأمر في نظر السطحيين مادام لايقبله العقل ،فما أشبهه بالخرافات ،وقد نسوا أن الذي قد رفع الجبل فوق بني إسرائيل ، وأمرهم أن يأخذوا ما آتاهم بقوة بدون تضجر أو تذمّر ، ويحافظوا على العهود والمواثيق أشدّ محافظة ، نسُوا أن الذي صنع تلك المعجزة الباهرة هو الحق عز وجل .

فقوة الله سبحانه وتعالى التي أهلكت قوم لوط ، وبدّدت قراهم وأغرقت قوم نوح بالطوفان ، وقوم هود بالريح العاتية ، هي التي رفعت هذا الجبل على غير العادة البشرية ،فإذا كان التاريخ يؤكد تلك الواقعة ولا ينكرها ،فإن العقلية المتفتحة ، والقلوب المستنيرة لاتنكر هذا الحدث فهو أمر سهل أمام عظمة الله سبحانه وسلطانه .

وقد ذكر السيد رشيد رضا [1] في تفسير المنار : « أن هذا المعنى من رفع الجبل ،وأمر بني إسرائيل أن يأخذوا ما آتاهم الله من الأحكام بقوة ، وأن يفعلوها دون تذمّر أو توقف ، يذكر السيد رشيد رضا في المنار أنّ هذا المعنى اعتُرض عليه بأنه إكراه على الإيمان ، وإلجاء إليه ، وذلك ينافي التكليف » .

ولكننا إذا علمنا أن كثيراً من الأمم السابقة حينما يشتد عنادها ، وتكثر مواقفها الدالّة على العلّو والطغيان ،كان لابد من عامل تهديدي يردعهم ،وقوّة علويّة تسيطر عليهم ، لعلّهم يرتدعون ،أو يعودون إلى شيء من رشدهم ،وقد حدث هذا في أكثر من موقف لبني إسرائيل ،ومن ذلك قول المولى تبارك وتعالى : ﴿ فأرْسَلْنا عليهم الطوفان والجرادَ والقُمَّل والضفادعَ والدم آياتٍ مُفَصّلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين * ولمّا وقع عليهم الرجْزُ قالوا : يا موسى ادعُ لنا ربُّك بما عهِد عندك لئن كشفتَ عنّا

(١) قصص الأنبياء ، لعبد الوهاب النجار ـ ص : ٢٢٩ .

الرجزَ لنؤمِنَنَّ لك ولنرسِلَنَّ معك بني إسرائيل ،فلمّا كشفنا عنهم الرجْزَ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثُون ﴾ [سورة الأعراف : ١٣٣ - ١٣٥] ، فارتفاع الجبل فوق بني إسرائيل لعله من باب الردع والزجر ، وخصوصاً أنهم أشدَّ استكباراً وأشد طغياناً ، فما أحوجَهم إلى مثل هذا .

ولست مع قول من يقول : إن جزءاً عظيماً من الجبل اقتُلع من مكانه أثناء رجفة أو زلزال ،ورأوه بأعينهم أسفل الجبل كأنّه ظلة ، وخافوا وقوعه بهم ،وذلك عند أخذ ميثاقهم على العمل بالتوراة ، على معنى أن يكون هذا العمل وليد الصدفة والتأثيرات الجوية الزلزالية .

ولكنني أؤيد ما ذهب إليه الإمام الشيخ محمد عبده من أن رفع الطور كان آية كونية ،على معنى أنه انتُزع من الأرض وصار معلَّقاً فوقهم في الهواء ،إنها آيات كونيّة ، ومظاهر خارقة ، تعجَز عنها البشريّة لتكون أدلّ على قدرة الله عزّ وجل .

وما القصة القرآنية في عمومها إلا داعية إلى الحق عز وجل وموجهة إلى سلطانه الذي لا ينفد ، وقدرته التي لا حدّ لها .

إن كان هناك مشهد من مشاهد القصة القرآنية فيه شيء من الغرابة التي لايتأنس بها العقل ، فمبعثه أننا نقيس الأمور بمقياس بشري ولكننا إذا رددنا الأمور إلى القدرة الخارقة ،والإعجاز الإلهي ،أحسسنا تماماً بأنها أمورٌ تقبلها النفس ، وتأنس بها النفوس المؤمنة .

إن القصة القرآنيّة ما ينبغي أن نصفها بالقصص الرومانسية البحتة التي هي مليئة بالغرائب والأحداث غير المبررة ،والتي ليست هي من وقائع الحياة ،كما نرى ذلك كثيراًعند بعض الكتّاب العصريين من مثل : « نداء المجهول » لمحمود تيمور [1] ، فهي مليئة بكثير من الأحداث التي تفيض

---

(١) الأدب القصصي والمسرحي في مصر للدكتور أحمد هيكل : ١٩٥ .

بالغرابة ، وتنقطع تماماً عن واقع الحياة .

إن وقائع القصّة القرآنيّة بعيدة كل البعد عن التوهّمات الباطلة وكانت جودتها ،وقوة سحرها الفيّاض ،ليست منبثقة من صنع الخيالات ،كما يصنع ذلك بعض القصاصين الخرافيينّ ،وإنما قوة سحر القصّ القرآنيّ يفيض من روعة تصويرها الحقيقي ،وجمال أحداثها الواقعية ،والتي لها ما لها من تبرير معقول ،وهذا سرٌّ من أسرار الإعجاز القرآني ، إذ كان تأثيره لا من باب التصنع والافتراضات الوهمية ،وإنما كان تأثيره لأنه يدور حول حلقات الوقائع ،ويسري بين كل لمسة من لمسات الحياة فكان قبسا يبدد الظلام ،ويلهمنا الحكمة والرشاد .

* * *

الفصل الرابع
ما تهدف إليه القصة من قيم ومعالجة إنسانية

على ما في القصّة القرآنية من عظات بالغة ،وذكريات لو تأمّلها كل عاقلٍ حصيف ، لعاد إلى رشده ، واختار لنفسه الطريق الأمثل ، فاستجاب لدعوةً الرسل ،ولقول الحقّ تبارك وتعالى ،كما أشارت إلى ذلك كثير من الآيات من مثل قول الله عزّ وجل : نتلُو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقِّ لقومٍ يؤمنون ﴾ [سورة القصص : ٣] ،وكما في الآية الأخيرة من سورة يوسف : ﴿ لقد كان في قَصصهم عبرة لأولي الألباب ،ما كان حديثاً يفترى ﴾ .

وكما أشرت كثيراًعند حديثي عن التكرار في القصة القرآنية إلى أن القصة بعرض أحداثها ،والوصول إلى نهايتها ، قد تهدف أول ما تهدف إلى أنْ يأخذ مشركوا مكة ،والمعاندون لرسول الله ﷺ من أحداث الأمم السالفة ، التأسي والعظة ،كما يقول الشاعر :

وإذا فاتك التفات إلى الماضي فقد غاب عنك وجه التأسّي

لقد اتضح لنا من أحداث القصة ،أنه على الباغي تدور الدوائر ، وأن الظلم عاقبته وخيمة ، فمن طغى وتكبّر واستبد بعباد الله ،وانصرف عن العبودية والامتثال للحق ، فسرعان ما يرى العاقبة الوخيمة ،والنهاية المؤسفة .

وقد تجلى ذلك في عرض كثير من القصص القرآني ،من مثل قول الحق عز وجل : ﴿ وقال موسى : ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة في الحياة الدنيا ،ربنا ليضلوا عن سبيلك ،ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم

فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال : قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعانِّ سبيلِ الذين لايعلمون *وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأَتْبعَهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * آلآن وقد عصيت قبلُ وكنت من المفسدين *فاليوم ننجِّيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ [سورة يونس : ٨٨ ـ ٩٢] ،وهكذا تحددت نهاية فرعون وجنوده بعد أن بدا منهم الصلف والغرور .

وأين فرعون الطاغية ؟ وهو القائل : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [سورة النازعات : ٢٤] ،والذي هدّد من آمن من السحرة ﴿ ولأصلِّبنَّكم في جذوعِ النخل ولتعلمنَّ أيُّنا أشدّ عذاباً وأَبْقَى ﴾ [سورة طه : ٧١] .

إنه لقي حتفه ومصيره الذي تقشعرّ منه الأبدان .

وقوم لوطٍ الذين ارتكبوا الفواحش ،وأتوا في ناديهم المنكر ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين *أئنَّكم لتأتونَ الرجالَ وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ،فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال : ربِّ انصرني على القوم المفسدين ﴾ [سورة العنكبوت : ٢٨ ـ ٣٠] .

ولكن الله تبارك وتعالى أنزل على هؤلاء بسبب فسقهم رجزاً من السماء ، وأباد قراهم ، وأهلك من فيها إلاّ من سار على الدرب المستقيم ﴿ ولمّا جاءَتْ رسلُنا إبراهيم بالبشرى قالوا : إنّا مهلكُوا أهلِ هذه القريةِ إنّ أهلها كانوا ظالمين * قال : إن فيها لوطاً ،قالوا : نحنُ أعلمُ بمن فيها لنُنَجِّيَنَّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين *ولمّا أن جاءت رسلُنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقالُوا : لاتخف ولاتحزن إنا منجّوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنّا منزّلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما

كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آيةً بَيِّنة لقوم يعقلون ﴾ [سورة العنكبوت : ٣١ - ٣٥] .

وقوم شعيب ، وقد ظهر سفههم واحتقارهم لنبيهم : قالُوا : يا شعيبُ ما نفقهُ كثيراًمما تقول ، وإنَّا لنراك فينا ضعيفاً ، ولولا رهطُك لرجمناكَ وما أنت علينا بعزيز ﴾ [سورة هود : ٩١] .

ناهيك عن قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ومواقفهم مع أنبيائهم التي أشرنا إليها في الفصول السابقة من الباب الأول .

على أن ما نريد أن نقرِّر في هذا الفصل ، هو الإشارة إلى أن القصص القرآني يوضِّح لنا في كثير منه ، أن الأخطار وإن أحدقت بالإنسان والأهوال وإن ألَمَّت به ، إلا أنه لايمكن أن يصيبه منها شيء طالما أن رعاية الله تحيط به ، فالله سبحانه وتعالى إذا شمل المرء بعطفه ، وأمدَّه بعنايته ، فمهما امتدت إليه يد البشرية ، وأحدقت به الأخطار من كلِّ جانب ، فإنه لن يصاب بسوء ، لأنه في حفظ الله سبحانه وتعالى ويتجلَّى ذلك في كلمة موسى عليه السلام ﴿ كلاَّ ، إن معيَ ربِّي سيَهْدين ﴾ وذلك حينما قال أصحاب موسى : إنَّا لمدركون ﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : إنا لمدركون * قال : كلَّا إن معي ربِّي سيَهْدين ﴾ [سورة الشعراء : ٦١ - ٦٢] .

لقد حفظ الله موسى من يد فرعون وهو طفل صغير ، وحفظه بعد أن قتل القبطي ، وحفظه من سطوة فرعون بعد أن وجّه إليه الدعوة الإلهية مع أخيه هارون .

ولقد تجلّت العناية الإلهية في حفظ يوسف الصدّيق ، فلقد ألقي في البئر ، وزجّ به في السجن ، واتّهم بما اتهم به ، ولكن النهاية كانت نهاية طيبة ، فلقد جمع بين الحسنين ، حيث إنه تولى السلطة فكان موزعاً للميرة ، ومن بين هؤلاء الذين كان صاحب السيادة عليهم هم أعداؤه ، أي : إخوته الذين كادوا له ، وتربّصوا به ، وفي النهايةكانت عودته

إلى أبيه مجبور الخاطر ، يحمل لواء الكرامة والسيادة والوقار حتى اعترف له من كادوا له بالفضل والعظمة : ﴿ قالُوا : تالله لقد آثَرَكَ الله علينا ﴾ ﴿ قال : لاتثريبَ عليكُم اليومَ يغفرُ الله لكم وهو أرحمُ الراحمين ﴾ [سورة يوسف : ٩٢] .

فالقصة القرآنية تعطينا الملامح الواضحة على أن الإنسان إذا شملته الرعاية الإلهية ، فلا يمكن أن تهزّه كارثة ، أو تحطّمه نكبة من النكبات ، إذ أن قدرة الله سبحانه وتعالى فوق كلّ قدرة ، وسلطانُ الله سبحانه وتعالى تتضاءل أمامه كلُّ الحيل البشرية ، والمكر السيّىء ، وذلك مما يلوح لنا كثيراً عند عرض كثير من القصص القرآنية ، ولاشك أن المرء إذا أيقن أن الأمور تجري بيد الله ، وأن ما يصيب الإنسان هو بقضاء الله وقدره ، فذاك أدعى إلى ثباته ، وقوة إيمانه .

كما تكون القصّة القرآنيّة عاملاً قوياً في ترسيخ العقيدة ، وقوة الإيمان ، وذلك بالتأمّل في عظمة الله ، وقدرته غير المتناهية ، أليس أدّل على ذلك من قصة عيسى ابن مريم ، حيث أن قدرة الله تمثّلَت في وجود عيسى من غير شهوة طبيعية ، مما يقوي تكامل الموجودات البشرية من زواياها الأربع الخلقة بدون ذكر أو أنثى كآدم ، وبذكر فقط كحوّاء ، أو بأنثى فقط كعيسى ، أو بهما معاً كسائر الخلق .

وأيضاً في عرض القصة القرآنية شيئاً غير مألوف من مثل تسخير الجنّ لسليمان عليه السلام ، ومن مثل فهمه لحديث الحيوان الأعجمي ، ومن مثل فهم الطيور ، وما إلى ذلك من المخلوقات ، كما قال الله تعالى : ﴿ وحُشِر لسليمانَ جنودُه من الجنِّ والإنس والطير فهم يوزعون * حتى إذا أتوا على وادي النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون * فتبسَّم ضاحكاً من قولها وقال : رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعملَ صالحاً ترضاه وأدخلني

برحمتك في عبادِك الصالحين ﴾ [سورة النمل : ١٧ ـ ١٩] .

نلمح العظمة الربانية ،والقدرة الإلهية التي أودعها الله في هذا المخلوق الضعيف ،حيث أن سليمان حينما تقدم جنوده في قمة العظمة ،وقد كانت هذه الجيوش طوائف من الجن والإنس والطير وكانت تجري وراءه على شريطة ألا تتقدمه في السير ، تعظيماً وتكريماً له ،فلمّا وصل هذا الركب إلى وادٍ بالشام عرف بكثرة النمل ،قالت إحدى النملات للرفيقات ، مسدية النصح لهن : ادخلوا مساكنكم لئلا يحطمنَّكم سليمان وجنوده من غير أن يحسّوا بكم .

على معنى أن جيوش سليمان كانت تسير على الأقدام ،والنمل من المخلوقات الضعيفة التي قد لايحس بها أحد ،فمن الممكن عند تحرُّك هذا الجيش السليماني أن يدوس هذا النمل من غير قصد .

إن الإنسان العاقل حينما يتأملّ هذا التفكير الذي فيه عمق وقد صدر من مخلوق ضعيف ،يحس بعظمة الخالق ،وبقدرة المولى عزّ وجل التي قد أودعها في مثل هذا المخلوق .

وما أروع قول الباريء عز وجل ﴿ وهُمْ لايشعُرون ﴾ ، هذه العبارة التي جاءت على لسان النملة ،وفيها تبرئة لسليمان عليه السلام أي أن هذا التحطيم بالأقدام إن حدث فعلاً ،فليس عن قصد ، لأن سليمان نبيٌّ من أنبياء الله ،وما كان له أن يعتدي على هذا المخلوق الذي هو من أضعف خلق الله .

وفي ذلك دلالة قاطعة على أن النملة أعطيت من العقل ما يدلّ على قوته ،وارتفاع شأنه ،فهو عقل ليس واهياً ضعيفاً مما يتناسب مع ضآلة الجسم ، فقد يعطي الله عز وجل عقلاً كبيراً في جسم صغير .

لقد أعجب سليمان عليه السلام بهذا المنطق حتى تبسّم سروراً بما سمع من هذا الثناء .

إن هذه الأشياء كلها تقوي ملكة الإيمان في الإنسان ، وتشعل اليقين في المشاعر ،لأنها تربط البشر بالحقّ عز وجل ،فهي تشدالقلوب ،وتأسر النفوس بمعرفة الله .

إن القلوب تثبت على العقيدة الراسخة حينما ترى إحياء الموتى يقربه إلى النفوس ، خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام حينما طلبه من ربه قال :﴿ربِّ أرني كيفَ تحيي المَوْتَى ﴾ [سورة البقرة : ٢٦٠] .

كما تطمئنّ النفوس وتسكن حينما ترى عيسى ابن مريم يحيي الموتى بإذن الله ،فيكون ذلك دليلاً على قدرة الله سبحانه وتعالى ،الخارقة وأن النشأة الآخرة يصدّقها العقل ،وكما يقول تعالى : ﴿ وإنّه لَعِلْمٌ للساعة فلا تَمْتَرُنَّ بها واتَّبعونِ هذا صراط مستقيم ﴾ [سورة الزخرف : ٦١] .

كما أن القلوب يشتد إيمانها ،وتقوى عقيدتها ،حينما ترى قدرة الله عز وجل التي تمثلت في عقوبة أصحاب الفيل ﴿ ألم ترَ كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألَمْ يجعل كيدَهم في تَضْليل * وأرسلَ عليهم طيراً أبابيلَ * ترمِيهم بحجارةٍ من سجِّيل * فجعلهم كعصفٍ مأكولٍ ﴾ [سورة الفيل : ١ - ٤] .

قدرة الله في إهلاك قرية ورفعها إلى الأعلى ، ثم خسفها حتى تدمّر كلّ من فيها من المعاندين المخالفين ، قدرة الله عز وجل في خرقها للنواميس ، فالعصا إذا ألقيت لاتصنع شيئاً مثيراً ، ولا تتحول حيّة تلقف ما يأفكون ، واليد إذا أخرجها الإنسان من جيبه لايتأثر لونها ،ولا تتّسم بشيء يلفت النظر ،لما لها من إشعاع طارىءٍ ، وذلك ما حدث لموسى : ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين *ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ [سورة الشعراء : ٣٢ - ٣٣] .

والنار من شأنها أن تلتهم ما أمامها ، ولكنها بقدرة خارقة كانت برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام ﴿ قلنا : يا نار كوني برداً وسلاماً على

إبراهيم ﴾ [سورة الأنبياء : ٩٦] .

وهكذا نلمح أن القصّ القرآني يغرس العقيدة في القلوب بما يعرضه علينا من ملامح خارقة ،وأحداث مثيرة ، تنم عن قدرة الله عز وجل .

وفي القصة القرآنية دعوة صريحة إلى الأخذ بالأسباب ،بعد أن يعتمد الإنسان على ربه ،ويستمد العون من خالقه سبحانه ،ويتجلّى ذلك كثيراً في أحداث القصة القرآنية ،فوضع موسى في التابوت ،وما حول ذلك من حيل كانت سبباً من أسباب نجاته من فرعون ،ولولا وضعه في التابوت لما وصل إلى فرعون ،وعاش داخل منزله ،ولولا أنه سقى لابنتَي شعيب لما تزوّج بإحداهما ،ولولا أنه حدّد يوم الزينة للسحرة لما آمن به من آمن ، ولولا أن الهدهد غاب عن سليمان عليه السلام لما أتاه بتلك الأنباء التي كانت سرّاً من أسرار نقل عرش بلقيس ملكة سبأ ،ولإعلانها الإسلام : ﴿ قالت : ربِّ إني ظلمتُ نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ [سورة النمل : ٤٤] .

ولولا زجّ يوسف في السجن لما اشتهر أمره بتفسير الأحلام التي كانت سبباً في أن الملك استخلصه لنفسه ، حتى مكّنه الله في الأرض ، فجعله على خزائن الأرض مما أدّى إلى التقائه بإخوته .

وذو القرنين وقد مكّن الله له في الأرض ،وآتاه من كلّ شيء سبباً ،ولكنّه ظلّ يأخذ بالأسباب ، ويعمل بالحيلة ،حتى وصل إلى ما وصل من مشاهد ذكرها القرآن الكريم ،وكثيراً ما يعقّب القرآن الكريم على الأحداث بقوله تعالى :﴿فأَتْبَع سبباً ﴾ ﴿ ثم أتبع سبباً ﴾ .

وهكذا نرى أن القصة دائماً وأبداً توحي بأن لكلّ شيء سبباً فهي تربط السبب بالمسبب ،والعلّة بالمعلول ، وكأنها تحفز القارىء والسامع إلى أن يهيّء نفسه ،ويأخذ بالأسباب ،وبأساليب الحياة وطرقها المتعددة ،مع اعتماده على الحقّ عز وجل حتى يصل إلى سفينة النجاة .

والقصة القرآنية تعوّدنا على الصبر والأناة ،وعلى تحمّل الشدائد في سبيل الوصول إلى الغاية المثلى ،فالرسل عليهم السلام كما صبروا على إيذاء قومهم ، وتحمّلوا الشدائد في سبيل نشر دعوتهم حتى كانت الغلبة لهم ،كما يفهم من قول البارىء عزّ وجل مرشداً رسوله ﷺ :﴿فاصبِرْ كما صبرَ أولوا العزم من الرسل ولا تستعجلْ لهم﴾ [سورة الأحقاف : ٣٥] .

والقصة القرآنية طريق من طرق الحياة المستقيمة ،فهي منهاج الدعوة ، يتجلّى فيها الحكمة والموعظة الحسنة ،فأسلوبها يمتاز بالمحاورة الهادئة ،والأسلوب المقنع ،وهي بذلك تعودنا على المحاورة الجادّة ، وأساليب الإقناع التي يجب أن يلتزمها الداعية ، فجميع الرسل لاتأمر وتنهى بأسلوب عنيف ،وبعبارة غير مدللة ،وإنما تلتزم الأسلوب المنطقي ،والأدلة المكشوفة ،والمقدمات الموصلة إلى النتائج ، ومن ثمّ يكون لكلامهم شيء من الاستجابة ،ولدعوتهم آثار عند القلوب المفتوحة ، أما من طمس الله على قلبه ،وأعمى بصيرته ، فلن تفيده الحكمة ، ولن ترده الموعظة الحسنة حتى يظلّ فؤاده مغلقاً ، وبصيرته مطموسة ،وصدق الله عز وجل حينما حكم على المعاندين من بني إسرائيل ، وقد لاح لهم الكثير من الأدلّة التي تكشف عن عظمة الخالق ،ولكنهم لم يقتنعوا برسلهم ﴿ ثُمّ قست قلوبكُم من بعد ذلك فهي كالحجارةِ أو أشدُّ قسوة ،وإنّ من الحجارة لما يتفجرًّ منه الأنهار ، وإنّ منها لما يشَّقَّق فيخرج منه الماء ، وإنّ منها لما يَهبطُ من خشية الله ،وما الله بغافلٍ عمّا تعملون﴾ [سورة البقرة : ٧٤] .

إن القصة القرآنية مع التزامها بالأسلوب الهادىء ، والحكمة البالغة ، إلا أنها تصوّر لنا كثيراً من عناد المعاندين ،كما يتضح ذلك جليّاً من قوله تعالى :﴿وإذاستسقى مُوسى لقومِه فقُلْنَا اضربْ بعصاكَ الحجرَ فانفجرَتْ منه اثنتا عسرةَ عيناً قد علم كلُّ أناسٍ مشربَهُمْ كلُوا واشربوا من رزقِ الله ولا تعثَوا في الأرض مفسدين *وإذ قلتم : يا موسى لن نَصْبِرَ على طعامٍ واحد

فادْعُ لنا ربَّك يُخْرِج لنا مما تُنْبِتُ الأرضُ من بقلِها وقثّائها وفومِها وعدسِها وبصلِها ،قالَ : أتستبدلُون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ ، اهبطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم ،وضُربت عليهم الذلّةُ والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله ،ذلك بأنهم كانوا يكفُرون بآيات الله ويقتلون النبيّينَ بغير الحقِّ ، ذلك بما عَصَواوكانوا يعتَدُون ﴾ [سورة البقرة : ٦٠ ـ ٦١] .

إن النفوس البشرية تتباين طبائعها ،وتختلف مشاربها ،فمنها من رقّ قلبه ،وسكنت نفسه ،حتى كان وقع العظة عليها له أثره البالغ في قبولها لهدى الله ، فيزول عنها ما علق بها من أكدار ،حتى تستنير بنور الله سبحانه .

أما القلوب المتحجرة ،فإنها تظل في نكتتها السوداء ،لأن عقلها شارد ،فالصَّلَف يحدوها ،والكبْر يطغيها ،والعناد يحيط بها من كل جانب ،لاهم لها إلا أن تتحدى الرسل بكثرة متطلّباتها فإن أجيبت إلى شيء نزعت إلى شيء آخر ،ولن يقضي على شرّها ، ويمحق ضلالتها إلا عذاب الله لها .

وهكذا نرى النفوس المتباينة ،فمن الناس من يستجيب لدعوة الحق ،ومنهم من يعرض عنها .

وهكذا كانت القصة القرآنية ،توجهنا إلى هذه الأصناف المتباينة ، فالداعي إلى الحق بالحكمة والموعظة الحسنة ما عليه من حرج إن أعرض عنه معرض ،أو انصرف عنه باغ مستكبر : ﴿ قُلْ هذه سبيلي أدعُو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ،وما أنا من المشركين ﴾ [سورة يوسف : ١٠٨] .

ولقد ذهب بعض الباحثين [1] إلى أن القصة القرآنية من أغراضها إثبات الوحي والرسالة ،وهو يقصد بذلك أن محمداً ﷺ مع كونه أمياً ،وقد أتى بهذه الأخبار المغيبة ،كان ذلك دليلاً قاطعاً على أن ما يقوله وحيٌ يوحى .

(١) التصوير الفني في القرآن ـلسيد قطب : ١١٨ ـ ١٢٦ .

والقصة القرآنية ترشدنا تماماً إلى أن الرسل وإن اختلفت أزمانها ،وتعدّدت أممها ،فدعوتها واحدة ،إنها تدعو أول ما تدعو إلى عبادة الحقّ عزّ وجلّ ﴿ ولقد بَعَثنا في كلِّ أمّةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ [سورة النحل : ٣٦] .

كما أن القصة القرآنية فيها تعليم وإرشاد ، كما يتضح لنا ذلك من قصة آدم عليه السلام ، فهي تحذر بني آدم من الشيطان الذي استطاع أن يضلل أباهم ﴿ فَوَسوس إليه الشيطانُ قال : يا آدم هل أدلُّك على شجرة الخلد وملكٍ لا يبلى ﴾ [سورة طه : ١٢٠] .

وفي القصة القرآنية ما يفيد أن الله عز وجل قد يحجب سر حكمته عن أقرب خلقه ،مما هو واضح في قصة آدم ،حيث حجب حكمة استخلاف آدم عن الملائكة ،لكي يشتاقوا إلى معرفة هذا السر الدفين وأن الله تبارك وتعالى إذا وجهت عنايته إلى أقلِّ شيء ،استطاع بقدرته البالغة أن يحوله إلى شيء عليه الرونق ،والبهاء ، ويضفي عليه من سناء عظمته ما يحول مرآه إلى شيء له قدره ،كما يتضح ذلك في خلقه آدم عليه السلام من التراب .

كما يتضح في تلك القصة أن طبيعة الإنسان الضعيفة قد تتغلب عليه ، فآدم عليه السلام مع طاعته وامتثاله لربه ،إلا أن بشريته طغت عليه حتى أطاع إبليس ،وأكل من الشجرة التي نهي عن الأكل منها(١) .

والقصة القرآنية ترشدنا إلى التسامح المطلق عند الدعوة إلى الله ،وعدم مقابلة الإساءة بالإساءة ،والشرّ بالشرّ ،مما يتّضح جلياً في قصة هود عليه السلام ،فإن قومه يوجهون إليه تلك العبارة ﴿ إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظُنُّكَ من الكاذبين ﴾ [سورة الأعراف : ٦٦] ،ولكنه بدلاً من أن يرد عليهم ردّاً عنيفاً ،يتماثل مع قولهم ،يكون جوابه لهم : ﴿ يا قومِ ليس بي

(١) قصص الأنبياء ـ لعبد الوهاب النجار : ٢١ .

سفاهةٌ ولكنّي رسولٌ من ربِّ العالمين *أبلغكم رسالات ربّي وأنا لكم ناصح أمين ﴾ [سورة الأعراف : ٦٧ ـ ٦٨] .

ومع رميهم له بالجنون الذي اعتراه به بعض آلهتهم على حسب زعمهم ، لكنه ردّ عليهم ردّاً دلّ على حسن الخلق فقال : ﴿ إني أُشهِد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه فكيدوني جميعاً ثم لاتُنْظِرون *إني توكلّتُ على الله ربي وربِّكم ،مامن دابَّةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتها ،إن ربّي على صراط مستقيم ﴾ [سورة هود : ٥٤ ـ ٥٦] .

والقصة القرآنية تغرس فينا حب الخير ،والنزعة المتدفقة التي تدعونا دائماً لأن نسير في الطريق الذي يجلب النفع إلى البشرية ،ويزيل عنهم الضرر .

فإن الرسل عليهم السلام ما قصدوا بدعوة الناس ،وإرشادهم إلى عبادة الله ،والعمل بأحكامه ،إلا أن يوجهوهم إلى الخير المطلق ،فيأخذوا بأيديهم من كل هاوية ،ما قصدوا بذلك نفعاً مادياً ،وكما يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان نوح عليه السلام :﴿ ويا قومِ لا أسألُكم عليه مالاً ،إن أجريَ إلاّ على الله ،وما أنا بطاردِ الذين آمنوا ، إنهم ملاقُوا ربِّهم ولكنيٍّ أراكم قوماً تجهلُون ﴾ [سورة هود : ٢٩] .

* * *

البَابُ الرابع

مِنْ رَوَائِعِ ٱلتَّصْوِيرِ فِي ٱلقَصَصِ ٱلقُرآنِيْ

الفصل الأول :

التناسق الفنّي .

الفصل الثاني :

الإصابة في نقل العواطف .

الفصل الثالث :

قوة الإحكام والربط .

الفصل الأول
التناسق الفني

تحدثنا في الباب الثالث عن ملامح القصة القرآنيّة التي كان لها طابعها الخاص بما له من تصويرات رائعة ،وأحداث جذّابة ، حتى بدت القصة القرآنيّة وهي واضحة المقاصد ،غنية بكثير من اللوحات الفينانة ،والمناظر المتحرّكة ، والأحداث المتسلسلة المتماسكة .

ولاشكّ أن القرآن قد ارتقت بلاغته إلى أوج الكمال بما عرضه علينا من هذه القصص القرآنية التي مست وجداننا ،وسحرت نفوسنا ،حتى كم اشتاق القارىء لها ، وخصوصاً بعد أن يرى في القصة القرآنية بعض الأحداث التي عرضت علينا بطريقة تثير انتباهنا ،وتدعونا إلى التأمل العميق ،والبحث المتأصل لما يدور حول ما نقرأ وما نسمع من حدث ملفت ،إذ أن النفس من شأنها أن تميل إلى الوصول إلى الغاية ،ومعرفة العاقبة ،وخاتمة المطاف .

ولاشك أن القرآن الكريم بهذه الجوانب لاتضارعه صفة بشرية . إذ أن القصة مهما نضجت في عصرنا ،ومهما استكملت مقوماتها ،كما يذكر بعض الباحثين ،فإنها لايمكن أن تقارن بهذا السموّ الإلهي ،وهذه القصص المحكمة التي أبدع صانعها ،وتعالى قائلها .

ولكي تنجلي الحقيقة أكثر ،وتعلو صيحة الحقّ ، ويتبين لكل قارىء أو سامع لهذا القصّ القرآني ما امتازت به من جمال أخّاذ ،وطابع فريد ،يطيب لي أن أتعرض لما فيها من تناسق وصَلَ الذروة في الإعجاز ، وبلغ الغاية القصوى في الإتقان ،وهذا التناسق له أسرار عديدة وسمات قد لايحصيها

العدّ ،ومن ذلك التناسق الشكلي الذي يتضح في مدى انسجام عبارات القصة القرآنية ،لاأقول من حيث المعنى فحسب ،وإنما أقول من حيث موسيقاه ذات النبرة الخاصة ،والنغمة المتناسقة ،التي فيها تآلف وانسجام ،تتقبلها الأذن وتعيها بادىء ذي بدء ،إذ بها تأنس ،ومن صداها تحنّ إلى سماعها والإصغاء إليها ، ولكي أوضح هذه الحقيقة ، أشير إلى أن القصّ القرآني له ثلاث طرق :

الطريق الأول : أن تعرض الآية القرآنية وهي مطولة .

الطريق الثاني : أن تعرض الآية القرآنية وهي لاتعدو أن تكون فاصلة أو فاصلتين .

الطريق الثالث : وهي الوسط بين اثنين ،فالآية القرآنية فيها فواصل متعددة ،ولكنّها لاتصل إلى الآيات المطولة التي زادت فواصلها زيادة ملحوظة .

ففي القصة ذات الآية القصيرة ،مثل قصة موسى في سورة الشعراء وقصة موسى في سورة الأعراف ،وقصة إبراهيم وإلياس ويونس في سورة الصافّات ،نرى التوافق الصوتي ،والانسجام الموسيقي يلوح كثيراً بين الآيات التي تعرض علينا القصة ، وعلى سبيل المثال في سورة الأعراف نرى أن الله تبارك وتعالى حينما عرض علينا قصص الأنبياء في تلك السورة سواء قصة آدم ،أو قصة هود ،أو قصة صالح ،أو قصة لوط ،أو قصة شعيب ،أو قصة موسى . . . الخ ،نرى أن هناك نغمة موسيقية متناسقة متجانسة بين الحروف التي تنتهي بها تلك الآيات القرآنية في تلك السورة .

ويرى النقاد المحدثون « أن الموسيقى صفة أصيلة في اللغة المنطوقة قبل أن تكون خصيصة من خصائص الأدب ،ومن ثمّ لم يقصروا الموسيقى على

الشعر وحده ،بل شملت النثر أيضاً ،وعلى هذا فهم لايجرّدون النقد الفني من الموسيقى » [1] .

فكثيراً ما تنتهي كلّ آية بحرف النون الذي يكون قبلها حرف لين سواء كان واواً أو ياء ،ومعنى ذلك أن عرض تلك القصص فيه تآلف النغمة ،وتوافق الصوت بين بعضها وبعض .

وإننا إذا نظرنا لقصةموسى في تلك السورة [1] من قوله تعالى : ﴿ ثم بَعَثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعونَ وملئه فظلموا بها فانظُر كيف كان عاقبةُ المفسدين ﴾ .

نجد أن روي الآية الأولى فيها النون المسبوق بحرف لين وهو الياء ،وكذا الآية الثانية : قالَ موسى : يا فرعونُ إني رسولٌ من ربّ العالمين ﴾ .

فتأتي الآية الثالثة بروي اللام الذي قبله حرف لين أيضاً وهو الياء ﴿ حقيقٌ على أن لّا أقولَ على الله إلا الحقَّ ،قد جئتُكم بِبَيِّنَةٍ من ربكم فأرسلْ معيَ بني إسرائيلَ ﴾ .

ثم الرابعة ،ومثلها الخامسة والسادسة بالنون المسبوق بحرف لين ،وهو الياء هكذا :

﴿ قالَ :إنْ كنتَ جئت بآية فَأْتِ بها إن كنت من الصادقين ﴾ .

﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين ﴾ .

﴿ ونزَع يده فإذا هي بيضاءُ للنّاظرين ﴾ .

والسابعة بحرف الميم المسبوق بحرف لين وهو الياء :

﴿ قال الملأُ من قوم فرعونَ :إنّ هذا لساحر عليمٌ ﴾ .

---

(١) راجع : مقالات في النقد الأدبي- د. محمد مصطفى هدّارة : ٢٠٥ ط . ١٩٦٤ م .

ثم تأتي الثامنة مسبوقة بحرف النون الذي قبله حرف لين وهو الواو هكذا :

﴿ يريُد أن يخرجُكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ .

ثم تأتي التاسعة مسبوقة بحرف النون الذي قبله حرف لين وهو الياء :

﴿ قالوا : أرجِهْ وأخاه وأرسلْ في المدائن حاشرين ﴾ .

فيستفاد من هذا أن النغمة الغالبة على فواصل تلك الآيات هي النون المسبوقة بحرف لين وهو الياء ، ولم يترك حرف النون المسبوق بالياء إلا في فاصلة جاءت باللام المسبوقة بحرف لين وهو الياء ، وفاصلة أخرى منتهية بحرف ميم مسبوق بحرف لين وهو الياء .

ولعلّ السرّ في ذلك أن الحروف التي خرجت عنها الآيات متقاربة في المخرج ، فالنون واللام تخرجان من طرف اللسان مع التصاقه بأصول الثنايا العليا ، والواو والميم تخرجان من الشفتين ، وحروف اللين من الجوف [1] .

على أن النبرة الصوتية المتلاحقة في جميع الآيات ، والمتفقة إذا تغيّرت فجأة على غير عادة ، أحدثت لفتة عند القارىء والسامع وجعلته ينتبه لما يقرأ وما يسمع ، إذ أنه حينما يتعود على سماع شيء متجانس ، وفجأة يرى فيه شيئاً من التغيير ، لاكل التغيير ، ثم بعد ذلك تأتي النغمة التي ألفها أولاً ، يكون ذلك أدعى للصوق الموسيقى بسمعه والمعنى بنفسه ، وهذا ما يحدث عند سماع تلك الآيات القرآنية .

فعندما نسمع كلمة (إسرائيل) نحس بأن القصة إنما كانت في هؤلاء القوم المعروفين ، وهم بنو إسرائيل ، لافي غيرهم من البشر .

وحينما نسمع كلمة عظيم ، نحس بعظم السحر الذي ادعوه ، فلقد

---

(١) قواعد التجويد ـ للدكتور عبد العزيز عبد الفتاح قارىء : ١٩ ـ ٢٠ طبعة ١٣٩١ هـ .

كان سحراً عظيماً يهابه من رآه ،وكما يذكر ابن اسحاق [1] : صفّ خمسة عشر ألف ساحر ،مع كل ساحر حباله وعصيه ،وفرعون في مجلسه مع أشراف مملكته ،فكان أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون ،ثم أبصار الناس بعد ، ثم ألقى رجل منهم ما في يده من العصيّ والحبال ، فإذا هي حيّات كأمثال الجبال قد ملأت الوادي ،يركب بعضها بعضاً .

وقصة إبراهيم في سورة الصافات [2] ، قوله تعالى :﴿وإنّ من شيعتِه لإبراهيم﴾ .

نرى أن فواصلها مالت إلى الالتزام بهذا الحرف الطري وهو النون المسبوق بحرف لين وهو الواو أو الياء هكذا :

﴿ إذ قالَ لأبيه وقومه :ماذا تعبدون ﴾ ؟

﴿ أئفكا آلهةً دون الله تريدون ﴾ ؟

﴿ فما ظنُّكم بربِّ العالمين ﴾ ؟

فالذي يغلب على فواصل الآيات هو حرف النون المسبوق بحرف لين واوي أو يائي ،حتى توالت النبرات الصوتية المنتهية بكلّ آية ،متناسقة منسجمة تماماً ،ولما كانت القصة القرآنية شخصها وبطلها هو الخليل عليه السلام .

وكما يقول الحق عز وجل : ﴿ وإنّ من شيعته لإبراهيم ﴾ .

وإبراهيم قد تلقته الآذان من مطلع القصة ، فأحسّت بنبرة ميمه الصوتية ﴿ وإنّ من شيعته لإبراهيم ﴾ ناسب أن تتبدل النبرة الصوتية

---

(١) راجع : صفوة التفاسير للصابوني - الجزء الرابع : ٣٥ .

لطيفة :قال ابن عباس : » كانوا أول النهار سحرة ،وفي آخر النهار شهداء بررة » .

صفوة التفاسير - الجزء الثامن : ٦٤ .

(٢) الآيات : ٨٣ - ٨٧

الأساسية في القصة وهي حرف النون المسبوق بحرف لين واوي أو يائي بحرف الميم المسبوق بحرف لين ،واواً أو ياء ،قال تعالى : فنظرَ نظرةً في النجومِ ﴾ ﴿ فقال : إني سقيم ﴾ [سورة الصافات : ٨٨ ـ ٨٩] .
﴿ فبشّرناهُ بغلامٍ حليمٍ ﴾ [سورة الصافات : ١٠١] .

وهكذا نرى التآلف والانسجام الصوتي المتشابه في فواصل هذه الآيات ، فما تترك النبرة الصوتية النونية التي سادت كثيراً في القصة إلا لتنتقل إلى الميم المسبوق بحرف لين يائي أو واوي لتكون متناسقة ومشيرة إلى بطل القصة ،وهو خليل الله إبراهيم عليه السلام ،حتى قال الله سبحانه وتعالى في خلال تلك القصة :﴿وناديناه أن يا إبراهيم ﴾ و﴿ سلام على إبراهيم ﴾ [سورة الصافات : ١٠٤ ـ ١٠٩] .

فالانتقال من الفاصلة النونيّة إلى الفاصلة الميمية على ما فيه من تقارب الحرفين والنغمتين الصوتيتين فيه تجانس ملموس لحرف الفاصلة التي بدأت به القصة مما يذكر القارىء كثيراً بصاحب هذه القصة وهو الخليل عليه السلام .

وهكذا نرى تلك القصة تناسب نغماتها المتشابهة والمتقاربة في تيارمتدفق فيه رقّة وعذوبة يأنس لها السامع ،ويحس بروعتها وحلاوتها بالإضافة إلى ما فيها من تسلسل فكري وترابط معنوي ،وتلاحق وتماسك ،وعلة ومعلول ،وسبب ومسبب ،حتى كانت نهاية القصة ﴿ وباركْنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريّتهما محسنٌ وظالم لنفسه مبين ﴾ [سورة الصافات : ١١٣] .

وما أجمل التعقيب على صنيع خليل الله بطل الفداء بقوله عز وجل :﴿وكذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ [سورة الصافات : ١١٠ ـ ١١١] .

فهو تذييل يتناسب تماماً ،ويتناسق تناسقاً

معنوياً ،ولفظيّاً ،وأسلوبيّاً ،وفكريّاً ،مع حلقات القصّة السابقة ، وبذلك التحمت الموسيقى الشكلية بالموسيقى المعنوية .

وما أروع هذا التنسيق بين فواصل تلك الآيات حينما أشار إلى قصة لوط إشارة مقتضبة ،فقال :عز من قائل ﴿وإنّ لوطاً لمن المرسلين * إذ نجّيناه وأهلَهُ أجمعين * إلّا عجوزاً في الغابِرين * ثم دمَّرنا الآخَرين * وإنَّكم لَتَمُرُّون عليهم مُصْبِحين * وبالليلِ أفلَا تعقلون ﴾ [سورة الصافات : ١٣٣ ـ ١٣٨] .

فمع هذا الإيجاز ،إلا أن معالم القصة قد اتضحت ،ومغزاها قد انجلى للقارىء والسامع ، فهي تدلُ على أن قومه قد استحقوا النكال والعذاب ، حيث أنهم ارتكبوا من المنكر ما ارتكبوا ،ومن ثمّ أهلكهم الله بصنيعهم وبجرمهم ،ولم ينج من تلك العقوبة الصارمة إلا لوط وأهله ما عدا زوجته التي وإن كانت من أهله إلا أنها لكفرها ووقوعها في المنكرات لحقت من وقع عليه العذاب والنكال ،وفي ختام تلك القصة القصيرة : ﴿ وإنكم لتمرّون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾ . لفتة كريمة تدعو العاقل البصير إلى أن يتأمل كلّ التأملّ إلى هذا الحدث الإلهي حيث أن الله تبارك وتعالى أهلك المكذّبين من قوم لوط أشدّ إهلاك ،وذلك حينما قلب قراهم ،فجعل عاليَها سافلها ، وأمطر عليهم حجارةً من سجِّيلٍ مما تفيده تلك اللفظة القرآنية :﴿دمّرنا﴾ فأهل مكة حينما يمرون على تلك المنازل ،ولها ما لها من رسوم وآثار وأطلال ،وهم في سفرهم يشاهدون ذلك كلّه صباحاً ومساءً ، وليلاً ونهاراً ،وفي ذلك فَلْيعتبر المعتبرون ،وليتّعظ المتَّعظون .

وكأن الله تبارك وتعالى يقول :من حاد عن الطريق المستقيم ،والتوى عن المنهج القويم ،مثل ما صنع قوم لوط ؛ فإن العاقبة وخيمة ، والنهاية أليمة ،مع ما يستفاد من تلك القصة القصيرة من هذه المدلولات .

وكأنها توحي بقصص لوط التي فيها إطناب ،وتوسّع في الأحداث كما

وردت في سورة هود من قول الله تبارك وتعالى :﴿ولمّا جاءت رسلُنا لوطاً سيء بهم وضاقَ بهم ذرعاً ،وقال :هذا يوم عصيب . . . ﴾ الخ [سورة هود : ٧٧] .

فإننا نرى التناسق الفني في النغمة الصوتية ،والنبرة النونية التي تنتهي بها فاصلة كلّ آية من تلك الآيات القصيرة ألا وهي حرف النون مثل :

﴿ وإنّ لوطاً لمن المرسلين ﴾ .

﴿ إذ نجّيناه وأهلَه أجمعين ﴾ .

﴿ إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ .

﴿ ثمّ دمَّرنا الآخرين ﴾ .

﴿ وإنكم لتمّرون عليهم مصبِحين ﴾ [سورة الصافات : ١٣٣ - ١٣٧] .

فهي نون مسبوقة بحرف لين وهو الياء ،وفيها من التناسق اللفظي ما فيه ،في الوقت الذي توضع فيه كلّ فاصلة في موضعها ، فالمعنى يطلب كلمة المرسلين لتشير الآية بأن لوطاً رسولٌ من رسل الله ،والمعنى يطلب كلمة (أجمعين) لتشير الآية بأن المؤمن الصالح هو الذي نجا من شر هذا الهلاك والدمار بدون استثناء ،وكلمة (في الغابرين) يطلبها المعنى لتفيد الآية بأن امرأته لم تنفعها العلاقة الزوجيّة ، ولم يدفع عنها أنها من أهل لوط لكفرها وسوء صنيعها ،فهي في الغابرين ،أي في الباقين في العذاب ،وهكذا نرى أنّ كل كلمة في موضعها ،وكلّ لفظ يطلبه المعنى ، فكان التلاؤم الحق بين الموسيقى اللفظية ،والموسيقى المعنوية ،وهكذا وجدنا الموسيقى النابعة من الألفاظ المتجانسة وهي تخدم المعنى ،وتؤدي إلى مدلولات القصة .

وبالتأمل في عرض قصة موسى وموقفه من السحرة في سورة طه من قول الله تبارك وتعالى :﴿ولقَد أريناه آياتِنا كلَّها فكذَّب وأَبى ﴾ ،نرى أن الفواصل وإن لم تلتزم بالحرف الأخير ،فإنها التزمت بحرف اللين المفتوح ما

قبله ،والذي يكون في آخر كلٍّ آية من الآيات كثيراً من مثل :

﴿ قال :أجئتَنا لتُخْرِجنا من أرضنا بسحرك يا مُوسى ﴾ .

﴿ فلنَأتِيَنَّكَ بسحرٍ مثلِه فاجعلْ بيننا وبينَك موعداً لانُخْلِفُه نحن ولا أنت مكاناً سُوَى ﴾ .

﴿ قال :موعدُكم يومُ الزينة وأن يُحْشَرَ الناس ضُحى ﴾ .

﴿ فتولّى فرعونُ فجمع كيده ثم أتَى ﴾ .

﴿ قال لهم موسى : ويلَكم لاتَفْتَرُوا عل الله كذباً فيُسحِتكم بعذابٍ وقد خابَ من افترى ﴾ .

﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . . . ﴾ الخ القصة [سورة طه : ٥٦ ـ ٦٢] .

وهكذا نرى أن التجانس جاء نتيجة إشباع الباء والسين والواو والحاء والتاء والراء . . . الخ .

فكلمة (موسى) محكمة متقنة ما جاءت من أجل التوافق اللفظي والتناسق الصوتي ، وإنما أكّدت المعنى ،ولا ينبغي أن نقول بأن الله عز وجل قدم هارون على موسى في هذه الآية رقم (٧٠) من أجل أن تتوافق النغمة الموسيقية مع سائر الآيات ،حيث أن موسى عليه السلام كان أولى بالتقديم ،إذ هو الأصل في الرسالة ،وكما يقول الحق عز وجل : ﴿ فلمّا أتاها نودي يا موسى ﴾ [سورة طه : ١١] . فهو الأصل في الرسالة ،ثم بعد هذا طلب من ربه أن يرسل معه إلى قوم فرعون معينا وشخصاً فصيحاً ،يكون أقدر منه على التعبير ،وكما يقول الحق عز وجل : ﴿ وأخي هارونُ هو أفصحُ مني لساناً فأرسله معي رِدْءاً يصدّقني ﴾ [سورة القصص : ٣٤] ، فيستفاد من ذلك بأن موسى هو الأصل في الرسالة ،فالمناسب للتعبير أن يقول الحق :﴿قالوا آمنا برب موسى وهارون ﴾ ، وقد ذكر الله عزّ وجل موسى قبل هارون في الآية (٤٨) من سورة الشعراء ،فقال :﴿ربِّ موسى وهارون ﴾

فذكر موسى قبل هارون مع أن الموقف متّحد ، وهو أن سحَرة فرعون حينما رأوا ما بهرهم من سحر موسى أيقنوا بعظمة الله عز وجل ، فآمنوا برب موسى وهارون فقد يقال : إن الآية (٤٨) من سورة الشعراء قدّمت موسى على هارون لتوافق الفواصل ، لأن فواصل الآيات في سورة الشعراء هي النون ، فإن قبل الآية آنفة الذكر قوله تعالى : ﴿ قالَ لهم موسى : ألقوا ما أنتم مُلْقون ﴾ .

﴿ فألقَوا حبالهم وعصيَّهم وقالوا بعزّة فرعون إنّا لنحن الغالبون ﴾ .

﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقفُ ما يأفكون ﴾ .

﴿ فأُلقي السحرةُ ساجدين ﴾ .

﴿ قالوا آمنّا بربِّ العالمين ﴾ .

﴿ ربِّ موسى وهارون ﴾ [سورة الشعراء : ٤٣ ـ ٤٨] .

وهكذا نرى أن الفواصل المتلاحقة كلها نون ، فكان المناسب أن تكون الفاصلة النون ، أما في سورة طه فالمناسب ألف اللين المفتوح ما قبله مثل : « أتى ، أعلى » . . . الخ .

قد يظن ظان أن القرآن الكريم يأتي بالفواصل المتجانسة ، ويحرص عليها كالصناعة اللفظية ، وكالإطار الشكلي .

ولكنني أرى أن القرآن الكريم في فواصله المتناسقة جاء عفواً على معنى أن الملابسات ومقتضى الحال ، والمعنى الدقيق هو الذي يطلب هذا التجانس ، أما عن تأخير موسى عن هارون في سورة طه ، وتقديم موسى على هارون في سورة الشعراء ، فلبيان الإعجاز القرآني ، والقدرة الإلهية في هذا القرآن المحكم ، حيث إن الله عز وجل قد كرر القصة الموسوية ، فإذا كان التكرار متحداً ، بألفاظ متطابقة ، كان كلام القرآن وحاشا لله ، لغواً ، أما إذا كررها الحق عز وجل بألفاظ مختلفة ، وفواصل ليست متّحدة ، وبعبارات ليست متجانسة في المنطوق ، كان ذلك أدعى إلى الحجة ، وأقوى في

الإعجاز ،وأدلّ على قوة الفصاحة القرآنية ،فلو كانت الآية القرآنية ،تعاد بلفظها ،والفواصل تحكى برويها المتطابق لكان التكرار مملاً في مثل هذا الموقف حتى تسأم منه النفس ، وتصمّ له الآذان ، ومن هذا كله نرى أن النغمة الصوتية القرآنية القصصية ما كانت مقصودة لذاتها ،وإنما الموقف القرآني يطلبها والملابسات القصصية تؤكدها ،ومن ثم كان الإعجاز القرآني .

أما عن التجانس الناقص[1] من مثل « استعلى » آية (٦٤) و« تسعى »الآية (٦٦) و« الأعلى » الآية (٦٨) من سورة طه ،فبالتأمل في هذه الكلمات التي تنتهي بها بعض الفواصل في القصة الموسوية ،نرى أن فيها تشابهاً لفظياً ،ونبرة صوتية إن لم تكن متفقة فهي متقاربة ،فكان التجانس الصوتي ماثلاً في هذه الفواصل التي بها تأنس النفس لما تألفه من الأصوات المتناسقة والمتشابهة ، وخصوصاً أن كل لفظة لها موقعها الخاص في الآية الكريمة ،ومدلولها القوي الذي لايغني عنها غناء .

ومن ثمّ كان هناك ارتباط الموسيقى اللفظية بالموسيقى المعنوية[2] على أن تكون الأولى خادمة للثانية ، ومشعلة أوارها ،ومذكية مقاصدها .

ففي قول الله عز وجل :﴿وقَدْأفلحَ اليومَ من استعلى ﴾ نرى أن كلمة « استعلى » تكمل المعنى المقصود ،ولاغناء للآية عنها ،حيث أن سحرة فرعون يرون أن في الغلبة استعلاء ،وأن من فاز على غيره علا شأنه وارتفعت قيمته ،ومن ثمّ هو جدير بأن يستحق تكريم فرعون له بما أعده من الإنعامات العظيمة ،وكما يتضح من الآية الكريمة : ﴿ قالوا لفرعون أئن لنا

---

(١) الجناس الناقص :ما اختلف فيه اللفظان في واحد أو أكثر من أربعة : نوع الحروف ،عددها ،هيئتها ،ترتيبها ـ مع اختلاف المعنى .

(٢) والموسيقى المعنوية هي ارتباط اللفظ بالمعنى .

لأجراً إن كنّا نحن الغالبين *قال : نعم وإنكم إذاً لمن المقرّبين ﴾ [سورة الشعراء : ٤١ ـ ٤٢] .

وفي قوله تبارك وتعالى :﴿يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ [سورة طه : ٦٦] ، نرى أن كلمة « تسعى » محبوكة تمام الحبك ، ولها دلالتها القوية حيث أن الآية تشير إلى عظمة السحر .

ومن ثمّ فزع موسى واضطرب ، ولم يكن السحر في نظر موسى عظيماً إلا إذا تخيّل فعلاً أنها حيّات تسعى ، أي تتحرك على بطونها ، وبذلك يتم الخوف والرعب لأنها لو كانت حيات خامدة ساكنة لما كان لها أثرها في الوجدان الذي يصل إلى أثر الحية المتحركة .

وفي قول الله عز وجل :﴿قلنا: لاتَخَفْ إنك أنت الأعلى ﴾ [سورة طه : ٦٨] . نرى أن كلمة الأعلى محكمة ، فعلى ما فيها من التعريض لفرعون كما سبق أن قلنا قبل ذلك ، فإن فيها دفع الرعب عن موسى الذي توهمه ، وفيها بث الطمأنينة في نفسه ، على معنى أن الله تعالى يعده بالنصر فهو الغالب المنتصر إن شاء الله .

وهنا نلاحظ أن الله عز وجل لكي يؤكد الطمأنينة في قلب موسى فيدفع عنه ما ألم به من خوف وتوهم ، أكّد ذلك بمؤكّدات كثيرة ، أكّد بإن ، وتأكيد الضمير ، وهو أنت ، وتعريف الخبر ، وصيغة التفضيل ، وكلّ هذا ليقوي جنان موسى ، وليثبت على أمره .

ومن التجانس الصوتي الذي يلوح في أثناء العرض القصصي القرآني قصة مريم في سورة مريم [سورة مريم : ١٦ ـ ٢١] فالقصة بدأت بالآية الكريمة :﴿واذكرْ في الكتابِ مريمَ ﴾ وفاصلها تنتهي بياء مشدّدة متبوعة بحرف لين وهو الألف ، وهكذا تظل النبرات الصوتية تتوالى في تلك القصة على هذا التشابه من مثل :

﴿ واذكر في الكتاب مريمَ إذ انتبذتْ من أهلها مكاناً شرقيّاً ﴾ .

﴿ فاتَّخذت من دونهم حجاباً ،فأرسلْنا إليها روحَنا فتمثّل لها بشراً سويّاً ﴾ .

﴿ قالت : إني أعوذُ بالرحمن منك إن كنتَ تقيّاً ﴾ .

﴿ قال : إنما أنا رسولُ ربِّك لأهَب لك غلاماً زكيّاً ﴾ .

﴿ قالت : أنّى يكونُ لي غلامٌ ولم يمسسني بشرٌولم أكُ بغيّاً ﴾ .

﴿ قالَ : كذلكِ قالَ ربُّك هو عليّ هينٌ ولنجعلَه آيةً للناس ورحمةً منّا وكان أمراً مقضيّاً ﴾ .

﴿ فحملَتْه فانتبذتْ به مكاناً قصيّاً ﴾ .

﴿ فأَجاءها المخاضُ إلى جذع النخلةِ قالت : يا ليتني متُّ قبل هذا وكنتُ نَسياً منسيّاً ﴾ .

﴿ فناداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعلَ ربُّك تحتك سَرِيّا ﴾ الخ القصة . حتى قال الله سبحانه وتعالى مؤذناً بانتهاء القصة : ذلك عيسى ابن مريمَ ﴾ .

ومع أننا أثبتنا عند عرضنا لأحداث القصة وشخصياتها مدى ترابط القصة وتماسكها واتصال حلقاتها وانسجام معانيها ،فهي تمثل حلقة البداية التي آلت إلى النهاية في قول محكم ،ونسج مكين ، مع هذا إلا أننا نلمس هذه النبرات الصوتية المتجانسة التي تنساب في رقة وعذوبة ولكنها ـ وكما قلت قبل ذلك ـ ليست وليدة الصنعة المقصودة ،وإبراز الأسلوب في إطار شكلي جذاب ، .وإنما كان هذا التجانس محكماً متقناً له مدلوله وغاياته في كل فاصلة من الفواصل ،فلا غَناء عن أي لفظة من تلك اللفظات ،ولا يمكن أن تحلّ كلمة أخرى محلّها ،ولا تؤدي عبارة مؤدّاها ومن ذلك ما استهل به الله عز وجل القصة :﴿مكاناً شرقيّاً ﴾ ،فنهاية الآية الأولى من القصة هذه اللفظة المحكمة ،لأنها تحكي الحقيقة ،وتبين عن الواقع ،حيث أن مريم عليها السلام وقت أن أرسل الله إليها جبريل عليه السلام ،كانت قد اعتزلت أهلها

لتتفرغ لعبادة الله سبحانه وتعالى في مكان شرقي بيت المقدس .

وكلمة « سويّاً » في الآية الثانية تحكي الحقيقة أيضاً ،حيث أن جبريل عليه السلام حينما أتاها من قِبل الله عزّ وجل ، أتاها في صورة البشر السويّ ،أي :المستوي الخلقة .

وما ذاك الشيء إلا لكي تأنس بكلامه ،ثم إن عفافها وورعها لا يظهر في الحقيقة إلا إذا كان الذي أمامها شاباً مستوي الخلقة من جنس البشر .

وفي الآية الثالثة : « تقيّاً » كلمة يطلبها المقام حيث أنها حينما التجأت إلى الله سبحانه عز وجل ، واستعاذت مما رأت ، فلن يكون ذلك مجدياً إلا إذا كان الذي يقبل عليها هو رجل ورع تقي ، يخاف الله ويخشاه ، فكلمة تقيّ مناسبة تماماً .

وهكذا إلى آخر القصة نرى أن فواصل الآيات المتجانسة في الياء المشدّدة المتبوعة بحرف لين وهو الألف ، وإن تجانست شكلاً ، وتناسقت لفظاً ، واتحدت في شيء من النغمة والتآلف الصوتي ، إلا أن المعنى يطلبها حتى لاتؤدي معناها أي لفظة أخرى .

وهكذا كانت القصة في الكثير منها تعني بهذا التناسق الصوتي الذي يخدم المعنى ،ويشير إلى مرامي القصة ،وما تهدف إليه .

وإذا كان ذلك يلوح كثيراً في القصة القرآنية ذات الآيات القصيرة فإننا نلمس تناسقاً فنياً ،وجمالاً تعبيرياً في القصة القرآنية ذات الآيات المطولة ،ومن ذلك قول الحق عزّ وجل في الآية (١٠٢) من سورة البقرة كما سنشير إلى شيء من ترابطها وتماسكها وتناسقها عند حديثنا عن قوة الإحكام والربط .

وبالتأمل في الآية : ﴿ واتّبعوا ما تتلُو الشياطينُ على مُلك سليمانَ وما كفَر سليمانُ ولكنّ الشياطين كفروا ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] ،نرى أنها على ما فيها من تجانس صوتي لتكرار بعض الألفاظ مثل كلمة « الشياطين » و « سليمان » ففيها تكرار بعض الألفاظ التي فيها شيء من التماثل الصوتي كـ

« هاروت وماروت » ،و« اشتراه وشروه » ،و« ضارين وما يضرهم » ،و« ما كفروا وكفروا ولا تكفر » ،وهكذا يتمثل في الآية القرآنية الكريمة المطولة التجانس بين الكلمات من حيث تكرارها أو الالتزام بأسلوب المقابلة ، فكان الجناس والمقابلة يلوحان في هذه الآية الكريمة بما لها من معنى رائق ومدلول يخدم القصة .

ومن هذه الأمثلة في قصة آدم عليه السلام ما نلحظه من طباق في قوله تعالى :﴿وأَعْلَمُ ما تُبدون وما كنتم تكتُمون ﴾ ، والالتفات من المتكلم [1] إلى الغائب في قصة آدم التي بدأت بقوله تعالى :﴿وإذْ قُلْنا للملائكة اسجدُوا لآدم ﴾ وذلك لإظهار جلال الله وعظمته .

والمبالغة في قوله تعالى :﴿ولاتقربَا هذه الشجرةَ ﴾ ما قصد بها إلا المبالغة في النهي عن الأكل ، إذ المنهي عنه هو الأكل من ثمار الشجرة ،فالنهي عن القرب نهي عن الأكل بطريق المبالغة .

وأما قوله تعالى في وصف إبليس :﴿أبى واستكبر ﴾ فلا يقال بأن كلمة تغني عن الأخرى ، لأن الإباء معناه التعالي والتعاظم ،فكل كلمة يطلبها المعنى .

وبالتعليق على قصّة نوح في سورة هود ،نلمح السمات البلاغية والألوان البيانيّة الرائعة ،فمن أمثلة التشبيه :﴿فعميت عليكم ﴾ فلقد شبه الذي

---

(١) يذكر السكاكي في كتابه مفتاح العلوم : « أن العرب كانوا يستكثرون من الالتفات ،ويرون أن الكلام إن انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القلوب عند السامع وأحسن تطرية لنشاطه وأملاً باستدرار صفائه ،وهم أحرياء بذلك » .

راجع :أنوار الربيع في أنواع البديع ـ تأليف السيد علي صدر الدين بن معصوم ،المتوفى (١١٢٠ هـ) .

حققه شاكر هادي شكر ـ الجزء الأول ـ ص : ٣٦٣ ـ طبعة ١٩٦٨ م ـ مطبعة النعمان ـ النجف .

لايهتدي بالحجة لخفائها عليه بمن سلك مفازة لايعرف مسالكها وطرقها، واتبع دليلاً أعمى، وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية.

وفي قوله تعالى: ﴿ويا أرضُ ابلَعي ماءكِ ويا سماءُ أَقْلِعي﴾، نلمس الطباق بين الأرض والسماء، والجناس الناقص بين ابلعي وأقلعي.

وفي قوله: ﴿أفلا تذكرون﴾ استفهام للإنكار والتقريع.

وفي قوله: ﴿فَأْتنا بما تعِدُنا﴾ أمر خرج عن معناه للتهكّم والسخرية [1].

وفي قصة هود قوله تعالى: ﴿ما من دابّة إلا هو آخذٌ بناصِيتها﴾ فيه تشبيه الخلق وهم في قبضة الله سبحانه بالمالك الذي يقود المقدور عليه بناصيته كما يقاد الأسير والفرس بناصيته.

وفي قوله: ﴿إنّ ربّي على صراطٍ مستقيمٍ﴾ استعارة لطيفة تدل على كمال العدل في ملكه تعالى، فهو مطّلع على أمور العباد، لايفوته ظالم، ولا يضيع عنده معتصم به.

وفي قوله: ولما جاء أمْرُنا﴾ كناية عن العذاب ﴿نَجَّينا هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منا ونجَّيناهم من عذابٍ غليظٍ﴾ [سورة هود: ٥٨]، لبيان أن الأمر شديد عظيم، لاسهل يسير، وهو نوع من أنواع الإطناب.

وفي قوله: ﴿إني أُشْهِدُ الله واشهدُوا أني بريءٌ مما تُشْرِكون﴾ نرى أن هوداً لم يقل: إني أشهد الله وأشهدكم، لئلايفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما، فأين شهادة الله سبحانه وتعالى من شهادة العبد الضعيف.

وفي قوله تعالى: ﴿يرسلِ السماء عليكم مدراراً﴾ مجاز مرسل والمقصود المطر، ولفظ «مدراراً» للمبالغة، أي كثيرة الدّر والإنزال.

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني ـ الجزء الخامس: ٩٨ الطبعة الأولى.

وفي قوله :﴿فكيدوني جميعاً﴾ أمر قصد به التعجيز .

وفي قصة سليمان مع الهدهد ،نرى التأكيد المكرر لتأكيد الأمر وتثبيته :﴿لأُعذِّبَنَّه أو لأذبحَنَّه ،أو لَيَأْتِيَنِّي﴾ .

ومن أمثلة طباق السلب :﴿أحطتُ بما لم تُحِط به﴾ ،﴿مهتد، لا يهتدون﴾ .

ومن الجناس الناقص :﴿وجئتُك من سبأٍ بنبأٍ﴾[1] .

ومن الطباق اللفظي : ﴿تخفُون وتُعلنون﴾ ، ﴿أأشكرُ أم أكفرُ﴾ ؟ .

ومن الطباق المعنوي : ﴿أصدقْتَ أم كنتَ من الكاذبين﴾ ؟ .

ومن جناس الاشتقاق : ﴿تقومَ مقامِكَ﴾ .

ومن التشبيه الطريف القائم على الاستعارة :﴿قبل أن يرتّد إليك طرفك﴾ ،حيث شبه سرعة مجيئه بالعرش برجوع الطرف للإنسان ،وارتداد الطرف معناه : التقاء الجفنين ،وهو أبلغ ما يكون في السرعة .

ومثله : ﴿وما أمرُ الساعةِ إلا كلَمْحِ البصرِ أو هو أقرب﴾ فاستعار للسرعة الفائقة ارتداد الطرف .

وفي قصّة صالح تضمنّت الآيات ألواناً طريفة من علم البيان والبديع ففيها الطباق بين :﴿يُفسِدون ولا يُصْلِحون﴾ .

والتحضيض :﴿لولا تستغفرونَ الله﴾ على معنى : « هلا تستغفرون الله » وفيها جناس الاشتقاق مثل :﴿اطَّيَّرْنا،وطائرُكم﴾ .

وفيها المشاكلة مثل :﴿ومكرُوا، ومكَرْنا﴾ .

---

(١) يذكر ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة : « وخطر لي أن من فائدة الجناس الميل إلى الإصغاء إليه ، فإن مناسبة الألفاظ تحدث ميلاً وإصغاء إليها ، ولأن اللفظ المذكور إذا حصل على المعنى ، ثم جاء والمراد به معنى آخر ، كان للنفس تشوق إليه . سر الفصاحة ص : ٩٧ .

وفيها الطباق :﴿لِمَ تستعجِلُون بالسيِّئة قبلَ الحسنةِ﴾ [1] .

وفي قصة موسى عليه السلام في سورة القصص ، نرى أن من وجوه البيان والبديع التأكيد بأن مع المخاطبة بالكاف الذي يناسب المقتضى من مثل قول الله عز وجل :﴿إنّ الملأ يأتمِرُون بك ليقتلوك﴾ .

ونرى الاستعطاف والترحم مثل :﴿ربِّ إني لِما أنزلتَ إليّ من خيرٍ فقيرٌ﴾ ،ونرى جناس الاشتقاق : ﴿ وقصَّ عليه القصص﴾ .

ونرى التشبيه المجمل الذي حذف فيه الشبه مثل : تهتّز كأنّها جانّ﴾ .

ونرى الطباق بين : ﴿ يصدّقني ،ويكذّبون﴾ .

ونرى الكناية مثل : ﴿ واضمُمْ إليك جناحَك﴾ فكنى بالجناح عن اليد ،لأنها للإنسان كالجناح للطائر .

ونرى المجاز المرسل مثل :﴿سنشدُ عضُدَك بأخيك﴾ ، من إطلاق السبب وإرادة المسبب ، لأن شد العضد يسلتزم شد اليد وهو مستلزم للقوة .

قال الشهاب :ويمكن أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية شبه حال

---

(١) القرآن الكريم في وصف أسلوبه بأطراف البديع ،إلا أنها جاءت في موقعها الصائب ،وفي روعة أداء ومعنى ،على خلاف ما ورد عن بعض العرب من الأساليب البديعية التي كانت خلطاً ومزيجاً بين القبح والحسن ،فكان القرآن الكريم بهذا الرصف البديعي في قمة الفصاحة والبلاغة ،حيث أنه فاق الأساليب العربية كلها كما يفهم من كلام ابن المعتز ص : ٢٦٩ من كتاب دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث ـ للدكتور بدوي طبانة ـ الطبعة الخامسة ـ فابن المعتز وهو أول من ألَّف في البديع ،إلا أنه لم ينظر إليه نظرة المعجب بشيء اهتدى إليه فلم يره حسناً كلّه ،وإنما وجد في بعضه ما وجد من الحسن فأعجب به ،وفي بعضه من القبح ومجاوزة الحدّ ،فنبّه إليه وحذر منه ،وهذا على خلاف البديع القرآني الذي هو حسن كلّه .

موسى في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بيد شديدة .

وفي قصة طالوت وجالوت ،نرى ألواناً عديدة من البلاغة ، منها الاستفهام الذي أجري مجرى التعجب من مثل قوله تعالى ﴿أَلَمْ تر إلى الذين خرَجُوا من يارِهِم﴾ .

والحذف بين ﴿ موتُوا ،ثم أحياهم ﴾ ،أي : « فماتوا ،ثم أحياهم » .

وفي قصة خليل الرحمن مع الذي حاجه نرى في قوله :﴿ألم تر﴾ ،الرؤيا قلبية ،والاستفهام للتعجب .

ونرى التوافق في التعبير حيث عبّر بلفظ المضارع في قوله :﴿يحيي ويميت﴾ الذي يفيد التجدد والاستمرار ، وهو تعبير يفيد القصر ،لأن الخبر في قوله تعالى :﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ ، اسم موصول ،وبين كلمة « يحيي ويميت » طباق ،وكذا بين :« المشرق ،والمغرب » .

وفي قوله تعالى : ﴿ فبُهت الذي كفر﴾ يشعر بالعلة ،وأن سبب الحيرة هو كفره ،ولو قال : « فبهت الكافر » لما أفاد ذلك المعنى الدقيق .

وهنا نرى أن القرآن الكريم كان أسلوبه ممتعاً رائعاً ، بلغ الغاية في التصوير والروعة البلاغية التي لايقدر عليها بشر ،إذ أن القصص القرآني وإن عرضت معانيه بشيء من الطرق البلاغية التي عرفها القدامى والمحدثون وأطلقوا عليها اصطلاحات مختلفة ،وبما نقرأه في بعض قصص الكتّاب القدامى والمحدثين ،إلا أن القصص القرآني بأساليبه المختلفة ،وعرضه الشيق ،وبلاغته المتناهية ،وما بدا على صفحة أسلوبه من طباق[١] ، وجناس[٢] ، والتفات[٣] ، وما إلى ذلك من ألوان البديع ،ومن تشبيهات

(١) الطباق : « هو الجمع بين لفظين مقابلين في المعنى » .

(٢) الجناس : « هو تشابه لفظين في النطق ،واختلافهما في المعنى » .

(٣) الالتفات : « هو الانتقال من حالة الحاضر إلى الغائب أو المتكلم إلى المخاطب والعكس » .

واستعارات وكنايات ، وما إلى ذلك من ألوان البديع ، ومراعاته لمقتضى الحال بأسلوب منتظم بعيد عن الخبط والمبالغات المستكرهة ،والمعاني المرذولة ، والكلمات المستنفرة ، والعبارة الوحشية وغير المتناسقة ،بل كان بعيداً كل البعد عن الصنعة المتكلفة ،خارج عن الغريب المستنكر ،يبادر معناه لفظه إلى القلب ،ويسابق المغزى منه عبارته إلى النفس ،تتناسق ألفاظه وتتلاءم عبارته ، وينسجم أسلوبه ،حتى امتنع مطلبه ،وعسر تناوله ، لايحاكيه أحد ،ولا يقدر عليه بشر ،فهو بديع التأليف والرصف ،عجيب نظمه ،لاتفاوت فيه ولا انحطاط .

حيث أنه كما لمسنا من الأمثلة العديدة لايسف إلى الرتبة الدنيا ،فهو على حدٍّ واحد في حسن نظم ،فإذا تفاوت الكلام على القصّاص عند إعادة ذكر القصة الواحدة رأيناه لايختلف عما سبق ،بل هو في قمة البلاغة ،وغاية البراعة .

كما أنه استبان لنا أن القرآن الكريم في عرضه أحداث القصة يكون أسلوبه مناسباً للمقام ،موائماً للأحداث ،بحيث يأتي اللفظ الملائم للمعنى والعبارة التي تتفق مع مقتضى الحال ،ولهذا كله رأينا كثيراً من الباحثين وهم يشيدون بروعة هذا البيان القرآني ،وما فيه من إعجاز لامن حيث المعنى فحسب ،وإنما من حيث نظمه وتأليفه وتركيبه .

فالقصّ القرآني كما لمسنا بديع النظم ،عجيب التأليف ،فيه تصرف بديع ،ومعانٍ لطيفة ، وتناسب في البلاغة ،وحكم كثيرة ، وتشابه في العبارة ، وقوة لاتتفاوت ولاتتباين ،وإذا كان القصّ العادي قد يروقك في أثناء عرضه عبارة تسحرك ،وكلمة تشدّ سمعك ، فإن القصّ القرآني يتمثل فيه الجمال في أسمى معانيه ، فكلّه واسطة عقد ،وجمال عبارة ،وحسن نظم ،وسحر تفتن به النفوس المؤمنة ،والعقول المفكرة ،فكل عبارة قصصية تطرب لها النفس ،وتتشوف إليها البصائر ،كما ذكرنا قبل ذلك من أمثلة .

ولست مع الباقلاني حينما ذكر في كتابه « إعجاز القرآن »[1] : « إن وجوه البديع إذا كانت سرّاً من أسرار إعجاز القرآن ، فإنه من الممكن التدريب عليها ، والتعوّد والتصنّع لها ، حتى يمكن التوصّل لها ، وعلى هذا لاتكون ألوان البديع سرّاً من أسرار الإعجاز القرآني » .

لست مع الباقلاني في نفيه الإعجاز البديعي مادام يتوصل إليه حيث أن القرآن الكريم إنما جاء بلغة العرب ، وبفصاحته المتناهية ، لكي يكون العجز واضحاً ، والمعارضة مستحيلة ، فما دام العرب عرفوا ألوان البديع ، لاأقول باصطلاحاتها المعروفة عند البلغاء ، وإنما لأن أساليبهم بدا فيها كثير من تلك الألوان البديعية من جناس ، ومقابلة ، وطباق ، والتفات ، ما دامت أساليبهم قد ارتسمت فيها تلك الألوان الزاهية ، فلابد أن القرآن الكريم كان إعجازه مكشوفاً ، حينما كان بهذا الأسلوب الذي عرفه العرب ، واتخذوه سبيلاً ، فإن القرآن الكريم بأسلوبه البديعي ، وطرقه المختلفة في تلك الألوان الجماليّة التي أخذت حظها من الحسن والبهجة ، ولها وقعها المؤثر في كلام منتظم على غير وجه التكلف المستبشع ، والتعمل المستشنع ، والجنس المتمايز ، والأسلوب المتخصص ، والجودة المتناهية ، مما لا يقدر عليه العرب الفصحاء .

فنظم القرآن يخالف نظمهم ، وبألوانه البديعية يبدو التفاوت ، حيث إنهم لايقدرون على معارضته ، ولا يتهيّؤون لأن يأتوا بمثله ، فالألوان البديعيّة القرآنيّة وسيلة من وسائل الإعجاز القرآني لأن الإعجاز لن يكون إلا لمن عرف قيمة الشيء ، بعد أن استمرأ ظلّه ، فخاض التجربة ، وأصبحت سجية من سجاياه ، وفطرة من فطره .

فليس من المعقول في شيء أن يكون الأسلوب البديعي القرآني بعيداً

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ١٠٧ .

عن سمات الإعجاز ،بل بالعكس هو من الأدلة القوية على الإعجاز ،لأن أصحاب الصنعة ، وأرباب الفصاحة ،وقد تمرسوا على تلك الألوان البديعية بالفطرة ، أيقنوا أن السمات القرآنية البديعية اللفظية ليست على غرار ما ألفوه ،واعتادوا عليه ،فأحسوا بأنها ليست من صنع البشر ،وإنما أمر خارق للعادة .

وفي حديثنا عن التناسق الفني ،وبيان توافق الفواصل في الآية القرآنية من حيث النغمة الصوتية ما قد يفيد بأن الأسلوب القصصي قد جاء وفيه شيء مما يسمى عند البلاغيينّ بالسجع .

وفي الواقع إن بعض الباحثين قد نفوا السجع كل النفي عن الأسلوب القرآني ،ومنهم الأشاعرة ،وحجتهم في ذلك أن النبي ﷺ قد ذم السجع في حديث الجنين ،وقد فهم كثير من العلماء أن هذا الحديث يفيد التنفير من السجع .

وفي الحقيقة إن النبي ﷺ في قوله : « أسجعاً كسجع الجاهلية وكهانتها ؟!» [1] لم يقصد بذلك إنكار السجع ،وإنما أراد بذلك أن العلاء بن مسروح قد اتخذ السجع وسيلة في دفعه حقاً فرض عليه ، وذلك على طريقة الكهان في الجاهلية ، كانوا يتشدقون بالعبارات السجعية ،والألفاظ المطلية ،على أنه لا مانع عندي من أن تكون القصة القرآنية وقد توافقت نبرات آياتها ، كما يمكن أن نسميها فواصل من الممكن أيضاً أن تكون مسجوعة .

وقد بالغ الباقلاني حينما نفى السجع القرآني في كتابه إعجاز القرآن ،معللاً ذلك بقوله : « إن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ

---

(١) إعجاز القرآن ـ لأبي بكر الباقلاني ـ تحقيق : السيد أحمد صقر ـ الطبعة الثالثة ـ ص : ٧٤ من المقدمة .

الذي يؤدى فيه السجع »[1] .

حيث إنني في أثناء عرضي لتوافق الفواصل في القصة القرآنية كم أثبت أن فاصلة كل آية صائبة كل الإصابة ،متقنة تمام الإتقان ، بحيث لايمكن أن تقوم لفظة مقامها ،أو عبارة تؤدي معناها ،وعلى هذا فالفاصلة بنغمتها لم تكن صنعة مقصودة ،وطلاء شكلياً ، بعيداً كل البعد عن إجلاء المعنى ،وكشف المقاصد ،وإنما استبان لنا بكثير من الأمثلة أن المعنى القرآني القصصي كان في تلك اللفظة ، وحول هذا المنطوق الذي ختمت به الآية الكريمة .

وإنني أرى ما رآه بعض الباحثين من أن ذاك السجع القرآني مما يبين به فضل الكلام ، وأنه من الأجناس التي يقع فيها التفاضل في البيان والفصاحة كالتجنيس والالتفات وما أشبه ذلك من الوجوه التي تعرف بها الفصاحة لو تدبر هذا القول .

على أنني أرى أيضاً ،أن العرب ما دامت عرفت هذه الأسجاع كما ورد في كثير من كلامهم ،وهم فصحاء بلغاء ،فلابد أن يكون القرآن الكريم فيه شيء من تلك اللمحات الخاطفة ،والنبرات المتناسقة ،التي عرفها العرب حتى يفطنوا إلى أن هذا السجع القرآني بما فيه من حبكة قوية أصابت المعنى قبل أن تصيب الشكل والجمال الأسلوبي ،وفيه من قوة الأسر ،وروعة التوافق ، ما يجعل العرب الفصحاء يشيدون بروعة البيان القرآني ، وإعجازه السافر الواضح ، فشتّان بين هذا السجع الذي عرفه الكهان واتخذه بعض العرب الفصحاء طريقاً لهم في كتاباتهم ،شتان بين هذا وبين هذا المنطوق الذي امتاز بصفاء اللفظ وتمكن المعنى .

إنني لا أؤيد ما ذهب إليه بعض الباحثين[2] ، ومنهم الباقلاني بأن

(١) المصدر السابق ـ ص : ٧٥ .

(٢) إعجاز القرآن للباقلاني : ٥٩ .

السجع عيب يجب نفيه عن القرآن ،لأنه جاء في الأسلوب البشري العربي ، لأن السجع القرآني قد فاق هذه الصنعة البشرية ، وباين كل أسجاع الساجعين ، فجاء في أعلى صور البيان ،فكان ذاك دليلاً على أن القرآن لايقدر عليه أي عبقري ،ولا يعارضه أي فصيح عربي .

فكيف ينكر بعض الباحثين السجع القرآني ، مع أن السجع لون من ألوان البديع البلاغي ؟ ! ومن المعلوم بأن من أسرار إعجاز القرآن الكريم هذا النظم البديعي ببلاغته التي جاوزت المدى ،ففاقت جميع البلغاء العرب .

ولقد فطن بعض النقاد المحدثين (١) ،ومنهم الأستاذ العقاد إلى أن السجع لايعاب لذاته ، ولكنه يعاب لأن المتقدمين به يهملون المعنى في سبيل القافية ،أو الفاصلة ،فيعاب عليهم هذا الإهمال ،أما إذا اتفق السجع والمعنى فهو حسن رائع لاعيب فيه ،لأن الكلام به فيه زيادة وليس فيه نقص ، فيه مزيّة وليس بعيب ، ومطلب يراد وليس بمأخذ يجتنب .

ويذكر عبد القاهر الجرجاني (٢) في كتابه :« لاتجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه وحتى تجده تجنيساً مقبولاً لاتبتغي به بدلاً ،ولاتجد عنه حولاً » .

ومعنى هذا أن النقّاد القدامى والمحدثين أشادوا بكلِّ عبارة سجعية كان المعنى فيها هو المسيطر عليها ،ولعلهم بذلك اتخذوا القرآن الكريم في سجعه الرَّصين مثلاً أعلى يقوّمون به عباراتهم ،وآداب أممهم ، حيث أنهم لاحظوا السجع القرآني فأعجبوا به أيّما إعجاب ،لأنه لاغناء لإبراز مقاصد

---

(١) راجع : التيارات المعاصرة في النقد الأدبي للدكتور بدوي طبانة ص : ٢٩٣ الطبعة الثانية .

وبحوث في اللغة والأدب للعقاد ـ ص : ٢٥٥ طبعة ١٩٧٠ م .

(٢) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني : ص ٧ .

الآيات عنه ،فهو سجع حسن كلّه يفيض سحراً بنغمته التي تتجلى فيها الإشارات الخفية ،والمعاني المقصودة .

وإذا كنا قد أوردنا صوراً من التناسق الفنّي من حيث الشكل فلابأس بإيراد بعض النماذج من هذا التناسق في الصورة القرآنية القصصيّة ، فقوله تعالى في سورة يوسف : ﴿ أضغاثُ أحلامٍ ﴾ [سورة يوسف : ٤٤] ، فمن الواضح من الآية الكريمة حينما حدّث الملك أنه رأى في منامه سبع بقرات سمانٍ يأكلهن سبعُ بقرات هزيلة ، وسبع سنبلات خضر قد انعقد حَبُّها وسبع سنبلات يابسات قد استحصدت ،وطلب الملك من يفسّر له هذه الرؤيا ،ويعبرها ولكنه لم يجد من أصحابه والمحيطين به من يعبّرها له ،ويشير إلى ما تهدف إليه من معان قد تتحقّق حتى أشار عليه الساقي الذي عاصر يوسف في السجن ،وعلم من أمره ما علم فقال : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ [٢] [سورة يوسف : ٤٥] ، على معنى أنّ يوسف عليه السلام هو الذي على علم بتأويل المنامات ،وخبرة بتفسير الأحلام ،فأرسلون إليه لكي آتيكم بالخبر اليقين ،حتى ذهب إليه وفسّر له الرؤيا ، كما حدّث عن ذلك القرآن الكريم ، فحاشية الملك الذي رأى الرؤيا لم تجد معنى لما رأى ولا مدلولاً لما قصّه عليهم ، ومن ثمّ قالوا بأن ماشاهده الملك في منامه ما هو إلاّ أحداث نفسية راودته ،اختلط فيها الخير بالشر ،والأمن بالاضطراب ،وذلك دليل عجزهم وضعفهم عن تفسير الرؤيا ،لكن التعبير القرآني الكريم كانت عبارته الدالّة على ذلك فيها روعة التصوير ،وجمال العبارة ،حيث الاستعارة الموائمة والمعبرة عن المعنى المقصود بأروع عبارة ،فقال عز من قائل : ﴿ قالُوا أضغاثُ أحلامٍ ﴾ ، حيث أنهم شبّهوا اختلاط الأحلام وما فيها من طيّب ورديء ،ومقبولٍ ومردود ،وحسن وقبيح ،باختلاط الحشيش المجموع من أماكن متعدّدة ، وألوان مختلفة ،وهذا لاشك مما يقوّي المقصود عند حاشية

الملك ،وهو أن ما راوده في منامه ما هي إلا أحداث متشابكة ومتباينة تمام التباين قد راودته أثناء نومه .

والتعبير بكلمة « أضغاث » بما فيه من استعارة متناسقة تمام التناسق ،فيه فنّية أخّاذة ،وبراعة أكّدت المعنى المقصود ،وترجمت عن هذه الرؤيا حسبما زعموا ـ وإن كان الواقع خلاف ذلك ـ حيث أن يوسف عليه السلام قد عبّرها تعبيراً ينمّ عن خبرته الأكيدة في هذا العلم المنامي وفي التعبير بقوله : ﴿ إني أرى سبعَ بقراتٍ سمانٍ يأكلُهنَّ سبعٌ عجاف وسبعَ سنبلاتٍ خضرٍ وأُخَر يابسات ﴾ [سورة يوسف : ٤٣] .

نرى من ألوان البديع الطباق الأخّاذ الذي لانحس فيه إلا بكشف المعنى ولإتمام المقصود ،فكلمة « سمان » يطابقها « عجاف » وكلمة « خضر » يطابقها « يابسات » ،والألفاظ كلها تخدم المعنى المطلوب ،وتشير إلى المقصود ،فهو طباق رائع المعنى ،جميل العبارة تتفتح له النفس .

ومن ثمّ كانت الآية الكريمة قوية الأداء ،رائعة العبارة ،جميلة التصوير ،وهكذا نلمس كثيراً من المحسنات البديعية التي جاءت عفواً ،وطلبها المعنى ، وحينما تتلقف نغمتها الأذن تحسّ فيها بقوة التعبير ،ومن هذا البيان الرائع قوله تعالى :﴿فعرفَهُم وهم له منكرون ﴾ [سورة يوسف : ٥٨] .

أي أن يوسف عرف إخوته حينما ذهبوا لأخذ الميرة منه وهم لم يعرفوه ، فبين عرف وأنكر طباق ، ولكنه وليد المعنى ، فلم تعط الآية الكريمة مقصودها إلا به .

ومن جمال الصورة ما يتّضح في حديث موسى مع الخضر ،ففي المرة الأولى يقول الخضر لموسى : ﴿ إنك لن تستطيعَ معي صبراً ﴾ [سورة الكهف : ٦٧] ، وذلك حينما طلب منه مصاحبته بادىء ذي بدء حتى يعلمه ويبصره وينير له المسالك ، ومعنى هذا أن موسى ربّما أنه كان متردّداً في موقفه

مع الخضر هل يصبر على عناء هذا التعليم أم لايصبر؟ وهل يطيق تلك المصاحبة أم لايطيق؟

ومن ثمّ كان مقتضى الحال أن يجلي الخضر عنه دائرة الشك والتردد في الأمر، فبين له الحقيقة، وهو أنه لايستطيع أن يصبر على هذا التعليم، وتلك المعيّة، فاقتضى الأمر أن يؤكد الكلام لموسى بمؤكد وهو «إن».

ومن المعلوم أن هذا الضرب من أضرب الخبر الذي يسميه البلاغي الطلبي [1]، بمعنى أن المخاطب يكون موقفه الحيرة، ويحتاج إلى من يزيل عنه التردّد ويعطيه اليقين في أحد الأمور، ورأي البلغاء أن هذا الضرب الخبري يحتوي على مؤكد واحد كما ورد في الآية الكريمة، وبذلك يتمّ المراد والقصد من الأسلوب الخبري، ولكن موسى بعد أن عرف أن حاله قد لايطيق الصبر أراد أن يطمئن نفسه، ويثبت فؤاده، بأنه بعون الله ومشيئته سيتصف بالصبر، وسيوطن نفسه على تلقي الأمور بيسر وسهولة.

ولما رأى الخضر حال موسى وشغفه بالعلم، وحرصه على المعرفة استجاب له على شريطة أنه إذا رأى أمراً غير مقبول العلة في نظره، ولربما أنه لايتماشى مع العقل والمنطق السليم، فلا يحاول ربط السبب بالمسبب والعلة بالمعلول، حيث أن الأمر فهمه صعب، وطريقه وعر، وإدراكه يحتاج إلى جهد فكري، وتحليل ذهني مما لايقدر عليه موسى وأمثاله، ولهذا حينما صاحب موسى الخضر ورأى خرق السفينة، وقد أزعجه وأقلقه فهو أمر لايتماشى مع العقلية الإنسانية، ولا يتناسب مع التفكير البشري والإدراك الفطري حتى استنكر ذلك على صاحبه واستعجب أشد العجب من صنيعه هذا الذي قد يهلك قوماً ويغرق ركاب السفينة.

---

(١) والطلبي: هو ما كان فيه الشخص متصوراً للطرفين، متردّداً في إسناد أحدهما إلى الآخر، طالباً له حسن تقويته بمؤكد.

الإيضاح للقزويني: ١٨ - الجزء الأول - مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة.

ومعنى هذا أن موسى لم ينفذ وعده السابق حيث أنه عقد العزم على أن يثبت على ما رأى ويقف عند كلّ أمر غير مألوف فلا ينزعج ولا يلوم صاحبه ولا يؤنب من رافقه .

ومن ثمّ كان المناسب لمقتضى الحال أن يقول له الخضر :﴿ألم أقلْ إنك لن تستطيعَ معي صبراً ﴾ [سورة الكهف : ٧٢] ،ففي المرّة الأولى : ﴿ إنك لن تستطيع ﴾ من غير أن يقول : ﴿ ألم أقل ﴾ التي فيها إشارة إلى الوعد السابق فالخضر ،عليه السلام ،في المرة الثانية لما رأى موسى وقع في المحظور ذكّره بما سبق الالتزام به ،فكان المناسب أن يقول :﴿ألم أقلْ ﴾ فيضيفها على النص السابق ،وهو :﴿إنك لن تستطيعَ معيَ صبراً ﴾ .

أما في المرة الثالثة بعد قتل الغلام أضاف كلمة : « لك » التي فيها شيء من تقريع موسى وتنبيهه إلى خطأ وقع فيه وهو استنكاره لقتل الغلام ،والتقريع هنا المناسب لأنه إذا وقع الخطأ لأول مرة ،فقد يكون فيه شيء من الغفران ،أما الوقوع فيه مرة ثانية ،فهو العجب كل العجب .

ولذلك كانت مخاطبة الخضر لموسى في المرة الثالثة بلفظة « لك » التي تعني مخاطبة موسى ،وكأنه هو المقصود بالذات لأنه تمادى في النكران ،واستمر في التعجب مما دعاه الأمر إلى الاستفسار عن أمر لا يعرفه .

فمقتضى الحال في الآية الأولى : ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ .

وفي الآية الثانية : ﴿ ألم أقلْ : إنّك لن تستطيعَ معيَ صبراً ﴾ .

وفي الآية الثالثة : ﴿ ألم أقل لك : إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ [سورة الكهف : ٦٧ ، ٧٢ ـ ٧٥] .

ولذلك لما علم الخضر من تكرار موسى للسؤال لاستمرار دهشته رأى أنه لايصلح للمصاحبة حتى قال :﴿هذا فراقُ بيني وبينِك ﴾ [سورة الكهف : ٧٨] .

وعلى هذا يكون الخضر صادقاً فيما فهمه أولا ، وهو أن موسى لايقدر

على مصاحبته ، ولا يصبر على مشاهدة شيء قد يعزّ عليه فهمه ويصعب عليه مراده .

وفي هذه التعبيرات الثلاثة ما يفيد أدب الأستاذ مع التلميذ ومعاملته بلطف ، حيث أن الأسلوب أو العبارة بعيدة عن الجفوة في التعبير والتأنيب المكشوف ، واللفظ المقذع ، وإنما هي عبارات مع إصابتها الهدف وبلوغها المراد ، فيها مسحة رزينة من أدب المعاملة ، ورقة الطبع ، وحسن الخلق ، وملاطفة الأستاذ لتلميذه ، فهذه الآيات الثلاث مع قصرها أوحت إلى المعاني الشريفة ، ودلّت على الغايات المقصودة مع حشمة ووقار وتواضع العلماء ، وتسامح فيّاض ، ومعاملة كريمة ، ومعاشرة أصيلة ، وفيها من نبل الخلق ما فيها ، والتواضع الجم ، وطمأنينة النفس ، ورقّة المشاعر[1] .

ومن ثمّ فهي نبراس للمعلمين ، وقدوة للمربّين ، وغاية يلتمسها كلّ قوّام على رعيّة ، ومسدٍ للنصائح لكل طائفة تسترشد ، وأمة تبغي الحق ، وتطلب الهداية والرشاد .

* * *

(١) وكما اختلفوا في الرجل الصالح ، اختلفوا في موسى صاحبه فقيل : هو موسى بن منشأ بن يوسف بن يعقوب .

ورجح ابن الأثير أن موسى صاحب الخضر هو موسى بن عمران عليه السلام ، وساق تدليلاً على هذا حديث سعيد بن جبير إلى ابن عباس أنه سمع أبيّ بن كعب ، عن النبي ﷺ يقول : إن موسى قام في بني إسرائيل خطيباً ، فقيل له : أي الناس أعلم ؟ قال : أنا ، فعتب الله عليه حين لم يردّ العلم إليه ، فقال : يا رب هل هناك أعلم مني ؟ قال عز وجل : عبد لي بمجمع البحرين ، قال : يا رب ، وكيف لي به ؟ ... وساق قصة الحوت ... الخ .

راجع : الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ الجزء الأول : ٩٠ الطبعة الثانية .

الفصل الثاني
الإصابة في نقل العواطف

الإصابة في نقل العواطف :

وفي قصة موسى مع السحرة قوله تعالى : ﴿ فأوجَس في نفسه خيفةً موسى ﴾ [سورة طه : ٦٧] .

وسر جمال التعبير أن الله تبارك وتعالى عبَّر بكلمة « أوجس » التي تفيد أن موسى وإن أحس بالخوف من فعل السحرة الذين هم من قوم فرعون ، إلا أنه أضمر ذلك في نفسه ولم يعلنه ، إذ أنه لو أعلنه لأدّى ذلك إلى حدوث الهلع والفزع في قوم موسى ، وهم أحق بمن يثبّت همّتهم ويشحذُ عزيمتهم ، فإضمار موسى في نفسه إشفاقاً على قومه ، كان ذلك مدعاة لأن ينهار جيشه ويتحطّم من حوله ، إذ أن قومه في حاجة إلى عون روحي ، ومدد معنوي من موسى عليه السلام ، فما بالكم وأن موسى في مرأى أعينهم ، وقد خارت قواه ، وضعفت أمانيه ، إن الحكمة الإلهية اقتضت التعبير بـ « أوجس » حتى يثبت الجند ، ويأمن السحرة إذا أضيف إلى ذلك ، بأن هذا الكتمان من جانب موسى فيه بريق أمل ، ونزعة تفاؤل ، إذ أن موسى عليه السلام يعلم أنه مرسل من قبل ربه ، فإن أحس بخوف فسرعان ما يتبدد هذا الخوف ، ويزول هذا الرعب ، وقد قال تعالى في مبدأ توجيهه إلى فرعون ﴿ لا تخافا إنّني معكما أسمعُ وأرى ﴾ [سورة طه : ٤٦] .

ومن جمال العبارة تقديم الجار والمجرور على الفاعل ليفيد أن هذا الحدث أمر نفسي منبثق في الأغوار ، متعمق في قرارة النفس ، فليس خوفاً شكلياً أو وهمياً ، أو ادعائياً ، بل هو خوف يقيني ، وهذا من شأنه يدل على

عقيدة موسى الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله عز وجل ،فهو يرى أن نصره على فرعون وقومه من عوامل نشر رسالته ،وإحلال العدل وإبادة الظلم والطغيان ،فالأمر أكبر من كلّ شيء ، حتى كان الإحساس رهيباً والمشاعر مرتاعة ،حينما بدت الملامح الظاهرية لقوم فرعون تنبىء بشيء من مهارتهم السحرية ، ومن ثمّ تدارك المولى عز وجل هذا الموقف حتى يتثبت موسى ،وهو القائد الذي ترنُو إليه الأبصار ،وتتّجه إليه الأفئدة ،فقال عز من قائل : ﴿ قلنا لاتخف إنك أنتَ الأعلى ﴾ والتعبير بلفظ « الأعلى » فيه تعريض بفرعون ،وسخرية من دعواه الباطلة ،إذ أنه كان يعلن أمام قومه أنه هو الأعلى ،وذلك بعد أن دعاهم موسى إلى عبادة الله عز وجل ،قال تعالى على لسان فرعون : ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ [سورة النازعات : ٢٤] .

ومعنى هذا أن قول الله عز وجل : ﴿لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ ،مخاطباً لموسى عليه السلام ، تتناسب مع قول فرعون بعد أن دعي إلى عبادة الله سبحانه فقال : أنا ربّكم الأعلى ﴾ على معنى أن العلّو والمكانة الرفيعة ،ليس من جانب أهل الظلم والطغيان ،الذي يمثله فرعون ، وإنما هو من جانب أهل الهداية والرشاد الذي يمثله موسى عليه السلام ،على أن وصف الله عز وجل لموسى بالعلوّ ،إشارة إلى أن الفرق السافر بين نفسية موسى ونفسية فرعون وقد وصفها الله عز وجل بقوله :﴿إن فرعونَ علا في الأرض وجعلَ أهلها شيَعاً يستضعف طائفةً منهم يُذبِّح أبناءهم ،ويستحيي نساءهم ﴾ [سورة القصص : ٤] ، وهي نفسية الطغيان والفساد في الأرض .

ومن ثمّ كان وصفها بالعلّو على لسان الحق عزّ وجل علو في قمة الفساد ،وعلو في الطغيان والاستبداد .

أما علوّ موسى فهو علو الغلبة والنصر ،لا في سبيل تحقيق نزعة الغرور والتسلّط على العباد ،وإنما في سبيل محو الباطل ،وإزالة الفتنة ،وصعق

الجبابرة ،وعلى هذا فمخاطبة الله موسى بقوله سبحانه :﴿إنك أنت الأعلى﴾ تتناسب مع وصف فرعون لنفسه حين قال :﴿أنا ربّكم الأعلى﴾ ،وتتناسب أيضاً مع وصف الله عز وجل لفرعون بقوله :﴿إنّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعفُ طائفةً منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ .

وهذه تشتمل على ستّ كلمات ،سناؤها ،وضياؤها على ما ترى ، وسلاستها وماؤها على ما تشاهد ، ورونقها على ما تعاين ، وفصاحتها على ما تعرف .

وهي تشتمل على جملة وتفصيل ،وجامعة وتفسير : ذكر العلوّ في الأرض باستضعاف الخلق ،بذبح الولدان ،وسبي النساء ،وإذا تحكّم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما ؟ ! ! ، لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم والقلوب لاتقر على هذا الجور ،ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد ،وكفت في التظليم ،وردت آخر الكلام على أوله ، وعطفت عجزه على صدره ،ثم ذكر وعده تخليصهم بقوله :﴿ونريد أن نمُنَّ على الذين استُضْعِفُوا في الأرض ونجعلَهم أئمّةً ونجعلَهُم الوارثين﴾ ، وهذا التأليف بين المؤتلف ،والجمع بين المستأنس (١) .

على أن مخاطبة الله سبحانه وتعالى لموسى بقوله :﴿إنك أنت الأعلى﴾ [سورة طه : ٨٦] ، مافيها من اطمئنان نفس ،وتثبيت داعية إلى الحق ،وتمكين رسول من رسل الله في أن ينهض بدعوته ، ويقوم برسالته .

أما عن قول الله عز وجل على لسان امرأة فرعون : ﴿ وقالت امرأةُ فرعون قُرَّةُ عينٍ لي ولك لاتقتلُوه عسى أن ينفَعَنا أو نتَّخِذَه ولداً﴾ [سورة القصص : ٩] ،هو تصوير رائع وتعبير قرآني جميل ،إذ أنّ هذه العبارة التي

(١) إعجاز القرآن للباقلاني : ٨٠ من المقدمة .

صدرت من امرأة فرعون لها مدلُولها النفسي الوثيق ،وإيحاءاتها التي تمتد إلى أغوار المشاعر الإنسانية ، ومن ثمّ ما أحوجه إلى من يرقق مشاعره ،ويخفف شيئاً من صلفه وغروره ،وخصوصاً أنه يرى أن في قتل هذا الطفل الصغير حماية لنفسه ،وأمنا لحياته ،حسبما زعم المنجمون أن هناك من سيقضي على مصيره ،ويغلبه على أمره .

أليس فرعون الذي شأنه كذلك في حاجة ماسّة إلى من يمنعه عن البطش بموسى ،الطفل الصغير ،ويحجبه عن ذبح من التقطه آل فرعون .

ومن ثمّ كانت كلمة امرأة فرعون برداً وسلاماً على قلبه مادام أن هذا الطفل الصغير سيصبح في يوم « ما » تقربه عين فرعون ،وعين زوجته ،وأنه سيصير في يوم « ما » عوناً ورفيقاً بارّاً له ،فإنه سيصبح ولداً له ،به يهنأ فرعون ،وبالنظرة إليه تهنأ خواطره ،وتسعد عواطفه وتستقر حياته ،وبه يقوى ،ومنه يرفل في ثوب السعادة والهناء .

أليس هذا كله كفيلاً بأن يثني فرعون عن عزمه ،ويرجع عن قصده ،ويتقهقر عن شرّه ،فيتغيّر قصده ،ويبدّل بطشه ،ويحوّر نقمته فيفسح صدره ،ويبشّ وجهه ،ويفتح بابه لهذا الرضيع الصغير ،حتى يصمّم على رعايته ،ويتعهد بتربيته ،ما دام أنه ظلٌّ ممدود لحياته وعون له في المستقبل ،ولاشكّ أن العبارة :﴿قُرَّةُ عينٍ لي ولك﴾ التي فسّرتها بما بعدها ،تعطي هذه الجوانب النفسية ،وتوحي بهذا التغير السريع الذي لحق فرعون ،وأضاء وجدانه ،بإشعاع الرحمة الفيّاض ،والنور الوّهاج ،الذي كان سبباً في حياة موسى ،ونجاته من بطش كيد فرعون الأثيم ،إنها صورة مشرقة ، وعبارة أخّاذة ،ولانقدر سموّها ،وندرك آثارها ،إلا إذا اعتبرنا القصّة الموسوية خاليةً منها ،بعيدة عن إشارتها ،فإننا حينئذاك نرى بأعيننا فرعون وقد صبّت شرارات البطش من عينه ،ولمعت أمارات الغضب في محياه ،ومن ثمّ فلا مفرّ من ذبحه لطفل صغير لا حول له ولا قوة .

إن هذه العبارة ﴿قُرَّةُ عينٍ لي ولك﴾ لها مدلولاتها الواسعة ومنبعها الثّر، وفيضها الغزير، واتجاهاتها الموحية بمعان مستكنّة، وإداركات خفيّة، إنها تشعّ بخلق فرعون التي آثرت المصلحة الشخصية التي تعود عليه، والأنانية المتحكمة فيه، فهو يعمل لنفسه، ولو على حساب إراقة الدماء البريئة.

ومن ثمَّ فهو يرى ذبح الأطفال حلاً، وجريمة سفك الدماء غيرَ مستنكرة، اللهم إلاّ إذا تركها تثبيتاً لحياته، ودعماً لقوّته، وقرّة عين له ولامرأته.

ومن ثمّ كان في ترك موسى، وإبقاء حياته، ما زعمه أنه أمن وطمأنينة «فهو قرّة عين له».

وفي قوله تعالى: ﴿ولما سكتَ عن موسى الغضب﴾ [سورة الأعراف: ١٥٤]. نجد دقة التصوير في قوله «سكت»[١]، لأن السكوت يدلّ على أن الغضب وإن خمد في جانب موسى في فترة من الفترات، فإنه سيعود مرة ثانية وثالثة ورابعة، وهذا على خلاف التعبير بانتهاء الغضب، لأن الانتهاء يؤذن بأن الغضب قد انمحى، وعلى هذا لن يعود مرة أخرى، فكان التعبير بالسكوت أجمل تعبير، وأروع أداء، وفيه من الجمال ما فيه.

ومن الصور النفسية قوله تعالى: ﴿إنّي آنستُ ناراً﴾ [سورة طه: ١٠]، نفسية موسى أو شعوره النفسي كان يتطلّع إلى الدفء حيث أنه من الثابت أنه في تلك الآونة كان الجوّ شاتياً مطيراً[٢]، ثم إنه كان في حاجة

---

(١) وهنا في سكت استعارة، حيث شبه الغضب بإنسان، وحذفه ورمز له بشيء من لوازمه وهو السكوت، على سبيل الاستعارة المكنية التبعية.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ـ الجزء الأول ـ ص: ١٠٠ طبعة بيروت ـ الطبعة الثانية.

إلى قبسة نارٍ عله يستضيء بها ،كما أنه كان في حاجة إلى أمل يتحقق ،وهاد يهديه ويرشده .

ومن ثمّ حينما رأى النار موقدة ،وجد أنها بغيته ،وأنها منفذ قوى لاسترضاء نفسه ،ولذلك لفظ « آنست » مصوّراً تمام التصوير مشعّاً عن أضواء نفسه التي أنست بتلك النار ،وابتهجت بهذا اللهيب المتوهج ،حيث أنها تشبع رغبته في الدفء ،كما يقول تعالى : ﴿ لعلّكم تَصْطَلون ﴾ .

كما أنها ربما تحقق مطمعه في طلب الهداية والرشاد ،وكما يقول :﴿لعلّي آتيكُم منها بقبسٍ أو أجدُ على النار هدىً ﴾ .

فالأنس فيه بهجة ،وارتياح نفسي ،وعلى هذا كان التعبير القرآني رائعاً في مدلوله ،قوياً في ألفاظه ،صائباً كلّ الإصابة في تحقيق كلّ معنى نبيل ،وجوانب نفسية رفيعة .

وقال تعالى :﴿وأصبح فؤادُ أمّ موسى فارغاً ﴾ [سورة القصص : ١٠] . فإن كلمة « فارغاً » قد أضفت على الآية جمالاً أخّاذاً ،وصوراً رائعة ،وذلك أنّ كلمة فارغاً أفادت بأن حدث موسى وإلقاءه في التابوت ،وتحديد مصيره ،سبب القلق والجزع في نفس أم موسى ،وذلك لأن فؤادها ما انشغل بشيء من خواطر الحياة ،وما تعلق بأي حدث كوني إلا بحدث وليدها موسى فحسب ،فأصبحت مشاعرها تنبض به ،ووجدانها يتحرك نحوه ،وخواطرها مشغولة بمصيره ،فأحاسيسها كلّها تتجه إليه ،فكان فؤادها فارغاً من كل هوى ،لأنه لا مكان فيه إلا لموسى ،ولا خطرة فيه إلا التعلق بحياته ،فهذه الكلمة لها إيحاءات تصور عواطف الأمومة التي بلغت المدى .

ومن ثمّ فهي ملتاعة تعيش في حيرة حتى يأتيها داعي الاطمئنان ،وتصل إليها بشرى الأمان ،ولو أن الكلام في غير القرآن وقيل « وأصبح فؤاد أم موسى ملتاعاً به ،ومشوقاً إليه » لأدرك الفرق بين كلمة

« فارغاً » و« ملتاعا » ، إذ أن القلب قد ينشغل بأمر فترة ، ثم يشغله أمر آخر وثالث . . . الخ ، ولكن كلمة « فارغاً » بلغت أن الانشغال منصب في تيار واحد ، وهو فلذة كبدها ، ومعين حياتها ، وخصوصاً أنها هي التي وضعته بيدها في اليم .

ومن ثمّ أراد الله عز وجل اللطف بها فخفّف من بأسها ، ولطف من لوعتها ، واتجاهها الكلي نحو الخوف على ولدها ، فثبتها وطمأنها وأودع في قلبها الثقة والأمان ، فكان التعبير القرآني الجميل : ﴿ لولاَ أنْ ربَطْنا على قلبها لتكونَ من المؤمنين ﴾ [سورة القصص : ١٠] ، فالإيمان بالله يقتضي الثبات والصبر على المكاره ، وتحمل النوائب والشدائد ، ولربما أن هذا الحدث الموسوي قد يغير من طبيعة الأمومة ، فالله سبحانه يتداركها بعطفه ، فيمنحها قوة اليقين ، ويعطيها الرضا والاعتماد عليه ، ومن ثمّ تبقى عقيدتها الراسخة ، وإيمانها الفيّاض ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها لتكونَ من المؤمنين ﴾ .

وفي قوله تعالى : ﴿ ربِّ إنّي لما أنزلتَ إليّ من خيرٍ فقيرٌ ﴾ [سورة القصص : ٢٤] جمال لايدانيه جمال ، حيث يصور الكليم حاجته الملحّة إلى ربّه في جميع شؤونه وأنه لايفتأ متمسّكاً بحبال الله الذي هيّأ له السلامة في جميع أموره واختصه بالكرامات ، ونجاه من يد أعدائه ، فهو يقول : رب إني مع ذلك كلّه فقير إلى فضلك ورحمتك ، فالآية تشفّ عن نفسية موسى الحامدة لربّها ، المعترفة بفضل الله عليها ، فكم من منة أسداها ، وكم من فضل غمر به ومع ذلك كلّه هو يطمع دائماً في عون الله ، ويحتاج إلى مزيد من نعائمه وفيض من صيّب معروفه ، ومن ثمّ فهو فقير إلى الله في عوز إليه ، فقد منّ الله عليه بالسلامة في دينه ، ونجّاه من فرعون وكيده ، ولكنه في أمسّ الحاجة إلى ما يسدّ به رمقه من لقمة عيش تقيم صلبه ، وتسند أوده .

يذكر ابن كثير عن ابن عباس : « أن الكليم قدم مدين ، وأن بطنه

لاصق بظهره من الجوع ، وأن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ! وإنه لمحتاج إلى شقّ تمرة »[1] .

ونحن إذ نقف من هذه الرواية موقف القبول لورودها من رجل عدل ثقة كابن كثير ، إلا أننا لاننسى أن نقف موقف التحفظ منها ، كأي حديث من الإسرائيليات ، من غير خوض فيها ، بل تمر كما جاءت ، لأن الأحاديث الإسرائيليات لاتصدق ولا تكذب ، كما نلمح ومضة من ومضات الشعور بالذنب من قبل موسى عليه السلام ، فهو يحس ببعض الجزع من قتل النفس ، ولكنّه مفتقر إلى عفو ربه ، وفيض غفرانه ، وهو التوّاب الرحيم .

وفي قوله تعالى : ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياءٍ ﴾ [سورة القصص : ٢٥] ، ففي كلمة « استحياء » ما فيها من جمال التعبير الذي يصوّر ما كانت عليه هذه الجارية من العفّة والطهر ، ويصور النزاهة والعفة التي كان عليها سيدنا موسى عليه السلام ، فإن جارية موصوفة بالطهر والنقاء والحياء لاتقدم على ما أقدمت عليه إلا وقد عرفت ولمست من خلال تعاملها معه في السقيا أنه إنسان جليل القدر ، عفيف ، شريف ، نظيف .

من هنا كان ردّ فعلها أن عادت لتدعوه إلى مقابلة أبيها حينما طلب منها استدعاءه ، ولم تر في ذلك أي تشويه لسمعتها أو إخلال بما هي عليه من حياء .

وانظر إلى جمال التعبير القرآني الذي صوّر ما هي عليه هذه الجارية من عفاف ، فقد جاءته على استحياء ، وكان قد أصبح يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم ، فأصبح كلا فيها ، ولذا لما طلب أبوها من الكليم زواجه مقابل الرعي ، لم يتردد في هذا الزواج ، وكيف يتردد وقد خبر الكنانة وعجم عيدانها وعلم من أمرها ما علم .

---

(١) راجع : تفسير ابن كثير ـ المجلد الثالث : ٣٨٤ ـ طبعة بيروت ١٣٨٨ هـ .

يقول ابن عباس : « جاءته معترضة رافعة كمها على وجهها كمشي العذارى ،واضعة يدها على وجهها » ،وهذا من كمال حياءها[1] .

زاد ابن كثير : « فليست بسلفع من النساء ولّاجة خراجة »[2] .

وقال عز من قائل في فرعون وقومه : ﴿ كَمْ تركُوا من جنّات وعيونٍ * وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ * ونَعْمَةٍ كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخَرين * فما بكَت عليهم السماءُ والأرضُ وما كانوا مُنْظَرِين * ﴾ [سورة الدخان : ٢٥ ـ ٢٩] .

فقد صورت هذه الآيات موقف قوم فرعون ،وما آل إليه حالهم أشد تصوير ،وأقذعه ،وكأن كلّ آية سوط من جحيم تقشعر منه الأبدان .

فهي تصور حال أولئك الكفرة الجاحدين ، وما آلوا إليه من مآل نتيجة أعمالهم السيئة ،وأن الإنسان إذا أنعم الله عليه بنعمة فلم يؤدّ حقها جازاه الله بالنقيض ،فسلبه تلك النعمة ،ثم إن العذاب بعد النعمة أنكى وأبلغ وأشدّ إيلاماً ،لأنه يقوم مقام التبكيت والتقريع والسخرية ،فإن الأمور حينما تصبح في يد من كان بالأمس مضطهداً مغلوباً على أمره ، فلا شك أن الوضع حينئذ كالصاب بعد العسل ،وهذا ما حدث لفرعون وقومه ،فقد أهلكهم الله وأعقبهم بعد تلك النعم التي كانوا يستمتعون بها ذلّ الدهر ﴿ النارُ يُعْرَضون عليها غدوّاً وعشيّاً ﴾ [سورة غافر : ٤٦] ، ووصل ما بأيديهم إلى قوم موسى عليه السلام ،كما يصل الميراث إلى وارثه ،فضلاً عن أن فرعون وقومه لم يعبأبهلاكهم ودمارهم أحد ،فلا السماء جزعت لمصابهم ولا الأرض اكترثت بدمارهم ،لأنهم لم يعملوا عليها صالحاً يذكرون به ،والسماء لم يصعد إليها عمل صالح فتبكي عليهم به ،فكانوا عديمي الجدوى إن لم يكونوا شراً مستطيراً .

---

(١) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : ٣٢٥ ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت .

(٢) ابن كثير ـ المجلد الثالث : ٣٨٤ .

وفي قوله تعالى : ﴿ قال : هي عصاي أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمي ، ولي فيها مآرب أخرى ﴾ [سورة طه : ١٨] ، كان يمكن أن يقول : هي عصاي ولا يتعرّض لما لها من منافع كثيرة واستخدامات متعددة ، ولكنه كان متلذذا أشد التلذذ بهذا اللقاء الربّاني ، والمخاطبة الإلهية ، حتى كان إطنابه في الإجابة دليلاً على ارتياحه النفسي وشعوره الفيّاض بتلذذ الخطاب ، مما يدل على العواطف المحبة لله سبحانه وتعالى .

والتعبير بقوله : ﴿ خُذْها ولا تَخَفْ سنعيدُها سيرتَها الأولى ﴾ [سورة طه : ٢١] ، حينما ألقى عصاه فإذا هي حيّة تسعى ، وذلك يدلّ على أن الله عز وجل يهيئه لأن يتقبل ما يلقي عليه من معجزة تذهب سحرهم فيما بعد ، فحينما يقف أمام قوم فرعون فيلقي عصاه فتتحول إلى ثعبان مبين بدلاً من أن يذعر موسى أمام أعدائه يكون ثابتاً كالطود الأشمّ ليرى وليتفرغ لصنيع أعدائه حينذاك ، فالأصل للبشرية أن تنصعق أو تهتز أو ترتجف أو على الأقل تصاب بدهشة حينما ترى أمراً غير مألوف مثل العصا التي تحولت إلى ثعبان ، والأصل فيه الشر ، فتهيئة الله لموسى عند مفاجأته حيث أن العصا تحولت إلى حية ، هذا يمكنه من أن يتلقى المعجزة برباطة جأش ، وبجنان ثابت وبعزيمة قويّة ، حتى تكون الغلبة له والهزيمة لأعدائه ، وبذلك تحوّلت العواطف التي طبعت على الخوف وعلى الدهشة إلى عواطف كلها أمن ويقين بالله عز وجل .

لقد اتضحت عواطف موسى المشبوبة بحب الله ، الحريصة على أن يعبد قومه الرحمن ، ويتركوا عبادة ما سواه ، حينما ذهب موسى لميقات ربه ﴿ وواعَدْنا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناها بعشرٍ فتم ميقاتُ ربّه أربعين ليلة ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٢] ، فبعد تمام الأربعين ذهب موسى لتلقي الألواح التي تتضمن الوصايا التي يلزم بني إسرائيل أن يعملوا بها حينما ذهب موسى لميقات ربه أمر أخاه هارون أن يكون نائباً عنه فيتولّى أمر بني إسرائيل ويحرص

على شؤونهم أشد الحرص ،ولكن قوم موسى بعد غيابه عنهم تلك الفترة عبدوا العجل الذي أضلهم به السامري ،بعد أن جمع الحلي الذهبية وصاغها على هيئة العجل [1] بعد أن أخذ حفنة من تراب أثر حافر فرس جبريل فوضعها في فم العجل فصار له خوار ﴿ واتّخذ قومُ موسى من بعده من حُلِيِّهم عجلاً جسداً له خوار ،ألم يروا أنه لايكلّمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٨] .

فلما رجع موسى إلى قومه ووجد قومه يعبدون هذا العجل الذي أخرجه لهم السامري ، غضب أشدّ الغضب ، وتألّم أشد التألم ،وثار على أخيه هارون ثورة عارمة ،حتى أخذ برأسه وجذبه جذباً عنيفاً ،ولامه على تركه هؤلاء الناس يستسلمون لصنيع السامري ويعبدون شيئاً لا يكلمهم ولا يهديهم ولا يملك لهم ضرّاً ولا نفعاً ،ومع أن هارون قد نصحهم في غيبة أخيه موسى ﴿ ولَقد قال لهم هارونُ من قبلُ : ياقوم إنما فتنتم به ، وإن ربكم الرحمٰن فاتبعوني وأطيعوا أمري * قالوا : لن نبرحَ عليه عاكفين حتّى يرجع إلينا موسى ﴾ [سورة طه : ٩٠-٩١] ،مع موقف هارون هذا إلا أن موسى اشتد غيظه ولام هارون على هذا ﴿ قال : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلّوا *ألّا تَتّبِعَنِ أفعَصَيت أمري * قال :يا ابن أُمَّ لا تأخُذْ بلحيتي ولا برأسي إني خشيتُ أن تقولَ : فرّقت بين بني إسرائيل ولم ترقُب قولي ﴾ [سورة طه : ٩٢-٩٤] .

وهكذا مع موقف هارون وموقفه تجاه بني إسرائيل ،إلا أن موسى اشتدّ غيظاً ،واحتدم الأمر بينه وبين أخيه هارون ،وما ذاك لشيء إلا لشدّة غيرته وحرصه على نشر دين الله ،فلا عبادة إلا لله .

(١) صفوة التفاسير- الجزء الثامن : ٦٨ ،قال الرازي : قيل إنه صار حيا وخار ،وقيل : لم تحله الحياة وإنما جعل فيه منافذ تدخل فيه الريح فيخرج له صوت يشبه العجل .

ولم يكتف موسى بذلك بل خاطب السامري مقرعاً ومعنفاً ﴿ قالَ : فما خطْبُكَ يا سامريّ ﴾ [سورة طه : ٩٥] ؟أي : ما الذي حملك عليه حتى ضلّلت الناس بعبادة العجل ؟ ﴿ قال : بصرتُ بما لم يَبْصُروا به فقبضْتُ قبضةً من أثرِ الرسولِ فنبذْتُها وكذلك سوَّلَتْ لي نفسي ﴾ [سورة طه : ٩٦] .

وهنا اشتدّ غضب موسى على السامري حتى عاقبه عقاباً صارماً في الدنيا فهو لايمسّه أحد ولا يمسّ أحداً ﴿ قال : فاذهب فإن لك في الحياةِ أن تقولَ لا مِساس ﴾ ، وقد شدّد الله عليه العقوبة فله عذاب في اليوم الآخر ﴿ وإن لك موعداً لن تُخْلَفَه ﴾ ،ثم بعد هذا قال موسى للسامري : ﴿ وانظُر إلى إلهكَ الذي ظَلْت عليه عاكفاً لَنُحَرِّقنَّه ثم لَنَنْسِفنَّه في اليمِّ نسفاً ﴾ [سورة طه : ٩٧] . ثم بعد هذا طمأن خاطر قومه فقال : ﴿ إنما إلهُكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كلَّ شيء علماً ﴾ [سورة طه : ٩٨] .

وهكذا كان حدث العجل مثيراً لنفس موسى محركاً لمشاعره ظناً منه أن في عبادة العجل ما قد يفيد أنه قد فشل في أداء رسالته ،وعجز عن الدعوة إلى ربه حتى حرك نفوس بني إسرائيل ،ودعاهم إلى العودة إلى الرشاد ،فقال كما يستفاد من الآية : إذ قال موسى لقومه : يا قومِ إنّكم ظلمتُم أنفسَكُم باتّخاذكم العجلَ فتوبوا إلى بارئِكم فاقْتُلوا أنفسَكُم ﴾ [سورة البقرة : ٥٤] .

لقد تلاحمت عاطفة الإيمان المتأججة في نفس خليل الله إبراهيم بعاطفة الأبوّة وذلك حينما كانت رؤياه المنامية التي هي أمر لهي بذبح ولده ،فكانت استجابته لربّه وامتثاله لأمر خالقه أقوى من أي شيء ،حتى قال لولده :﴿يا بنيّ إني أرى في المنام أني أذبحُك فانظُر ماذا ترى قال : يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ [سورة الصافات : ١٠٢] .

إن عاطفة إبراهيم تنجلي تماماً بهذه الآية القرآنية ،فالولد فلذة كبده

والحرص عليه أمر جبلّي في النفوس ،ولكن حبّه لله يطغى على كلّ ما عداه مما يدل على قوّة يقينه ،وخضوعه للحقّ عز وجل .

وما أروع القرآن الكريم حينما يصور عاطفة الوالد وولده ،فيقول عز وجل : فلما أسلَما وَتَّله للجبين ﴾ أسلم الولد لأبيه ،وأسلم الوالد لربّه ﴿ وتَّلهُ للجبين ﴾ أي :وصرعه على جبينه ﴿ وناديناه أن ياإبراهيمُ * قد صدَّقت الرؤيا ،إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ .

لقد انكشفت خبايا النفوس ،وتجلّت الحقائق ساطعة بهذا الابتلاء ﴿ إنّ هذا لهوَ البلاءُ المبين ﴾ حتى فاز خليل الرحمن برضى الله عنه بعد أن نجح في هذا الاختبار الربّاني .

﴿ وفَدَيْناه بذِبْح عظيم *إنه من عبادنا المؤمنين * وبشّرناه بإسحق نبيّاً من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذرِّيَّتهما محسنٌ وظالم لنفسِه مبين ﴾ [سورة الصافات : ١٠٧ - ١١٩] .

وما أروع تصوير العواطف النبيلة تجاه يونس عليه السلام ،فإذا كان الحوت قد التقمه وهو مليم نفسه ،حيث أنه قد ترك قومه مغاضباً لهم ،وخرج بغير إذن من ربه ،حتى إنه وهو في بطن الحوت ظلّ يذكر ربه ويسبّح بحمده ،وهو دليل على أنه ما ترك قومه استكباراً أو إعراضاً عن إتمام الدعوة ولكنه تضجر منهم لعدم استجابتهم لداعي الحق عزّ وجل .

إن يونس عليه السلام رأى أن تركه لقومه ،وعدم صبره على استعلائهم ،جرم ما بعده جرم ،حتى إنه اعترف بالخطيئة ،وأيقن بأنه ظلم نفسه : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ [سورة الأنبياء : ٨٧] .

وهكذا سجلت تلك الآيات الكريمات لمحات عن عواطف يونس المشبوبة بحبّ الله ،الحريصة على رضا الله ،فلم تزده المحنة التي تمثلت في ابتلاع الحوت إلا إيماناً فوق إيمان ، وذكراً لله فوق ذكر ،حتى استجاب

لله ،وعفا عن زلته التي هي من باب « حسنات الأبرار سيئات المقربين » ﴿ فلولاَ أنّه كان من المسبّحين *للبثَ في بطنهِ إلى يوم يُبْعثون ﴾ [سورة الصافات : ١٤٣ ـ ١٤٤] .

وقصة يونس عليه السلام مع ورودها في سورة الصافات في لمحات سريعة ،وآيات قصار ،بما يمكن أن نسميه بالقصة القصيرة ،إلا أنها ليست على شيء مما يصنعه أرباب القصة القصيرة في مجتمعنا العصري ،وكما يتحدّث الناقد الأرجنتيني [1] المعاصر « أندرسون أمبرت » عن حكاية قصيرة ما أمكن فيقول : « يضغط القصّاص مادته لكي يعطيها وحدة نغم قوية ،ويضع القصّاص النهاية فجأة ،والكل يترقب حل عقدته بفارغ الصبر » .

فالقصة القصيرة في القرآن الكريم وهي الإعجاز ،كلّ الإعجاز ،فوق المستوى البشري ،فهي إن مثلت العواطف المشبوبة بوحدة نغم قوية فليست على حساب تلاشي بعض أحداثها الهامة ،ومادتها التي هي ركن أساسي ،وإنما فيها تسلسل وتتابع حتى تأتي النهاية نتيجة لتلك المقدمات .

وفي رأيي إن النقاد المعاصرين حينما وضعوا حدّاً للقصة القصيرة ومعياراً خاصاً بهم ،لعلهم وضعوا نصب أعينهم ما حكاه القرآن من بعض القصص المحدودة الكلمات التي لم يَطُلْ أسلوبُها ، ولم تكثر أحداثُها حيث أن القصة القرآنية بهذا المفهوم إذا تأملناها ووعيناها وجدناها ثملة بالمعاني مليئة بالإشارات الخفية تذخر بالإيحاءات الكثيرة ،وطاقتها قادرة على أن تفصح مع قصرها الملموس عن كثير من الإدراكات ،ومن ثمّ كان لها من الإبداعات وقمة الفصاحة والثمرة الموفورة الشيء الكثير .

إن القصة القصيرة القرآنيّة تعين على فهم أسرار النفوس ،وتعرب عن

---

(١) القصة القصيرة ـ دراسة ومختارات د. الطاهر أحمد مكي : ٧٣ طبعة عام ١٩٧٨ م .

العواطف المستورة، وتترجم عن حدث يضفي على صاحبه البهجة أو الألم، وبذلك كانت مع قصرها معبّرة تماماً حيث أنها تجاوزت ما يصنعه المحترفون من القصّاصين من التصنع في العبارة المضغوطة، والاحتراز من الإسراف في الكلام، ففرق بين المطبوع والمصنوع.

إن القصة القرآنية القصيرة لم تكن ضعيفة في نقل العواطف، بل اتسمت بالقوة والتصوير الدقيق، كما هو الحال في كثير من القصص القرآني التي فيها شيء من التفصيل، والتطويل الذي يناسب المقام ويقتضيه الحال.

وبذا كانت القصة القرآنية بجميع ألوانها وأطرافها على نسق واحد من حيث إصابتها في نقل العواطف، فلم تفتر في حين، وتقوى في حين أخر، وإنما كانت على خطّ واحد من السحر والجمال الأخّاذ، والإصابة التامة.

ولقد أثبت بعض الباحثين [1] أن القصّ القرآني الكريم جمع الكثير من المذاهب الأدبيّة الأجنبية المختلفة، والتي يدّعي أدباء الغرب أنهم اختلقوها واصطنعوها، فالقصّ القرآني في حديثه عن الأنبياء والرسل يتناول عظام الشخصيات، وهذه سمة المدرسة الكلاسيكية [2].

والقصّ القرآنيّ الكريم ـ كما تحدثنا في الباب الثالث، الفصل الثاني ـ فيه تطور الشخصيات مع تعدد في الأماكن والأزمنة، ووجدنا في قصة يوسف منظر الدم، وهذه من خصائص المدرسة الرومانسية [3].

---

(١) القصة وتطورها في الأدب العربي للدكتور مصطفى علي عمر : ٤٧ الطبعة الأولى.

(٢) الكلاسيكية : صفة تطلق على أي أدب يتميّز بالميزات الآتية : الاتزان والوحدة الفنية وتناسب الأجزاء والاعتدال والبساطة الوقورة، وهي أصلاً : التمشي مع أدب قديم لا كلام الحياة اليومية.

(٣) الرومانسية : عبارة عن ردّ فعل ضدّ الكلاسيكية : فهي نزعة أدبية تصورّ العاطفة، وتعالج أحداث التاريخ المفجعة، وتبين تعاطف القلب معها.

وإذا كان القصّ القرآني يجمع بين عالم الواقع الملموس ، وعالم ما وراء الواقع ، فالمدرسة الرمزية [1] من حيث ازدواجية معناها تقرب من هذا المفهوم .

وإذا كان الهدف الأساسي من القصّ القرآني توجيه الناس إلى الحياة الطيّبة الكريمة ،ودفعهم إلى ما فيه الطمأنينة والرخاء ،فهو بذلك تقرب منه المدرسة الواقعية [2] .

حتى كانت القصة القرآنيّة ينبوعاً عذباً للإنتاج الفني عند بعض الروائيين من مثل توفيق الحكيم [3] ، الذي تناول قضية ذهنية ،وهي قضية الصراع بين الإنسان والزمان ،ومحاولة الإنسان دائماً التغلب على عوامل الفناء والاحتفاظ لنفسه بالخلود والبقاء ،وذلك في مسرحية أهل الكهف ،ففي فصله الرابع نعود لنشهد أهل الكهف الثلاثة بداخل كهفهم بعد أن رجعوا إليه يائسين ،ونسمع حواراً خافتاً بينهم يتحدثون فيه وقد خارت قواهم .

ويرى بعض الباحثين [4] أن توفيق الحكيم قد وفق في استغلال هذه القصة الدينية ،لأنها تقدّم إليه الفرد الذي يسلّم له المقدمات التي سوف يبني

---

(١) الرمزية : عبارة عن معانٍ مندرجة تلمح من خلال السطور وثنايا الحديث ترمي إلى معان قد تكون أخلاقية أو دينية ... الخ ، غير المعنى الظاهري لها .

(٢) الواقعية :عبارة عن كل فن يحاول أن يمثل الأشياء بأقرب صورة لها في العالم الخارجي .

راجع :معجم مصطلحات الأدب ـللدكتور مجدي وهبة طبعة لبنان عام ١٩٧٤ م ـ (٧٠ ، ٤٨٩ ، ١٠ ، ٤٦٧) .

(٣) الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩ م إلى قيام الحرب الكبرى الثانية ، أحمد هيكل : ٣٧٢ طبعة عام ١٩٧٩ م .

(٤) الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩ م إلى قيام الحرب الكبرى الثانية ـ أحمد هيكل : ٣٨١ ـ طبعة عام ١٩٧٩ م .

عليها قضيّته الذهنيّة ،فهي قضية دينيّة تقدّم معجزة ،وتدعو إلى التسليم بها ابتداء ،وتريح المؤلف من عملية الفرض الذهني المجرد الذي لاتسانده معجزة ،والذي يحتاج إلى إقناع .

وعلى هذا فالقصة القرآنيّة ما دامت مصيبة في نقل العواطف كل الإصابة ،والقصة عامة لم تؤدِّ دورَها كاملاً ،إلا إذا بلغت الغاية في ذلك فنقلت العواطف بكلّ دقة ،كان إعجاب الأدباء بهذا القصّ القرآني ،ومن ثمّ اتخذوه مثلاً أعلى ،وحاولوا أن يستقوا منه شيئاً ،ويأخذوا منه جانباً بما أبدعوه من قصص رومانسية ،ومسرحيات رومانتيكية .

ولكنهم إن حالوا أن يسيروا على الدرب فسرعان ما يبدأ إخفاقهم ،فلم يكن نسقهم على درجة واحدة ،وقوة متناهية .

ومن ثمّ كان القصّ القرآني مع إشعاعه الفيّاض ،ونبراسه المضيء ،إلا أن في محاكاته ما يشق على أهل المراس ،ويصعب على أهل الدربة ، حتى أعلنوا العجز ،فأشادوا بسحر القصة القرآنية الخلّاب ،وقوتها التي هي فوق الطاقة البشرية .

ولو تأملنا لقصة سليمان في [سورة : ص] في قول الله عز وجل ﴿ وَوهَبْنَا لداودَ سليمان نعم العبدُ إنه أوّاب * إذ عُرِضَ عليه بالعشيِّ الصافناتُ الجياد * فقالَ : إني أحببت حبَّ الخير عن ذكرِ ربّي حتى توارتْ بالحجاب *ردُّوها عليَّ فطفِقَ مَسْحاً بالسوقِ والأعناق ﴾ [سورة ص : ٣٠ ـ ٣٣] .

ولو تأمّلنا لتلك الآيات الكريمات ،لأحسَسْنا تماماً بعواطف سليمان المشبوبة بحبِّ الله ، الحريصة على الامتثال لأمر الله ،حيث أنه توّهم أنَّ حُبَّ الخيل شغلَتْه عن ذكر الله .

ويذكر بعضُ المفسّرين[1] أنه عرضت عليه آلاف من الخيل تركها له أبوه .

فأجريت بين يديه عشيّاً ، فتشاغل بحسنها وجريها ومحبّتها عن ذكر له خاص ، حتى غابت الشمس ، واختفت عن الأنظار ﴿ فقالَ : إني أحببت حبّ الخيرِ عن ذكرِ ربي حتّى توارت بالحجاب ﴾ وحينئذاك طلب أن تُرَدّ عليه الخيول التي شغلته عن ذكر الله ، فشرع يذبحُها ويقطع أرجلَها تقربّاً إلى الله لتكون طعاماً للفقراء ، لأنها شغلته عن ذكر الله .

قال الحسن : لما ردّت عليه قال : لا والله ، لاتشغليني عن طاعة ربي ، ثم أمر بها فعقرت .

ويذكر أنه ضرب أعناقها بالسيف ونحرها لأنها شغلته عن طاعة الله ، ولذا عوضه الله ماهو خير منها ، وهي الريح التي هي أسرع من الخيل ، إنها آيات قرآنية تجلّي حقيقة إيمانه ، وتدلّ دلالة قاطعة على عواطفه التي تخضع لله ، ومن ثمّ تقرَّب بتلك الخيول التي ظن أنّها صرفته عن ذكر الله .

وفي قول الله عز وجل في قصة أيوب : ﴿ وخُذْ بيدكَ ضِغثاً فاضربْ به ولا تحَنَثْ إنّا وجدناه صابراًنعمَ العبدُ إنه أوّاب ﴾ [سورة ص : ٤٤] ، ما يمثل عاطفة المرأة الضعيفة ، فإذا اشتد البلاء ، وطال المرض على الزوج قد تفتر همّتها ، وتضعف وتقلّ خدمتها تجاه زوجها ، فإن صبرها قد ينفد حينما تراه في حالة ضعفت فيها همته .

فلقد ذكر المفسرون[2] أن أيوب عليه السلام قد حلف أن يضرب امرأته مائة سوطٍ إذا برىء من مرضه ، وسبب ذلك أنها كانت تخدمه في حال مرضه ، فلما اشتد البلاء ، جاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجر ، فقالت له :

(١) صفوة التفاسير للصابوني ـ الجزء الرابع عشر : ٣٧ .
(٢) صفوة التفاسير للصابوني ـ الجزء الرابع عشر : ٣٩ .

إلى متى هذا البلاء ؟ فغضب من هذا الكلام ،وحلف إن شفاه الله أن يضربها مائة سوط ،فأمره الله أن يأخذ حزمة من قضبان خفيفة فيها مائة عود ،ويضربها بها مرة واحدة ،ويبر في يمينه .

إن تلك الآية الكريمة تمثل حال أيوب مع زوجه ،وتكشف عن المرض الذي طال مداه ،ولكنه صبر على قضاء الله ،حتى كشف الله عنه الغمة ،وأزال عنه الكرب ،فأثنى عليه عز وجل ﴿ نِعْمَ العبدُ إنّه أَوّاب ﴾ .

وفي قصة هود في سورة الأحقاف ما يفيد أن هناك بعض النفوس المتحجّرة ، لأن عواطفها جامدة لاتلين ،وعقولها مغلقة لاتستجيب ، فلقد أنذر هود قومه وهم مقيمون بالأحقاف ،التي هي تلال عظيمة من الرمل في بلاد اليمن[1] ،ودعاهم إلى عبادة الله حتى لا يلحقهم عذاب يوم عظيم ،فبدلاً من أن يستجيبوا له ،ظنوا أنه ما جاء إلا ليصرفهم عن عبادة الأصنام ، وطلبوا منه أن يأتي بالعذاب الذي يتوعدهم به إن كان صادقاً في قوله ،ولكن نبي الله أفهمهم أن وقوع العذاب بتقدير الله ،وظل هؤلاء القوم مصرين على عبادة الأوثان ولم يستجيبوا لنداء الحق عز وجل حتّى عجّل الله لهم العقوبة حسبما طلبوا تعجيلها ﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبلَ أوديتهم قالوا : هذا عارضٌ ممطرنا ﴾ [سورة الأحقاف : ٢٤] ،ظنوا أن السحاب الذي فوقهم ما كان إلا ليمطرهم وقد قُحطوا مدة طويلة من الزمن ،ففرحوا به واستبشروا ،ولكن الله عز وجل يبكتهم ،ويبين لهم أن الأمر ليس كما زعموا بأنه مطر وبشارة خير ،بل هو ريح عاصفة مدمرة ،حتى أصبحوا بها هلكى ،لاترى إلا مساكنهم ،لأن الريح لم تبق منهم إلا آثارهم وديارهم خاوية ﴿ واذكُرْ أخا عادٍ إذْ أنذر قومَهُ بالأحقافِ وقد خلت النُّذُر من بين يديه ومن خلفه ألّا تعبدوا إلا الله ،إني أخاف عليكم عذابَ يومٍ عظيم *

---

(١) راجع : صفوة التفاسير للصابوني ـ الجزء السادس عشر .

قالوا : أَجِئْتَنَا لتأفِكَنَا عن آلهَتِنا ، فأتنَا بما تعِدُنا إنْ كنت من الصادِقِين * قال : إنّما العلمُ عند الله وأُبلغكم ما أُرسِلْت به ، ولكنّي أراكم قوماً تجهلون * فلمّا رأَوه عارضاً مستقبلَ أوديَتِهم قالوا : هذا عارضٌ ممطرُنا ، بل هو ما استعجلتم به ؛ ريحٌ فيها عذابٌ أليم * تدمِّر كل شيء بأمر ربِّها ، فأصبحوا لايُرى إلا مساكنُهم ، كذلك نَجزي القومَ المجرمين ﴾ [سورة الأحقاف : ٢١ ـ ٢٥] .

بقراءة تلك الآيات الكريمات ، يستبين لنا مدى تحمل هود في سبيل نشر دعوته ، وكيف أنه كان حريصاً على قومه يستجيبون له ولكن قومه كانت عواطفهم خامدة ، وقلوبهم لاتلين لذكر الله ولا تستجيب لنداء الحق ، حتى إن الدعوة لا تؤثر فيهم ، والحكمة لاتنفعهم .

ومن ثمّ كانت نهايتهم الهلاك والدمار ، فلو رقت قلوبهم واهتزت مشاعرهم ، فاقتنعوا بكلام هود نبي الله عليه السلام لما حدثت فيهم تلك الريح التي عذبوا بها ، حتى أبادتهم ، فكان ذاك جزاء موفوراً ، وكما يقول العزيز الجبار : ﴿كذلكَ نجزي القومَ المجرمين ﴾ .

وفي الحقيقة ، إنني أرى ما يراه النقد الحديث [1] ، بأن القصّة ذات العواطف القويّة التي تتمثل في شخصيّاتها الروائيّة تكون قصة ممتعة ، تجلّي الحقائق كاملة .

وهذا ما نلمسه في نقل عواطف القصّة القرآنيّة ، فهي تكشف عن الجوانب الإنسانيّة ، وتنقل الأحاسيس الداخليّة بكلّ دقّة وإحكام ، كما أبنّا عن ذلك كثيراً عند حديثنا عن الشخصيّات في القصة القرآنيّة .

ومن الإعجاز الواضح في القصة القرآنية ، أنّها في جميع عواطفها تمتاز بالروعة ، وقوة التعبير عن الخلجات ، فلا فرق بين تصوير العواطف

---

(١) أصول النقد الأدبي ـ أحمد الشايب : ١٨١ ـ طبعة عام ١٣٧٣ هـ .

الأليمة ،كعاطفة فرعون عند غرقه ،وبين العواطف التي تنبىء عن نفس متبرمة ،أو تحسّ بقلق وعدم ارتياح نفسي ،كما حدث لموسى عند رجوعه إلى قومه ،فوجدهم قد عبدوا العجل ومثل العواطف الدالّة على الارتياح النفسي ،والوصول إلى الغاية النبيلة التي هي الأمنية ، فجميع جوانب القصة القرآنية تسير على وتيرة واحدة ،لافرق بين إثارة عاطفة ،وتصوير مشاعر نفس ومشاعر أخرى .

فالقصة القرآنية تسير في جودتها المحكمة ،وعلوها الذي لايطاول ،وإعجازها الذي لايدانى ،على نسق واحد .

* * *

الفصل الثالث
قوة الإحكام والربط

في قصّة الملكين هاروت وماروت يقول تعالى : ﴿ وما يُعَلِّمان من أحدٍحتى يقولا إنّما نحنُ فتنة فلا تكفُر ﴾ [سورة البقرة : ١٠٢] ،وفي هذه الآية نرى أن نهايتها ترتبط تماماً بالمقصود من آية السحر كلِّها ،وذلك لأن السحر وإن حدث وصار أمراً واقعياً ، إلا أنه بلاء ما بعده بلاء ، واستعلاء قد يخدع المرء ويحيله إلى حياة البطش والطغيان على عباد الله .

ومن ثمّ فالملكان وهما هاروت وماروت بمملكة بابل بأرض الكوفة اللذان قد أنزلهما الله اختباراً للناس لا يعلّمان أحداً من البشرية السحر حتى يوجّهاه إلى الخير ،ويقدما له النصائح السديدة .

فأنت أيّها الإنسان إذا تعلمت منّا السحر ،فنوصيك بعدم الغرور والطغيان والافتراء والاستكبار والإيذاء ، فلا تضرّ بسحرك أحداً ، ولاتؤذ بما تعلمته مخلوقاً ،ولايكن هذا السحر سبباً في انصرافك عن عبادة الله عز وجل .

فالتعبير القرآني نرى فيه الارتباط التام ،والإحكام الصائب فإن ظنّ قوم أن السحر وإن حدث على عهد سليمان عليه السلام فهو أمر جائز ، ولكل إنسان أن يستعمله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، فجاءت الآية الكريمة تقصّ علينا نبأ السحر ، وكيف أن الشياطين خرجوا عن المألوف في عهد سليمان ،فكفروا ، وما كان سليمان ساحراً كافراً بتعلّمه السحر ،لأن سحره لم يكن تلبيساً ولا خلطاً ولا افتراءً ،على نقيض الشياطين الذين خلّطوا وأوهموا وألبسوا وأضافوا وادّعوا وحاولوا أن يعلموا الناس حتّى يشوّهوا دينهم

ويشيعوا الخرافات بين مجتمعاتهم ونسوا أن سحرهم هذا ،وقد علّموه الناس ،ضلالة ما بعدها ضلالة ،وفتنة ما بعدها فتنة .

وفي قصة سليمان مع بلقيس ﴿ فلمّا جاءت قيل : أهكذا عرشك قالت كأنه هو﴾ [سورة النمل : ٤٢] ،نرى أن التعبير بـ : هكذا عرشك ، تعبير محكم ،حيث لم يقل : أهذا عرشك ؟ .

لأنه لو قال : هذا عرشك ،كأنه يلقنها القول ،ويدعوها إلى الإقرار بأنه عرشها ،أو على الأقل يشعرها بأنه يرى أن هذا عرشها ، وإن خالفت هذا الرأي .

ولكن التعبير بقوله :﴿أهكذاعرُشك ﴾ ؟ تعبير فيه تجرد وكأنه يحملها على الفكر المستقل ،والتأمل الثاقب في هذا العرش الذي أمامها حتى تمعن النظر فيكون قولها الفصل .

وفي قصة هود مع قومه ،وهو يدعوهم ويجادلهم ،قال تعالى : ﴿ ويستخلف ربي قوما غيركم ولا تضرونه شيئاً ﴾ [سورة هود : ٥٧] ،من الأساليب الخبرية التي تفيد الوعيد لهؤلاء المكذبين ، حيث أنهم لما لم يؤمنوا بالرسالة ،ويكفوا عن إيذائهم ،سيهلكهم الله عز وجل كما أهلك غيرهم .

كما أن هذا الأسلوب الخبري يمثّل قدرة الله عز وجل البالغة وعظمته الخالدة ،فهم إن أهلكوا فمن السهل عليه أن ينشيء جيلاً جديداً ،وطائفة سمت نفوسها ،وتهذّبت طبائعها ،وارتقت بالخالق الصانع فصدقت الرسول ﷺ ،وآمنت برسالته ،واعتقدت أن ما بلّغه هو من عند الله سبحانه وتعالى .

ومن هذا فمن يطعِ الرسول لن يزيد العدد كثرة ،طالما أن الله قادر على أن يخلق مثله ،ويوجد قوماً وصلوا إلى العدد الغفير الذي وصلوا إليه ،كما أن طاعتهم لاتنفع الحق عز وجل ،ولا تضرّه ،فهم إن عصَوه ،ولم ينصاعوا لرسوله ،لم يكتسب منهم جَلْب منفعة ،كما قد يظن ،حيث يقول :﴿ولا تَضرُّونهُ شيئاً ﴾ .

أو كما يقول الحق : ﴿ إن تكفُروا فإن الله غنيٌّ عنكم ولا يرضَى لعبادِهِ الكفرَ ،وإن تشكُروا يرضَهُ لكم ﴾ [سورة الزمر : ٧] .

أما عن التذييل بقوله : ﴿ إنَّ ربّي على كلِّ شيءٍ حفيظ ﴾ [سورة هود : ٥٧] ، فلقد قوى هذا الوعيد ،وأبان عن مكرهم ،وسوء طويتهم :﴿ويمكُرون ويمكرُ الله والله خيرُ الماكرين ﴾ [سورة الأنفال : ٣٠] ،فما يبيتون به إيذاء الرسل ومقتهم وتكذيبهم ،ونيّتهم السيئة ،واتجاهاتهم الزائفة ،وحجتهم الواهية وما يخيلونه من سراب خدّاع ،ومظهر برّاق ،وفتن مدمرة ،وآراء فاسدة أحاط الله عز وجل بكلّ وقائعها ،حتى علم خفاياها ،صغيرها وكبيرها ،ومن ثمّ فتكون نهايتهم المخزية ،وعاقبتهم الوخيمة ،ففي النهاية يحفظ الله عز وجل هوداً من شرك قومه ،وسوء مكرهم .

وفي قصة صالح مع قومه ثمود ﴿ قالَ يا قومِ اعبُدوا الله مالكُم من إله غيره ،هو أنشأكم من الأرض ﴾ [سورة هود : ٦١] ، تفيد أن الأرض كانت خراباً يباباً من بني الإنسان قبل أن يوجد الله عز وجل فيها آدم عليه السلام ،وبعد أن أوجد الله عز وجل آدم وذرّيته ، عمّروا ذلك الخراب ، وأزالوا تلك الوحشة ، وهذا من شأنه أن يدعو الإنسان إلى عبادة الله والرجوع إليه ،فما كان هذا العمار في الأرض ،والخلقة الإنسانية إلا لتعبد الله ،وتخلص له الدين ،وتنصاع لأوامره ، وتستجيب لشرعه الحنيف ﴿ وَما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعْبُدُون ﴾ .

ومعنى ذلك أن تلك العبارة تتوافق تماماً مع الأسلوب الذي وجهه صالح إلى قومه ،ولربما أن ذلك كان أدعى إلى استجابتهم وأقرب طريق يوصلهم إلى الله ، حيث أنهم إذا لمحوا سر الخليقة استجابوا لموجد الخليقة ،ومودع السرّ فيها ، وبذلك يتركون عبادة الأصنام التي لم تخلق إنساناً من التراب ،ولم توجده من العدم .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تمسُّوها بسوء فيأخذَكم عذابٌ قريب ﴾ [سورة هود : ٦٤] ،وكلمة « مسّ » أدخل في الإصابة ، لأنها تفيد في المباشرة الفعلية ،تلك المباشرة الفعلية التي تتناسب مع ما صنعوه مع الناقة ،حيث أنهم أصابوها إصابة فعلية ،وذلك بعقرهم لها .

وعلى هذا فالنهي عن المسّ بالسوء كان صائباً كل الإصابة،حيث أنه يدلّ على أن هؤلاء الكفرة صمموا على عقرها ومسها بهذا السوء ،ولو قيل في غير القرآن « ولا تعتدوا عليها » لما أفادت هذا المعنى ،فالاعتداء كلمة عامّة تشمل المسّ وعدم المسّ والمباشرة الحسيّة وعدم المباشرة الحسيّة ، وعلى هذا لاتفيد المعنى المقصود في الآية وهو المباشرة الفعلية التي حدثت عن طريق العقر ،وخصوصاً أن المسّ المعنوي لا يتأتى مع الحيوان الأعجمي كالناقة ،وإنما يتأتى مع الحيوان الناطق فحسب ،فقد يمس الإنسان بأمر معنوي ،فيلحق به السوء ، ولكن هذا الحيوان الأعجمي لايمكن أن يمسّ بأمر معنوي ، وعلى هذا لايكون المسّ في جانبه إلا مسّاً حسيّاً ملموساً ،فكانت اللفظة القرآنية معبّرة تمام التعبير ،مصيبة تمام الإصابة ،موحية بكلّ قصد ،مثيرة إلى مقاصد الآية الكريمة .

أما تذييل الآية فيدلّ على الوعيد الشديد ،هذا الوعيد الشديد الذي كان مبعثه مخالفة الأمر الإلهي ،فإذا نهو عن مسّ الناقة ،فإنهم سيمسّونها ،وإنما كان الوعيد قوياً ،لأن العذاب لن يبطيء ، والعقوبة لن تمهل ،وإنما يأتيهم العذاب بغتة ،وتفاجئهم العقوبة عن قرب ،فلن يطول انتظارهم ،ولن يتمهل جزاؤهم ،وهذا كلّه يدلّ على عظم المخالفة ،وشدة الجرم الذي ارتكبوه ، فقد يمهل الله الظالم ولا يتعجل عقوبته ،لعله أن يتوب عن غيّه ، فيرجع إلى رشده ،ولكن الذين خالفوا أمر الله سبحانه وتعالى ،فمسّوا الناقة بسوء لن يمهلهم الله ولن يسكت على صنيعهم ، كما هو الحال مع غيرهم ،وإنما يباغتهم بالجزاء ،ويقضي عليهم بالعقوبة ،مما يدلّ

على عظم المخالفة، وقوة الجرم، وتماديهم في العلوّ والاستكبار، وقد تحقّق وعد الله ﴿ فعقروُها فأصبحُوا نادمين * فأخذَهُم العذاب، إن في ذلك لآيةً وما كان أكثرُهم مؤمنين ﴾ [سورة الشعراء : ١٥٧ - ١٥٨] .

وفي قول الله عز وجل :﴿هذه ناقةُ الله لكُم آية ﴾ [سورة هود : ٦٤]، نرى نسبة الناقة إلى الله سبحانه وتعالى، ولا شكّ أن هذه النسبة التي دلّت عليها الإضافة متناسقة تماماً مع المعنى المطلوب .

فهذه النسبة دلّت على عظيم شأن الناقة، وأنَّ لها من المزايا ما ليس لغيرها من النياق، ولا شكّ أنّ هذا تصوير للواقع، حيث أن هذه الناقة خلقها الله عزّ وجل على خلافِ المألوف في خلق سائر الإبل ولم نسمع أن هناك ناقةً تختصّ يوماً بالشرب، وأصحاب ذلك الماء يختصّون بيوم آخر، حتى أن هذه الناقة كانت تعرف اليوم الخاص بها على غير عادة الحيوان الأعجمي، ومن ثمّ هي لا تقرب الماء في غير يومها وهذا هو المفهوم من قول الحق عز وجل : ﴿ ونَبِّئهم أنَّ الماءَ قسمةٌ بينهم كلُّ شِرْب محتَضَر ﴾ [سورة القمر : ٢٨]، هذه ناقة لها شرب، ولكم شرب يوم معلوم فإضافة الناقة إلى الحقّ عزّ وجل إضافة تدلّ على ما لَها من مزايا اختصّت بها دون غيرها .

ومن الإحكام الواضح في القصص القرآني، أن محاجَّة إبرهيم عليه السلام لقومه، فيها تدرُّج للوصول إلى الحقيقة الثابتة، فقد ألزمهم الحجّة بقوله : ﴿ أَفَتَعبدون من دون الله ما لاينفعُكم شيئاً ولا يضرّكم * أُفٍّ لكم ولما تعبدون ﴾ [سورة الأنبياء : ٦٦ - ٦٧]، وذلك واضح فيما نراه من الآيات التي تصوّر محاجّة إبراهيم عليه السلام .

على أن إبراهيم عليه السلام حينما وصل إلى الحقيقة الثابتة، وشهد للمولى عزّ وجل، أراه الله من آياته ما به يرى أنه لا وجهة إلا للذي فطر السموات والأرض، فكان الوصول إلى هذا وصولاً فيه مشاهدات عينية وانتقالات كونية، كما يتضح من قول الحقّ عزّ وجل :﴿وكذلك نُرِي إبراهيم

ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جنَّ عليه الليلُ رأى كوكباً قال : هذا ربّي ، فلمّا أفَلَ قال : لا أُحبُّ الآفلين * فلمّا رأى القمر بازغاً قال : هذا ربّي ، فلمّا أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونَنَّ من القوم الضالينّ * فلمّا رأى الشمس بازغةً قال : هذا ربّي هذا أكبرُ ، فلمّا أفلَتْ قال : يا قومِ إني بريءٌ ممّا تُشْركون ﴾ [سورة الأنعام : ٧٥ - ٧٨] ، فهو حين التفت إلى النظر في المعبودات التي كان عليها أهل الشرك لم تعجبه الأصنام ، فخيّل إليه أن النجم هو الإله ، فلما رآه يغيب لم يقتنع به ، فلمّا شهد القمر ساطعاً نظر إليه ، فلمّا غاب عنه تركه وانتقل إلى نور الشمس ، فلما أفلت برىء من عبادة هذا كلّه فقال : ﴿ إني وجَّهْتُ وجهي للذي فطرَ السمٰوات والأرضَ حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ [سورة الأنعام : ٧٩] .

وأي إحكام أشد من قصّة إبراهيم التي ارتبطت تماماً بأحداث قوم لوط !

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى ﴾ [سورة هود : ٦٩] هؤلاء الرسل وإن جاؤوا ببشارة إبراهيم ، فإنّهم سيذهبون إلى قوم لوط ، لكي ينكّلوا بهم أشدَّ تنكيل ، فلما علم إبراهيم هذا النبأ جادل الرسل في قوم لوط فكان الجواب ﴿ يا إبراهيمُ أعرض عن هذا إنّه قد جاء أمرُ ربّك ، وإنهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردودٍ ﴾ [سورة هود : ٧٦] .
لقد جاءت الرسل تبشر إبراهيم عليه السلام بإسحاق ويعقوب ، فلمّا اطمأنت نفسه إليهم ﴿ قالَ : فما خطبُكم أيُّها المرسلون * قالوا : إنا أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين * لنرسل عليهم حجارةً من طِين * مسوَّمةً عند ربِّك للمسرفين ﴾ [سورة الذاريات : ٣١ - ٣٤] ، وقد كان لوط ابن أخي إبراهيم .

فالملائكة إن أخبروه بالانتقام من قوم لوط ، خاف إبراهيم أن يمسّ

نبيَّهم لوطاً بشيء من الأذى ،حتّى جادلهم في ذلك ،ولكن وعد الله لابدّ من نفاذه .

﴿ ولّما جاءت رسلُنا لوطاً سيء بهم وضاقَ بهم ذرعاً وقال : هذا يوم عصيب ﴾ [سورة هود : ٧٧] .

وهنا تظهر قوة الإحكام والربط ،فإنّ هؤلاء رسل الله الثلاثة على ما يقال ،وهم من الملائكة الذين ذهبوا إلى لوط لكي ينتقموا من قومه الذين أتوا في ناديهم المنكر ،وابتدَعوا من المنكرات ما لم يصنعه أحدٌ من عباد الله ،حتى أتوا الذكران من العالمين ،وتركوا النساء يعلنون ذلك بدون خفاء ،ومع أن لوطاً نصحهم ودفعهم عن ذلك كلّه إلا أنهم لم يرتدعوا ،بل هددوه بالرجم والإخراج من بينهم .

ذهبت رسل الله ، وهم الملائكة إلى هؤلاء القوم في صورة غلمان حسان ،وبدلاً من أن يرجعوا عن هؤلاء الضيوف طلبوا من لوط أن يقدم إليهم هؤلاء الضيوف ليفعلوا بهم ما اعتادوا عليه من فاحشة منكرة ،وقد حاول لوط أن يقنعهم ويردعهم عن غيّهم ويرشدهم إلى نسائهم وأن يتركوا هؤلاء الضيوف الذين هم في حاجة إلى تمجيد وتكريم ،ولكنه لم يفلح ،فقال لوط ملتفتاً إلى رسل الله :﴿لوأنَّ لي بكم قوّةً أو آوي إلى ركنٍ شديد ﴾ [سورة هود : ٨٠] ، على معنى لو كنت أستطيع أن أوقع بهم العقوبة لأوقعت بهم ،ولن يكون ذلك إلا إذا استعنت بكم أو التجأت إلى ركن قوي شديد ،وكان لوط حينذاك لايعلم أنهم ملائكة جاؤوا رسلاً من عند الله ، ولكن ملائكة الله الذين أخبروا إبراهيم بالبشارة أولاً ،وأخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين ،لكي ينكّلوا بهم ثانياً ،كشفوا عن حقيقة أمرهم ،وأعلنوا أنهم ملائكة الله سبحانه وتعالى جاؤوا للتنكيل بقوم لوط ﴿ ولّما جاءت رسلُنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال : هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يُهْرَعون إليه ، ومن قبل كانوا يعملون السيّئات قال : يا قوم هؤلاء بناتي هنَّ

أطهرُ لكم[1] فاتَّقوا الله ولا تخزونِ في ضيفي أليس منكم رجلٌ رشيدٌ *قالوا : لقد علمت ما لَنا في بناتك من حقّ وإنك لتعلم ما نريد * قال : لو أن لي بكُم قوةً أو آوي إلى ركنٍ شديد *قالوا : يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأَسْر بأهلك بِقِطْعٍ من الليل ولا يلتفتْ منكم أحدٌ إلا امرأتَك إنه مصيبُها ما أصابهم إن موعدَهم الصبحُ أليس الصبحُ بقريبٍ *فلمّا جاء أمرُنا جعَلْنا عاليَها سافلَها وأمطَرْنا عليها حجارةً من سجِّيلٍ منضُودٍ *مسوَّمةً عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ [سورة هود : ٧٧ - ٨٣] .

وهكذا لمسنا الإحكام والربط بين الرسل التي جاءت ببشارة إبراهيم عليه السلام ، وبين مَحْق قوم لوط وإمطارهم بالحجارة التي هي من سجّيل منضود ، وقراهم التي جعل الله سبحانه وتعالى عالِيَها سافلَها ﴿ فنجّيناه وأهلَه أجمعين * إلا عجوزاً من الغابرين *ثم دمَّرنا الآخَرين *وأمطَرْنا عليهم مطراً فساء مطرُ المُنْذَرِين ﴾ [سورة الشعراء : ١٧٠ - ١٧٣] .

ثم إن طَلب قومِ لوطٍ هؤلاء الرسل الثلاثة الذين هم كالغلمان المرد ، ومحاولة الاعتداء عليهم ، جعل القصّة القرآنيّة في هذا المجال تشعر باستحقاقهم العذاب ، وكأن الله تبارك وتعالى وضّح لنا أنهم ما استحقّوا هذا النكّال إلا بسبب حرصهم على الفاحشة بإتيانهم الذكور ، حتى إن ملائكة الله سبحانه وتعالى ، الذين أرسلوا لعذابهم ما سلموا من شرّهم ، فلقد حاولوا أن ينالوهم بسوء وهم في صورة البشر ، وعلى هيئة الغلمان ، فكان عذابهم عدلاً ، والتنكيل بهم شيء يستحقونه .

---

(١) قال مجاهد في قوله سبحانه : ﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ : لم يكنّ بناته ، ولكن كنّ من أمَّتِه ، وكل نبي أبو أمته .

وقال سعيد بن جبير : يعني نساءهم ، هن بناته ، وهو أب لهم . (تفسير ابن كثير ط . الشعب ج ٤/ ٢٦٨) .

والتعبير القرآني في قصة يوسف عليه السلام ﴿ ولقد همَّت به وهَمَّ بها ﴾ [سورة الشعراء : ١٧٠ - ١٧٣] ، ما يفيد أن امرأة العزيز همّت بيوسف ، لايصرفها عنه صارف ، ولا يبعدها عنه دافع ، والتعبير بقوله : ﴿وهمَّ بها ﴾ ما يفيد أنه بحكم طبيعته البشرية ربما أنه مال إليها ، وهنا يظهر السؤال إذا كانت في هذا الموقف المريب ، ويوسف الصدّيق له طبيعة بشريّة قد أملت عليه أن يسير في هذا الركب الزائف ، فكيف ينصرف عنها ، فتأتي اللفظة القرآنية : ﴿ لَولا أن رأى برهانَ ربِّه ﴾ لتفيد بأن همّ يوسف الذي هو بداية الأمر ظللته رعاية الله عز وجل ، حيث أنه لمح الأمارات القاطعة ، والدلائل الناصعة ، فكان خوف الله حافظاً ومانعاً له من أي تسلط شرّير ، فإن همّتْ نفسه بسوء استطاع بقوة الإيمان ، وبالعقيدة الراسخة ، أن يكبح زمام نفسه ، ويقيّد هواه ، فلا انزلاق لشيطان ما دام الله سبحانه وتعالى أمام ناظريه ، وما دامت رعاية الله تحيط به ، فالتعبير القرآني بقوله ﴿ لولاَ أن رأى برهانَ ربِّه ﴾ [1] بعد الهمّ ، فيه قوة وإحكام ، وإلاّ لحارت النفوس ، وكثرت التساؤلات ، وحارت العقول في فهم هذه الآيات والمعاني الكريمة .

وفي قصة يوسف : ﴿ واستبَقا البابَ وقدَّت قميصَهُ من دبُر ﴾ [سورة يوسف : ٢٥] محكمة تمام الإحكام ، لأنها أوصلت إلى براءة يوسف أمام العزيز ، وكأن هذا المنطوق الإلهي بمثابة مقدمة لنتيجة هامة ، قد ترتب عليها وضع الأمر في نصابه ، وإحقاق الحقّ ، ومن ثمّ استبان كذب امرأة العزيز

---

(١) برهان ربّه : مراقبة الله تعالى ، وتجلّيه عليه بالعصمة .

وقال أبو السعود : إن همّه بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية . هذا من باب المشاكلة ، وهي : الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، فالهمّ منها كان همَّ عزم وقصد ، والهمّ منه كان حديث نفس .

راجع صفوة التفاسير - الجزء السادس : ١٣ .

وقيل : همّت به جلباً ، وهمّ بها دفعاً .

وادّعائها الباطل ، وصدق يوسف الأمين .

فمن الثابت أن يوسف وامرأة العزيز قد تسابقا نحو باب القصر يوسف هارباً من الوقوع في الإثم ،وامرأة العزيز ما تسابقت إلا لكي تطلبه وتضمّه إلى صدرها ،وتوغر صدره ،حتى يستجيب لطلبها ، ولكن يوسف الصدّيق عليه السلام أسرع في مشيه ، فلم تستطع أن تلحقه حتى شقّت ثوبه من خلف ،فكانت المفاجأة إذ كان زوجها العزيز عند باب القصر ، وبدلاً من أن تحكي حالها ، وتصف هواها على الحقيقة ألصقت التهمة الكاملة بيوسف الصدّيق ،فقالت لزوجها : ﴿ ما جزاءُ من أرادَ بأهلكَ سوءاً إلا أن يُسجَنَ أو عذابٌ أليم ﴾ ، مع أن يوسف الصدّيق نطق كلمة الحقّ ،وأبان عن الواقع فقال :﴿هي راودَتْني عن نفسي ﴾ [سورة يوسف : ٢٦] ،إلا أن الأمر لم ينكشف تماماً أمام العزيز إلا إذا كانت هناك حجّة بعيدة عن إقرار الجاني والمجنيّ عليه ،فالخصم والحكم في آن واحد شيء لا يقبله العقل ،ومن ثمّ شهد شاهد من أهل امرأة العزيز ،وكان طفلاً صغيراً أنطقه الله لكي يظهر الحقيقة فيكون أوثق لبراءة يوسف لكونه من أهلها ،وعلى ما يقال ابن خالها [1] ،لقد وضع ميزاناً هو الفيصل في الأمر ،والحجّة البالغة في إظهار الحقّ ،فإن كان ثوب يوسف قد شقّ من أمام فهو كاذب في قوله ،وهي صادقة في دعواها ،فهي تدافع عن نفسها بذلك ،وإن كان الثوبُ قد مزق من الخلف فهو صادق في قوله ،وهي كاذبة في دعواها ،وذلك لأن الجذب من الخلف يدلّ على أنها هي الطالبة له ،وهو المعرض عنها .

وعلى هذا فمقدمة الآية الكريمة : ﴿ واستبَقا البابَ وقَدّت قميصَهُ من دُبُر ﴾ كانت صائبةً تمام الإصابة ،مرتبطة بالمعنى تمام الارتباط .

ومن ثمّ لما رأى العزيز أن قميص يوسف قد قُدَّ من دبُر أيقن تماماً أن

---

(١) صفوة التفاسير للصابوني ـ الجزء السادس : ١٤ ، طبعة دار القرآن ـ بيروت .

ذلك من صنع النساء فقال :﴿إنه من كيدِكُنَّ إن كيدَكُنَّ عظيم ﴾ [سورة يوسف : ٢٨] .

وفي قصة يوسف ﴿ وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراودُ فتاها عن نفسِه ،قد شغَفَها حبّاً ،إنا لنَراها في ضلالٍ مبين ﴾ [سورة يوسف : ٣٠] ،نرى أن موقف النسوة من امرأة العزيز من حيث التشنيع عليها ، لأن حبَّها ليوسف مسّ شغاف قلبها ، فهن يرونها في ضلال مبين ،نرى أن هذا المنطوق القرآني الذي يفيد شماتة النسوة وحرصهنّ على إشاعة السوء ،يناسبه تماماً أن يتحدّث القرآن الكريم عن شعور تلك النسوة وموقفهن حينما يقعن في شيء مما وقعت فيه امرأة العزيز من مراودة يوسف ،ومشاهدة جماله الأخّاذ ،وخلقته التي تجذب الأفئدة ،لكي يثبت القرآن أن فتنة امرأة العزيز إنما هي فتنة فوق الطاقة ،حيث أن من لاموها شهدن بما ليوسف من طلعة هي فتنة للناظرين ،فهو فوق المألوف من البشر ﴿ فلمّا سمعتْ بمكرهِنَّ أرسلت إليهنَّ وأعْتَدَتْ لهن متَّكأً وآتَتْ كلَّ واحدةٍ منهنَّ سكّيناً وقالَتِ اخْرُجْ عليهنَّ فلمّا رأينهُ أكبَرْنَهُ وقطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ وقلْنَ حاشَ لله ما هذا بشراً إن هذا إلا مَلَكٌ كريمٌ ﴾ [سورة يوسف : ٣١] ،ففي الآية الكريمة ﴿ أعتدَتْ لهنَّ متَّكأً ﴾ ما يفيد أنهن جلسن جلسة فيها طمأنينة ، وكون امرأة تعطي كلَّ واحدة منهن سكيناً لكي تقطع بها ما قدم لهن من ألوان الطعام اللائي تقدّم للضيوف .

ثم بعد ذلك يخرج يوسف عليهنَّ ، وبدلاً من أن يقطعن أنواع الفاكهة ليأكلْنها ،قطَّعن أيديهنَّ ، كل هذا يدل على أنهن قد بهتّن من جماله وذهلن من إشراقة وجهه ،وطلعته التي فاقت البشريَّة جمعاء .

ومن ثمّ بينما هن يجلسن في أمن وطمأنينة على المتكأ إذ تصرّفن تصرّفاً فيه وحشية ، مما يدل على سلب عقولهن ،وضياع تفكيرهن فكانت الآية الكريمة بتذييلها الذي قد يوحي برجوعهن عن مبدأ التشنيع ولوم امرأة

العزيز : ﴿ وقلْنَ حاشَ ما هذا بشراً إنْ هذا إلا ملَكٌ كريم ﴾ .

حتى استردّت امرأة العزيز أنفاسها ،وتعالت صيحتها ، فقالت قولتها : ﴿ فذلكنّ الذي لُمْتُنَّني فيه ﴾ [سورة يوسف : ٣٢] .

وهكذا نرى إحكام الربط ،وإحكام العبارة المكينة ، والاتصال الوثيق ،فهو قول متصل الحلقات ، مترابط البنيان ،متآزر المعاني يشدّ بعضه بعضاً .

وأما قوله : ﴿ ذلكما ممّا علّمني ربِّي ﴾ فيه دفع التباس ، وإزالة شك ،حتى لا يتهم نبي من أنبياء الله بما حرّمته الأديان السماوية فقال :﴿ذلكما ممّا علمني ربي ﴾ [سورة يوسف : ٣٧] ،على معنى أن ما برع فيه من تفسير الأحلام حينما كان في السجن ، وقد تحقّق بتفسيره ، وصدق تعبيره ،ليس من باب الكهانة أو الاطلاع على الأمور الغيبية أو التنجيم أو الخرافات ، وإنّما هي من الفيوضات الإلهيّة ، والنورانيات الربّانيّة المشرقة ،فإن الله تبارك وتعالى يوحي إليه بهذه المعاني ،ويلهمه بهذه التفسيرات المنامية ،وعلى هذا فلا يتهم بريبة ،لأنه وقع في محظور محرم ، وقد يصرف عن نفسه شبهة أخرى ،وهي أنه وحده الملهم ووحده الذي يفيض الله عليه بإشراقاته ،ووحده الذي ينبغ في تفسير الأحلام ،يدفع عن نفسه هذه الريبات كلّها ، فيرى أن الله ما يخص أحداً من خلقه بفضل ويعطيه نعماً ، فيفتح عليه من ملكه وملكوته إلا بعد أن يذلّ نفسه لله ولا يخضع لأحد إلا له ،ومن ثمّ يعقب على ذلك فيقول : ﴿ إنّي تركتُ ملّة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون * واتبعتُ ملّة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيءٍ ،ذلك فضل الله علينا وعلى الناس ولكنّ أكثر الناس لا يشكرون ﴾ [سورة يوسف : ٣٧ - ٣٨] .

ثم يزداد يوسف في خضوعه لله ،فتكون نصيحته لصاحبيه في السجن ،وتوجيهه لهما ﴿ يا صاحِبَيِ السجنِ أأربابٌ متفرِّقون خيرٌ أم الله

الواحدُ القهّار ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماءً سمَّيتموها أنتم وآباؤكم ،ما أنزلَ اللهبها من سلطان ،إنِ الحكمُ إلا لله أمر ألا تعبدُوا إلا إياه ذلك الدينُ القيِّم ولكنّ أكثرَ الناس لايعلمون ﴾ [سورة يوسف : ٣٩ ـ ٤٠] .

وهكذا استعرض حججَه الدالّة على وجود الله سبحانه وتعالى ،وسلطانه وقوته ،حتّى يثمر وعظه ،وهكذا نرى قوة الإحكام والربط في هذه الآيات .

وأما قوله :﴿يوسفُ أَيُّها الصدِّيق ﴾ [سورة يوسف : ٤٦] ،فالذي نجا من السجن مع يوسف وهو الساقي ،لكي يعبّر له رؤيا الملك ،نرى أنه قبل أن يطلب منه تعبير الرؤيا قدم الثناء على يوسف بقوله : ﴿ أيّها الصدّيق ﴾ قبل أن يسأله ،ولا شك أن ذاك فيه تطييب لخاطر يوسف ،وتهيئة نبيلة ،حتى يجيبه على مهل ،ويعطيه التفسير الصحيح بنفس راضية ،وروح طيبة ،وليس معنى ذلك أنه خلع عليه الثناء جزافاً ،طمعاً في أن يكسب نواله ، أو يحصل على معروفه ، وإنما خلع عليه هذه الخلعة فسماه صدّيقاًلأنه لمس ذاك يوم جرّب صدقه في تعبير المنام الذي رآه في السجن .

فكلمة الصدّيق محكمة تمام الإحكام ،مرتبطة تمام الترابط لها مدلولها وإشارتها ، ومن ثمّ اطمأنّت نفس يوسف ،فعبّر له الرؤيا وأفاده بما زعموا أنه أضغاث أحلام .

وأما قوله :﴿معاذَالله أن نأخذَ إلاّ من وجدْنَا متاعنا عنده ﴾ [سورة يوسف : ٧٩] ،حينما احتجز يوسف بنيامين ،تألّم إخوته أشدّ التألّم ﴿ وقالُوا ياأيُّها العزيزُ إنَّ له أباً شيخاً كبيراً فخُذْ أحدَنا مكانه ، إنّا نراك من المحسنين ﴾ ، فردّ يوسف ﴿ معاذَ الله أن نأخذَ إلاّ من وجَدْنا متاعنا عنده ﴾ .

فالتعبير بقوله :﴿وجَدْنامتاعنَا عندَه ﴾ ، محكم تمام الإحكام حيث أن بنيامين لم يسرق الصُّواع ،فكان التعبير بقوله : ﴿ وجَدْنا متاعَنا

عنده ﴾ ، أجمل وأصدق من أن نأخذ إلا من سرق في غيز القرآن حتى يتحرز يوسف عن الكذب ، وفي الوقت ذاته تنفع الحيلة التي صنعها والأسلوب الذي اتخذه حيال إخوته .

ونرى أنه حينما اجتمع الشمل ، وصادف إخوة يوسف يوسف وتم اللقاء ، وجاء البشير إلى يعقوب ، فارتدّ بصيراً ، وحينذاك أحسّ إخوة يوسف بضمير يؤنّبهم ﴿ قالُوا : يا أبانا استغفرْ لنا ذنوبَنا إنّا كُنّا خاطئين ﴾ [سورة يوسف : ٩٧] ، فبدلاً من أن يمد يعقوب يده إلى السماء ، ويطلب لهم العفو والصفح عقب طلبهم الاستغفار ، أجّل ذلك إلى حين حتى قال : ﴿ سوفَ أستغفرُ لكم ربِّي إنه هو الغفورُالرَّحيم ﴾ [سورة يوسف : ٩٨] .

وإنني أرى أن تأخير الاستغفار يدلُّ على أمرين :

أولاً : يدلُّ على أن يعقوب راغبٌ في الصفح عنهم .

ثانياً : يدلُّ على عظم ما صنعوه مع يوسف .

فإنه لو طلب لهم الاستغفار فوراً ، ربَّما ظن إخوة يوسف أن يعقوب قد تغاضى كلِّية عن فعلهم ، ونسي على الإطلاق صنيعهم ، ولكن إرجاءه الاستغفار وتمّهله ، يدلُّ على أن نفسية يعقوب لا زال فيها شيء ، فهو يهيّء نفسه ، ويمهدها حتى يمحو ما فيها ويضيع أثر هذه الأفعال التي ارتكبها إخوة يوسف ، فإذا برق البرق ، وانكشفت غياهب الظلمات ، كان لا مفرّ من أن يحنّ يعقوب إلى أولاده فيطلب العفو والغفران لهم .

فالتعبير القرآني :﴿سوفَ أستغفرُ لكم ربِّي ﴾ ، محكم مرتبط تماماً بوقائع القصّة ، ومدلولاتها ، وهول أحداثها ، وفظاعة وقائعها .

وبالتأمل في قول الله عز وجل : ﴿ فألقي السحرةُ ساجدين ﴾ [سورة الشعراء : ٤٩] ، نرى أن القرآن الكريم عبّر عن خرور سحرة فرعون بالإلقاء ، لأنه ذكر مع الإلقاءات ، فكان الكلام عن طريق المشاكلة (١) .

(١) المشاكلة : هي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى .

ففي الآيتين السابقتين يقول الحق عز وجل : ﴿ فألقَوا حبالَهم ﴾ ويقول : ﴿ فألقى موسى عصاه ﴾ ،ولا مانع أن يكون اللفظ على حقيقته على معنى أنهم حين رأوا ما رأوا من عظمة سحر موسى لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين ،كأنهم أخذوا فطرحوا طرحاً .

وقال : أحمد[1] : « وفي تكرير لفظ الإلقاء ، والعدول عن مثل فسجد السحرة إيقاظ السامع لألطاف الله في نقله عباده من غاية الكفر والعناد ،إلى نهاية الإيمان والسداد ،وهذا الإيقاظ لا يحصل على الوجه إلى هذا القصد إلا بتكرير لفظ واحد على معنيين متناقضين » .

وبالتأمُّل في سورة طه في قول المولى تبارك في علاه ﴿ ولأصلِّبنَّكُم في جذوع النخلِ ولَتَعْلَمُنَّ أيُّنا أشدُّ عذاباً وأبقى ﴾ [سورة طه : ٧١] ،وذلك في معرض تهديد فرعون للسحرة حين آمنوا برب موسى ، نرى أن تلك العبارة تفيد أن فرعون يريد بتهديده أن يكون المصلوب من السحرة متمكناً في الجذع أشدَّ تمكن .

ومن ثمّ كانت روعة التشبيه تجلي المعنى أشدَّ جلاء ، فلقد شبه تمكن المصلُوب في الجذع بتمكّن الشيء الموعى في وعائه ،فلذلك قيل في جذوع النخل .

وبذلك اتضح قصد فرعون ،وأنه يريد أن ينكل بالسحرة الذين آمنوا أشدّ تنكيل ، حتى كانت العقوبة متمكنة منهم أشد تمكّن .

وهكذا نرى قوة الإحكام القرآني ،والربط الدقيق بين معانيه وكذا بين اللفظ ومدلوله .

---

(١) الإنصاف في ما تضمنه الكشاف من الاعتزال ـ الجزء الثاني .
وراجع : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري ـ الجزء الثالث : ١١٣ .

وعصا موسى جاءت مرة حية ، وأخرى جان ، وثالثة ثعبان قال تعالى : ﴿ وما تلكَ بيمينك يا موسى * قال هي عصايَ أتوكّأ عليها وأهشُّ بها على غنمي وليَ فيهامآربُأخرى* قال : ألقِها يا موسى * فألقاها فإذا هي حيَّةٌ تسعى ﴾ [سورة طه : ١٧ - ٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ قالَ : لئن اتّخذت إلهاً غيري لأجعلنّك من المسجونين * قالَ : أولَو جئتُك بشيءٍ مبين * قالَ : فأت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هي ثعبانٌ مبين ﴾ [سورة الشعراء : ٢٩ - ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ وأن ألقِ عصاك فلمّا رآها تهتزُّ كأنها جانٌّ ولى مدبراً ولم يعقب ،يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ [سورة القصص : ٣١] .

فالعصا قد تردَّدت ما بين حيّة ،وجانّ ،وثعبان ،والواقع أن تغيّر صورة العصا على هذه الألوان الثلاثة لم يكن يخلُو من فائدة إذ المقام يقتضي هذا ، ونحن نعلم بأن من سمات النصّ القرآني التي امتاز بها مراعاته لمقتضى الحال ، من هنا جاء التعبير هكذا .

ففي سورة طه لما كان موسى بمقام الحضرة الإلهية ،وهي مقام يشيع العظمة والرهبة والطمأنينة ، قال تعالى :﴿ألْقِها يا مُوسى * فألقاها فإذا هي حيّةٌ تسعى ﴾ ، من هنا ناسب أن تكون العصا حيّة ،مجرّد مخلوق من خشاش الأرض ، يتحرّك حركته المعروفة ، ويتعرض لمن واجهه .

ولا ننسى بأن جوّ السورة كلّه تسري فيه الطمأنينة ،وبعث الثقة ، والتسرية وإزالة ما في النفوس ،ولذا جاء في مطلعها : ﴿ طهَ * ما أنْزَلْنا عليك القرآنَ لتَشْقى ﴾ [سورة طه : ١ - ٢] .

أما في سورة الشعراء ،فإن موسى في مواجهة فرعون وملئه وهو في مقام طلب حجة ،وإثبات بينة ،من هنا ناسب أن يأتي القرآن الكريم بذكر

الثعبان ،وهي العظيم من الحيات ذو القوائم ، وفم كبير ،وشكل هائل مزعج ،ليسهل به الإقناع ،وتحصل المعجزة .

وأما في سورة القصص فالمقام أيضاً مقام حضرة إلهية ،وهو أيضاً يشيع العظمة ،ويبعث الطمأنينة ،ولكن الموقف يقتضي هذا ،فإن موسى بصدد المواجهة الآن ، من هنا جاء ذكر الجان ، وهي الدقيقة من الحيات في سرعة .

على أنه لا مانع لدي من أن تكون الصورة واحدة ،والمشاهد مختلفة ،فالحيَّة أوّل حالها ،والجان مآلها ،وكلّ هذا في مقام واحد ،وكلّ هذا كالتهيئة لموسى حتى يزول ما يجده في نفسه من الخوف والذعر حين المواجهة ،والموقف يتحمل هذا ،بدليل أنْ موسى عليه السلام كان في الحضرة الإلهية يتحدّث مع رب العزة والجلال ،ويتلقّى منه الأوامر والعصا تتلوّن من حال إلى حال ،فلمّا ألقاها أول وهلة وهي على البراءة الأصليّة ،صارت حيّة فلم يذعر منها موسى عليه السلام ،لأن روعة الموقف شغلته عن هذا الذعر خلال هذا صارت جانّاً فولّى موسى هارباً مدبراً منها ، فقال له الباريء عز وجل : ﴿ أَقْبِل ولا تَخَفْ إنك من الآمنين ﴾ . والمقام يحتمل ويتسع لكلّ هذا ،بدليل أن موسى عليه السلام طلب من ربّه أن يتجلّى له قائلًا : ﴿ ربِّ أرني أنظُرْ إليك ﴾ [سورة الأعراف : ١٤٣] .

وبعد أن حصلت التهيئة والحصانة ،فلا مانع من تكرار الصورة مرة أخرى ،فالمناعة موجودة ،وهو ما حدث لموسى مع فرعون ،كما قال تعالى : ﴿ قال :أوَلَو جئتُكَ بشيء مبين * قال :فَأْتِ به إن كنت من الصادقين * فألقَى عصاهُ فإذا هي ثُعبانٌ مبين ﴾ [سورة الشعراء : ٣٠ ـ ٣٢] ، إلى غير ذلك من قوّة الإحكام والربط التي بدأت كما وضّحنا قبل ذلك عند أحداث القصة ،وما لها من قوة الترابط والتماسك وقوة الإحكام والربط .

وليست قوة الإحكام بادية في تسلسل الأحداث وترابطها فحسب

ولكنّها جاءت كثيراً في أسلوب القصة المنتظم ،وتركيبها المتناسق ،وذلك بوضع الكلمة في مكانها ، وذلك يتضح في إيثار القرآن الكريم تقديم لفظ على لفظ ،وتأخير لفظ على آخر ،وذلك طبق خواطر النفس مما يراه النقاد القدامى والمحدثون لازمة من لوازم التعبير الذي يصور خلجات النفس حيث أن مواقع الكلمات لها أهدافها السامية في الجملة مما يستفاد من كلام عبد القاهر : « إن العبارة التي يروقك مسمعها ربما إن قدّم فيها شيء ، وحوّل اللفظ من مكان إلى مكان ،فبناء العبارة كما يرى بعض الباحثين بناء خواطر ومشاعر واختلاجات قبل أن تكون هندسة ألفاظ ،وتصميم قوالب ،وطريق التقديم في العبارة النظر فيه يتناول مواقع الكلمات وجريانها طبق خواطر النفس وألوان الحس »(1) .

يقول الله تبارك وتعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى قال : ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتُلوك فاخرجْ إني لك من الناصحين ﴾ [سورة القصص : ٢٠] .

نرى أن الله عز وجل قدّم كلمة « رجل » على كلمة « من أقصى المدينة » لتفيد الآية الكريمة أن ذاك الرجل هو موضع النظر وهو الذي تشهد له النفوس بقوة إيمانه ،وعظيم فضله ،بصرف النظر عن إقامته في أقصى المدينة ،وسكناه في مكان ناء .

فإن الملأ الذين تآمروا على قتل موسى ، وصمموا على التخلص منه ،أخبر به ذاك الرجل ، فهو يستحق كلّ تقدير ،لأنه خلّص موسى من شرّ تلك الفتنة ،وأعانه على الهروب ، فخرج منها خائفاً يترقَّب ،ملتجئاً إلى الله عز وجل ﴿ قالَ : ربِّ نجِّني من القوم الظالمين ﴾ [سورة القصص : ٢١] ، وهم فرعون وملئه الذين تآمروا على قتله ،فكلمة الرجل

(١) دلالات التراكيب ـ دراسة وبلاغة ـ د. محمد أبو موسى : ١٧٤ طبعة عام ١٩٧٩ م .

وقد جاءت منكّرة ،ووضعت في وضعها الطبيعي لتفيد أنّ ذاك الرجل كان رجلاً عظيماً لصنيعه حيث أخبر موسى بما أخبر ،فنجاه من شرٍّ الطغاة ، ولقد تحدثت عنه آية أخرى فوصفته بالإيمان وموقفه الدفاعي تجاه موسى عليه السلام فقال عز وجل : ﴿ وقالَ رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعونَ يكتُم إيمانَه : أتقتلون رجلاً أن يقولَ ربِّيَ الله وقد جاءكم بالبيّنات من ربكم ، وإنْ يكُ كاذباً فعليه كذِبُه ،وإن يكُ صادقاً يُصِبْكم بعضُ الذي يعدُكم ،إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذّاب ﴾ [سورة غافر : ٢٨] ، فهذا الرجل له شأنه وقدره ،لافي إخباره موسى بتلك المؤامرة فحسب ،وإنما في دفاعه عنه حين صمم الطغاة على قتله ،وفي الوقت ذاته كان رجلاً محنّكاً ،على دراية واسعة بأسلوب الحكمة حتّى خاطبهم بطريق النُّصح والملاطفة حتى قال : ﴿ أتقْتُلونَ رجلاً ﴾ ، من غير أن يذكر اسم موسى عليه السلام ليوهِمَهُم أنه لا يعرفه فضلاً عن أن يعتنق دينه ،وفي تقديمه الكذب على الصدق في قوله : ﴿ وإنْ يكُ كاذباً فعليه كذبه ﴾ ، لكي يتماشى مع رأيهم ويوافق هواهم ،وفي قوله : ﴿ وإنْ يكُ صادقاً يصبْكم بعضُ الذي يعدُكم ﴾ ، ما يدفع أنه متعصب له ،حيث أنه لم يقل : كل الذي يعدُكم .

وفي قوله :﴿إنّ الله لايهدي من هو مسرفٌ كذّاب ﴾ ، مع أن فيه تعريضاً منه بفرعون ،حيث أنه يستحق هذين الوصفين لادعائه الألوهية والربوبية والكذب على الله ، مع هذا التعريض بفرعون إلا أنه قد يفهم من ظاهر العبارة أن ذاك الرجل ليس بمصدق بموسى .

وفي قوله : ﴿ يا قومِ لكمُ الملكُ اليوم ظاهرينَ في الأرض ، فمن ينصرُنا من بأس الله إنْ جاءَنا ﴾ [سورة غافر : ٢٩] ، تفيد أن ذاك الرجل عنده فراسة ما بعدها فراسة ، حيث أنه يتلطف مع هؤلاء الطغاة بقوله : أنتم الآن غالبون على بني إسرائيل ،فمن ينقذنا من عذاب الله إن قتلتم رسوله .

ويذكر الرازي [1] أنه قال: ينصرنا وجاءنا لكي يظهر لهم أنه منهم، فهو يقدّم لهم النصيحة. وبذلك يكون دفاعه عن موسى أجدى وأنفع.

وهكذا يتميز ذلك الرجل الذي أخبر موسى بمؤامرة فرعون وقومه برجاحة العقل، وقوة الحجّة في الوقت الذي امتلأ قلبه حباً لموسى وإيمانه بالإله الأعلى، وهو الله عز وجل.

ومن هنا كان تقديم الرجل في قوله: ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة﴾، تقديم يمثل خلجات المشاعر، ويصور ماتكنه النفس لذاك الرجل المشهود له بقوّة الإيمان، وروعة البيان، وكمال الفراسة والذكاء.

وإذا تأملنا لما ورد في سورة يس في قول الله عز وجل: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجلٌ يسعى قال: يا قوم اتَّبِعوا المرسلين﴾ [سورة يس: ٢٠]. نرى أن منطوق الآية قدمت من أقصى المدينة على رجل، على عكس ما ورد في قصة موسى، وذلك لأن المقام هنا يقتضي بيان أن «حبيباً النجار» وهو ذلك الرجل كان في منزله عند أقصى أبواب المدينة، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة [2]، وكان يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضرّه، لأنه كان مصاباً بمرض الجذام، ولكن تلك الأصنام لم تستجب له، فلما أبصر الرسل الذين أرسلوا إلى أصحاب القرية، وهي أنطاكية هؤلاء الرسل وهم: صادق، ومصدوق، وشمعون، ولكن أهلها لم يستجيبوا لهم ﴿فقالُوا: إنا إليكم مرسلون * قالوا: ما أنتم إلا بشر مثلنا﴾ [سورة يس: ١٤ - ١٥].

فلما أبصر حبيب هؤلاء الرسل، ودعوه إلى الله قال: هل من أية؟

(١) راجع: صفوة التفاسير لمحمد علي الصابوني - الجزء الرابع عشر: ٧٩.
(٢) صفوة التفاسير للصابوني - الجزء الثالث عشر: ٤٨.

قالوا : نعم ، نحن ندعو ربّنا القادر فيفرج عنك ما بك من جذام ، فتعجّب قائلاً : إنّي أدعو هذه الآلهة سبعين سنة لتفرج عني فلم تستطع ، فكيف يفرجه ربّكم في غداة واحدة ، قالوا : نعم ، ربّنا على كلّ شيء قدير ، فلما آمن حبيب النجار دعوا الرسل ربهم فكشف ما به .

فلمّا همّ قومه بقتل الرسل جاءهم مسرعاً ﴿ قال : يا قومِ اتبعوا المرسلين ﴾ [سورة يس : ٢٠] .

فالموقف هنا يقتضي تقديم من أقصى المدينة ، لبيان أن ذاك الرجل كان بعيداً في مكانه ، معتكفاً على عبادة أوثانه ، فارّاً من الناس لما أصابه من مرض الجذام ، فجاء من هذا المكان النائي ، لكي يدافع عن رسل الله ، وقطع تلك المسافات الشاسعة ، يسعى على قدميه من أجل أن ينصرهم وقد علم أن الله قد ايدهم من فضله ، وأعطاهم من آياته ، فلقد تم برؤه فذهب جذامه بعد ان طلبوا من الله عز وجل أن يكشف عنه ما به فتقديم ﴿ من أقصى المدينة ﴾ لبيان أن ذاك الرجل لابدّ من أن يبذل جهده حتى يهون على نفسه كلّ مشقّة فأتى من أطراف المدينة جادّاً مسرعاً مستسهلاً الصعاب ، اعترافاً بفضل هؤلاء الرسل ، وقد أزالوا عنه كربه ومحَوا عنه مرضه ، فالموقف في تلك الآية يقتضي تأخير الفاعل ، لأن ذاك الرجل ما دافع عن الرسل ونصرهم إلا بعد عطفهم الشامل نحوه ، على عكس الرجل في قصة موسى الذي إن دافع عن موسى وحماه من بطش الجبابرة فإنما لأن إحساسه الداخلي يتدفق بقوّة اليقين ، فهو يحس بأنّ موسى رسول من رسل الله ، وأنه ما جاء إلا لينذر فرعون وملأه .

كان ذاك الرجل الذي يكتم إيمانه ، يحسّ بهذا كلّه من غير أن يقدّم له موسى معروفاً خاصاً ، أو يسدي إليه صنيعاً كما هو صنيع الرسل مع حبيب النجار الذين طلبوا من ربهم أن يفرج كربه ، فالمقام يقتضي تقديم الرجل في قصّة موسى ، وتأخير الرجل في قصة رسل أصحاب القرية .

وهكذا نلمس قوّة الإحكام ،ووضع اللفظة في مكانها المناسب .

فالقرآن الكريم لا يقدم لفظاً ،ولا يؤخّر آخر إلّا إذا كان المعنى يطلبه تماماً ، فمواقع الكلمات القرآنية تكون طبق خواطر النفس ،وخلجات المشاعر قبل أن تكون هندسة ألفاظ ،وتصميم قوالب .

وقد يبدو لأول وهلة أن بعض الآيات القصصية قد تضاربت في منطوقها واختلفت في عبارتها ،مما قد يظن أصحاب العقول السطحية والمفترين ، أن القصص القرآني قد شابه الاضطراب ،وفاته قوّة الإحكام .

ولكن الحقيقة غير هذا ﴿ ولو كانَ من عندِ غير الله لوجدُوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ [سورة النساء : ٨٢] ،ومن ذلك على سبيل المثال قصة موسى نرى في سورة طه يقول الحق عز وجل :﴿إذ رأى ناراً فقال لأهله : امكثُوا إنّي آنستُ ناراً لعلّي آتيكم منها بقَبس أو أجدَ على النار هدىً * فلمّا أتاها نودِي يا موسى * إني أنا ربُّك فاخلَعْ نعلَيْك إنك بالوادِي المقدَّسِ طُوىً * وأَنا اخترتُكَ فاستمع لما يُوحى * إنّني أنا الله لا إله إلا أَنا فاعبُدْني وأَقِمِ الصلاةَ لذِكْري ﴾ [سورة طه : ١٠ ـ ١٤] .

وفي سورة النمل الآيات (٧ ، ٨ ، ٩) : ﴿ إذ قال موسى لأهله : إني آنستُ ناراً سآتيكم منها بخبرٍ أو آتيكم بشهابٍ قبَسٍ لعلكم تصْطَلُون *فلما جاءها نُودي أن بُورِكَ من في النارِ ومَنْ حولَها وسبحانَ الله ربِّ العالمين * يا مُوسى إنه أَنَا الله العزيز الحكيم ﴾ .

وفي سورة القصص الآيتان (٢٩ ، ٣٠) : ﴿ فلمّا قضى موسى الأجلَ وسارَ بأهله آنس من جانب الطورِ ناراً قال لأهله : امكُثوا إني آنستُ ناراً لعلّي آتيكُم منها بخَبرٍ أو جَذْوةٍ من النار لعلكم تَصْطَلُون * فلمّا أتاها نُودِي من شاطيء الوادِ الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أنْ يا موسى إنّي أنا الله ربُّ العالمين ﴾ .

فبالتأمل في تلك الصور الثلاث ،نلمح أن هناك اختلافاً ظاهرياً في بعض العبارات :

في سورة طه : ﴿ لعلّي آتيكُم منها بقَبَسٍ ﴾ .

وفي سورة القصص :﴿لعلّي آتيكُم منها بخَبرٍ أو جَذْوة من النار لعلّكم تَصْطَلون ﴾ .

وفي سورة النمل :﴿سآتيكُم منها بخَبرٍ أو آتيكم بشهابٍ قَبَسٍ لعلّكم تصطلون ﴾ .

وفي المناداة الإلهية : ﴿ إنّي أنا ربُّك فاخلَعْ نعلَيْكَ ﴾ ،في سورة طه .

وفي سورة النمل : ﴿ أن يا موسى إنّه أنا الله العزيزُ الحكيم ﴾ .

وفي سورة القصص : ﴿ أَنْ موسى إني أنا الله ربُّ العالمين ﴾ .

وهكذا نرى اختلاف القصة في السور الثلاث من حيث بعض العبارات التي وردت على لسان الحقّ عز وجل ،أو على لسان الكليم موسى عليه السلام .

وإنني أرى أن هذا لايعدّ اختلافاً في القصّ ولا تبايناً في الألفاظ التي تؤدي إلى تضارُب المعاني إذ أنه مع هذا الاختلاف اللفظي الذي قد يحدث أحياناً في خلال القصص المكررة ،إلا أن ما تهدف إليه العبارة ،وما تشير ، متفق تماماً وليس فيه شيء من التعارض الذي يجعلُ سياق القصة غيرَ متناسقٍ مع القصص التي تحكى في صور أخرى .

فموسى عليه السلام رأى ناراً ،ومع ذلك هو يأتي منها بقبس أو بخبرٍ ،أو بجذوةٍ ،أو يجد عليها هدىً ،والله عز وجل ناداه سواء بقوله : ﴿ إني أنا ربُّك ﴾ ،أو بقوله : ﴿ أَنَا الله العزيزُ الحكيم ﴾ ،أو بقوله :﴿إني أنا الله ربُّ العالمين ﴾ ،كلُها مؤدّاها واحد ،ومغزاها متفق تماماً .

ومن المعلوم أن الله عز وجل لم يخاطب موسى بتلك اللغة العربية ،كما أن موسى لم يحدث أهله بتلك اللغة والعبارة ذاتها .

وعلى هذا فلا مانع من أن الله عزّ وجل يقرّب هذه المعاني والعبارات إلى أفهام العرب ،وما اصطلحوا عليه من ألفاظ ،وعلى هذا فالعبارات الواردة في السور الثلاث ما كانت إلا لتعبر تماماً عن مفاهيم الألفاظ العربية ،ولتترجم عن المعاني التي ألفها الناس حينذاك .

على أن القصّة القرآنيّة ليس هدفها أن تحكي عبارة بعينها أو لفظاً كما هو ،وإنما هدفها الأساسي هو التعبير عن مشاعر الرسل والألم الذين قد بعثوا إليهم ، ولكن يكون التعبير كاملاً بالألفاظ فحسب ،وإنما يكون بالأحداث التي انبثقت من حياتهم ، فتحركت بها مشاعرهم ،ونبض بها وجدانهم .

فالقصص القرآنية تترجم عن المشاعر والسلوك النفسي والعملي قبل أن تترجم عن نبرة صوتية ،أو محاكاة لفظية .

على أن في اختلاف هذه التعبيرات اللفظية مع الاتفاق في الغاية القصصية ، والأحداث المعنوية ، دليل قوي على روعة القص القرآنيّوبرهان ساطع على إعجازه ،فمع تكرار القصة الواحدة بأساليب مختلفة فإن مغزاها واحد ،وأحداثها متّفقة ،وكلّ قصّة تكمل الأخرى ،فهي كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً ، على أن هذا الاختلاف اللفظي قد يكون مبعثه الإطناب والإيجاز ،كما هو واضح في سورة طه ،الآيات (١٧ ، ١٨ ، ١٩) ﴿ وما تِلكَ بيمينكَ يا مُوسى * قالَ : هي عصايَ أتوكَّأ عليها وأهشُّ بها على غنمي وليَ فيها مآربُ أخْرَى * قال : ألقِهَا يا مُوسى ﴾ .

وفي سورة القصص ،الآية (٣١) : ﴿ وأنْألقِ عصاكَ ﴾ . وفي سورة النمل ،الآية (١٠) : ﴿ وألقِ عصاكَ ﴾ . فنرى في سورة طه حديثاً مطوّلاً عن عصا موسى ،فالله يسأله وهو يجيب ليبين فائدة عصاه ،ثم بعد ذلك يطلب منه الحق عزّ وجل أنْ يلقيَ عصاه .

أمّا في سورة النمل وسورة القصص فلم نَرَ شيئاً من التفصيل عن عصا موسى ،ولم نرَ السؤال والجواب الذي لمسناه في سورة طه ،وإنّما رأينا الأمر

الإلهي لموسى بأن يلقي عصاه .

إذن فليس هناك تضارب في هذه القصة الموسويّة حينما تكررت في ثلاث سور ،وإنما هو الإيجاز والإطناب الذي ربما قد أحدث شيئاً من الاختلاف في سرد القصة ،وبالتأمل في سورة طه نرى أن العصا حينما ألقاها موسى إذا هي حيّة تسعى .

وفي سورة القصص كانت جاناً ،وفي سورة النمل كأنها جان أيضاً وسبق أن قلت : إنه ليس هناك تضارب بين هذا وذاك ،فالحيّة أول حالها والجان مآلها ،فهو يتحدث عن البداية والنهاية ، وعلى كلٍّ فإن أثر إلقاء العصا على نفس موسى هو الذعر والخوف في الصور الثلاث ،وإن اختلف العبارة الدالّة على ذلك .

ففي سورة طه : ﴿ قال : خُذْها ولا تخَفْ سنعيدُها سيرتَها الأولى ﴾ .

وفي سورة النمل : ﴿ فلمّا رأها تهتزُّ كأنها جانٌ ولّى مدبراً ولم يُعقِّبْ ،يا موسى لاتخَفْ ﴾ .

وفي سورة القصص :﴿أقبِل ولا تخَفْ إنَّك من الآمنين ﴾ .

إذن فالصور الثلاث تتفق تماماً في أثر إلقاء العصا على نفس موسى وإن اختلفت في شيء من شكلها لتبرهن على أن العصا حينما ألقاها موسى فانقلبت إلى شيء مخيف لم تثبت على حالة واحدة ،وهكذا نلمس قوّة القرآن الكريم في إحكامه وربطه وعدم تضاربه .

ولست أؤيد من ذهب إلى أن هذا الاختلاف اللفظي مبعثه اختلاف الموقف القصصي ، فما دامت القصة قد وردت لغرض ومقصد كالتسلية والتسرية عن النبي ﷺ ،فلابّد أن تتناول في كلّ موقف شكلاً معيناً ربّما قد يغاير الشكل الآخر الذي تحكيه سورة أخرى ،على معنى أن كلَّ سورة قد تحكي قصة ،فهذه قصة وتلك قصة .

وعلى ذلك لاتكون هناك مشكلةٌ قائمة على هذا الاختلاف ،لأننا لم نربط بين القصتين حتى يقوم التعارض والاختلاف [1] ، فإنني أرى أن السور القرآنية المتعدّدة وإن تحدّثت عن قصة واحدة ،فإنما تكرر حدثاً واحداً ،وقصّة دارت بين قوم وليس من المعقول أن كلّ سورة من القرآن تتناول قصّة على غير القصة التي وردت في سورة أخرى .

إن السور القرآنية تحكي قصة واحدة ،ولكنّها تعرضها بأساليب مختلفة ،بما يتناسب مع لغة العرب ،ويتلاءم مع أفهام الناس سواء في شيء من الإيجاز ، أو في شيء من التفصيل ،وليس من المعقول في شيء أن يكون هدف القصة القرآنية هو الكشف عن موضع العبرة ،وموطن العظة دون قصد إلى تقرير خبر بعينه ،فإن العبرة والعظة ـ على ما أرى ـ لن تنكشف على حقيقتها إلا حينما نلمس حدثاً معيناً ،وموقفاً خاصّاً ، وبذلك يكون تقرير الخبر بعينه من العوامل الهامّة في روعة القصة ،والاتعاظ بها ،فتكون كما قال الحق عز وجل : ﴿ عبرة لأولي الألباب ﴾ .

أما من زعم أن في قول الله تعالى في قصة فرعون : ﴿ ما علمتُ لكم من إلٰهٍ غيري ﴾ [سورة القصص : ٣٨] ،وقوله تعالى :﴿وقالَ الملأ من قومِ فرعون :أتَذرُ موسى وقومَهُ ليفسدوا في الأرض ويَذَرَكَ وآلهتَك ﴾ [سورة الأعراف : ١٢٧] .

ففي الآية الأولى ظهر فرعون بمظهر المعبود .

وفي الآية الثانية ظهر فرعون بمظهر العابد .

مما يدلّ ـ في نظر السطحيين ـ على شيء من التضارب ،وعدم قوة الإحكام والربط .

(١) من كتاب الفن القصصي في القرآن ـ لمحمد أحمد خلف الله : ٢٢٠ طبعة عام ١٩٥١ م .

وإنني أرى أنه لا تضارب بين الآيتين ، حيث إن الآية الأولى على لسان فرعون ، بدليل قول الله عز وجل :﴿وقال فرعون : يا أيُّها الملأ ما علمتُ لكم من إلهٍ غيري ﴾ ، والآية الثانية ليست على لسان فرعون ، وإنما على لسان الملأ من قومه ، بدليل قول الله سبحانه :﴿وقال الملأ من قوم فرعون : أتذرُ موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذَرَك وآلهتك ﴾ .

ففرق بين كلام فرعون ، وكلام قومه ، ومن ثمّ لا تضارب بين الآيتين ولا تعارض .

* * *

والحمد لله في البدء والختام

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه الكرام

مصادر البحث ومراجعه

أولا : القرآن الكريم .

ثانياً : كتب التفسير :

١ ـ تفسير القرآن العظيم :

للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ .

٢ ـ تفسير تنوير المقباس :

لحبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي رضي الله عنهما .

مطبعة دالا ـ الكتب العلمية ـ بيروت .

٣ ـ تفسير الجلالين :

لجلال الدين المحلى ،وجلال الدين السيوطي ، رحمهما الله .

مكتبة العلوم الدينية ـ بيروت ـ لبنان .

٤ ـ تفسير صفوة التفاسير الجامع بين المأثور والمعقول :

للشيخ محمد بن علي الصابوني .

طباعة دار القرآن الكريم ـ بيروت ـ ١٤٠١ هـ .

٥ ـ تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير :

للقاضي الحافظ محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ ، الناشر محفوظ العلي ـ بيروت .

٦ ـ تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل :

لجار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ،المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

٧ ـ تفسير مختصر تفسير ابن كثير :
للشيخ محمد بن علي الصابوني .
الطبعة السابعة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
٨ ـ تفسير المنار :
لمحمد رشيد رضا .

ثالثاً : كتب التاريخ :

٩ ـ سيرة النبي ﷺ :
لأبي محمد عبد الملك بن هشام .
شرح الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد .
مطبعة دار الفكر ـ بيروت .
١٠ ـ السيرة النبوية :
للدكتور مصطفى السباعي .
الطبعة الأولى ١٣٩٢ هـ .
١١ ـ الكامل في التاريخ :
للإمام العلاّمة ، عمدة المؤرخين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ .
الطبعة الثانية ١٣٨٧ هـ ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .

رابعاً : في القصص القرآنية :

١٢ ـ الفن القصصي في القرآن :
لمحمد أحمد خلف الله ـ طبعة ١٩٥١ م .
١٣ ـ القرآن والقصة الحديثة :
لمحمد كامل حسن ـ الطبعة الأولى .

١٤ ـ قصص الأنبياء :
لعبد الوهّاب النجار ـ الطبعة الثالثة .
١٥ ـ قصص القرآن :
لمحمد أحمد جاد المولى ـ طبعة ١٣٩٨ هـ .
١٦ ـ قصص النبيين :
لأبي الحسن الندوى ـ الطبعة التاسعة عشرة .

خامساً : في المعاجم :

١٧ ـ القاموس المحيط :
لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ .
الطبعة الثانية ١٣٧١ هـ ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .
١٨ ـ لسان العرب :
لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري ، المتوفى سنة ٧١١ هـ .
الدار المصرية للتأليف والنشر .
١٩ ـ معجم مصطلحات الأدب :
للدكتور مجدي وهبة ـ طبعة ١٩٧٤ م .
٢٠ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن :
لمحمد فؤاد عبد الباقي .
دار الفكر ـ بيروت .
٢١ ـ المعجم الوسيط .

سادساً : في الأدب والنقد والبلاغة :

(في الأدب)

٢٢ ـ الأدب القصصي والمسرحي في مصر من أعقاب ثورة ١٩١٩ م إلى قيام الحرب الكبرى الثانية :
للدكتور أحمد هيكل ـ الطبعة الثالثة .
٢٣ ـ بحوث في اللغة والأدب :
للأستاذ عباس محمود العقاد ـ ١٩٧٠ م .
٢٤ ـ تذوق الأدب :
للدكتور محمود ذهني .
طبعة مكتبة الأنجلو المصرية .
٢٥ ـ تطور الرواية العربية الحديثة في مصر :
للدكتور عبد المحسن طه بدر ـ طبعة ١٩٦٣ م .
٢٦ ـ الجمال والفن :
للدكتور ماهر كامل .
طبعة دار الطباعة الحديثة بمصر ـ ١٩٥٧ م .
٢٧ ـ صور ودراسات في أدب القصة :
لحسني نصار ـ طبعة ١٩٧٧ م .
٢٨ ـ القصة في أدب الجاحظ :
لعبد الله أحمد باقازي ـ الطبعة الأولى .
٢٩ ـ القصة القصيرة ـ دراسة ومختارات ـ :
د . الطاهر أحمد مكي ـ طبعة ١٩٧٨ م .
٣٠ ـ القصة وتطورها في الأدب العربي :
للدكتور مصطفى علي عمر ـ الطبعة الأولى .
٣١ ـ الواقعية في الرواية العربية :
للدكتور محمد حسن عبد الله ـ طبعة ١٩٧١ م .

(في النقد)

٣٢ ـ أسس النقد الأدبي عند العرب :
للدكتور أحمد بدوي ـ طبعة دار نهضة مصر .

٣٣ ـ أصول النقد الأدبي :
للدكتور أحمد الشايب ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٧٣ م .

٣٤ ـ التيارات المعاصرة في النقد الأدبي :
للدكتور بدوي طبانة ـ الطبعة الثانية .

٣٥ ـ دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث :
للدكتور بدوي طبانة ـ الطبعة الخامسة .

٣٦ ـ في النقد الأدبي :
للدكتور شوقي ضيف ـ الطبعة الرابعة .

٣٧ ـ مقالات في النقد الأدبي :
للدكتور محمد مصطفى هدّارة ـ طبعة ١٩٦٤ م .

٣٨ ـ النقد الأدبي :
لأحمد أمين ـ طبعة ١٩٦٧ م .

٣٩ ـ النقد الأدبي الحديث :
للدكتور محمد غنيمي هلال .

(في البلاغة)

٤٠ ـ أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز :
لعبد القاهر الجرجاني .

٤١ ـ إعجاز القرآن :
لأبي بكر الباقلاني .

٤٢ ـ أنوار الربيع في أنواع البديع :
تأليف السيد علي صدر الدين بن معصوم .
حققه شاكر هادي شكر ـ طبعة ١٩٦٨ .
مطبعة النعمان بالنجف .

٤٣ ـ الإيضاح :
للخطيب القزويني ـ الطبعة الثانية .
مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة .

٤٤ ـ البرهان في علوم القرآن :
للزركشي ـ الطبعة الثانية ـ دار المعرفة ـ بيروت .

٤٥ ـ التصوير الفني في القرآن :
للشهيد سيد قطب ـ الطبعة السادسة .

٤٦ ـ التعبير الفني في القرآن :
للدكتور بكري شيخ أمين .

٤٧ ـ جواهر البلاغة :
لأحمد الهاشمي ـ نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٤٨ ـ دلالات التراكيب ـ دراسة وبلاغة ـ :
للدكتور محمد أبي موسى ـ طبعة ١٩٧٩ م .

٤٩ ـ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي :
للدكتور عبد الرزاق أبي زيد ـ طبعة ١٩٧٦ م .

٥٠ ـ سورة الرحمن ـ عرض ودراسة ـ :
للدكتور شوقي ضيف ـ طبعة دار المعارف بمصر .

٥١ ـ علم البديع :
للدكتور عبد الرزاق أبي زيد ـ طبعة ١٩٧٧ م .

٥٢ ـ فنون البلاغة بين القرآن وكلام العرب :
للدكتور فتحي عبد القادر ـ الطبعة الأولى .
٥٣ ـ مباحث في علوم القرآن :
للشيخ مناع القطان ـ الطبعة الثالثة .

سابعاً : كتب ثقافية :

٥٤ ـ إسلامنا :
لسيد سابق ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت .
٥٥ ـ علم التجويد :
للدكتور عبد العزيز عبد الفتاح القارىء ـ طبعة ١٣٩١ هـ .
٥٦ ـ مع الإيمان في رحاب القرآن :
للدكتور محمد محمد خليفة ـ الطبعة الأولى .
٥٧ ـ معجزة القرآن :
للشيخ محمد متولي الشعراوي .
٥٨ ـ المقدمة :
لابن خلدون ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
٥٩ ـ من قضايا القرآن :
لعبد الكريم الخطيب .
٦٠ ـ نظرات إسلامية :
للدكتور محمد معروف الدواليبي ـ طبعة بيروت .
٦١ ـ اليهود في القرآن :
لعفيف عبد الفتاح طبارة ـ الطبعة الثانية .

فهرس الموضوعات

الاهداء ٥
المقدمة ٧
التمهيد ١٣
الباب الأول : مقاصد القرآن الكريم ١٩
الفصل الأول : العقيدة والتشريع وما يتعلق بهما ٢١
الفصل الثاني : التأسي والاعتبار ٢٧
الباب الثاني : التكرار في القصة القرآنية ٣٣
الفصل الأول : القصة القرآنية بين التكرار وعدمه ٣٥
الفصل الثاني : جزئيات القصة القرآنية الواحدة بين التكرار وعدمه ٤٧
الفصل الثالث : الإفادة في تكرار القصة القرآنية ٦٣
الباب الثالث : ملامح القصة القرآنية ٨٧
الفصل الأول : عنصر التشويق ٨٩
الفصل الثاني : رسم الشخصية القرآنية وحيويتها ١١١
الفصل الثالث : أحداث القصة القرآنية من حيث ترابطها وواقعيتها ١٣٣
الفصل الرابع : ما تهدف إليه القصة من قيم ومعالجة إنسانية ١٥٥
الباب الرابع : من روائع التصوير في القصص القرآني ١٦٧
الفصل الأول : التناسق الفني ١٦٩
الفصل الثاني : الإصابة في نقل العواطف ١٩٩
الفصل الثالث : قوة الإحكام والربط ٢٢١
مصادر البحث ومراجعه ٢٤٩
فهرس الموضوعات ٢٥٧